فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

أحمد أمين

الجزء العاشر

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٦

فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

أحمد أمين

الجزء العاشر

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة
١٩٥٦

فهرس الكتاب

التجديد في الأدب

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتّاب واحتدم فيه الخلاف بين الباحثين .

هل أدبنا العربي يحتاج إلى تجديد ؟ وهل سواء في ذلك شعره ونثره ؟ وتعصب قوم القديم يذودون عنه ويحافظون عليه ، ولا يسمحون بأي تغيير فيه ، وهبّ المحدثون ينعون على المحافظين جمودهم ، وينذرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالقديم معرضين عن الجديد .

ولكن أسوأ ما يسوءني في هذا الموضوع وأمثاله الغموض والإبهام ، فإذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي جمجموا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ، ولا واضحة الدلالة . وقد يجوز إذا حددوا أغراضهم وأبانوا عن مقاصدهم ، أن يوافقهم المحافظون أو أكثرهم ، ولا يكون ثمت خلاف ، وإن يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة .

من أجل هذا كله أحاول أن أعرض لوجوه التجديد التي يخيل إليّ أنهم يريدونها ، وأدلي برأيي فيها ، وأدعو الكتاب أن يساهموا فيها بآرائهم ، ويستدركوا ما يفوتني من حججهم وأغراضهم .

في أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعتريها تغير ولا ينالها تجدد ، هي قدر مشترك من الأسلوب والتراكيب وتأليف الجمل ، به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم ، وينفرد أدب الأمة عن آداب العالم — وقدر مشترك من الفن ، نتبين به الجيد من الأدب في كل عصر وكل جيل ، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية ، وفوق ما يطرأ عليها من كل تغيير .

وهذا وذاك هما اللذان يجعلاننا نتذوق الأدب الجاهلي ، وندرك ما فيه من

جمال ، ونشعر بما فيه من نقص ويستطيع الأديب منا أن يعرف خير ما قال امرؤ القيس ، وما قال طرفة وما قال زهير ، وهو الذى يجعلنا نتذوق ما فى القرآن الكريم من جمال فى الأسلوب والمعنى . وندرك ما فى العصر العباسى إلى عصرنا هذا من نثر وشعر ، ونزنه ونقوّمه ، ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة ، وعلى بعضه بالضعف والقبح والغموض . ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا ، ولا نتذوق له طعما .

وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديداً ولا تغييراً ، إذ بتغييره تضيع اللغة وتفقد مشخصاتها ، فلو قلبنا تركيب الجمل رأساً على عقب ، أو لم نراع الوضع الذى تسير على نهجه اللغة ، لكان لنا من ذلك لغة جديدة ، ليس بينها وبين الأولى نسب .

وهناك نوع آخر من العناصر فى اللغة والأدب ، خاضع للتغير ، قابل للتشكل ، يتأثر بالبيئة وبدرجة الحضارة ، وبالأساليب السياسية ، وبالحياة الاجتماعية ، وغير ذلك .

وفى هذا النوع يكون التغيير والتجديد ، ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسى والشعر الجاهلى فى التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك . ومن أجل هذا أمكن الأديب إذا عرض عليه نوع من الأدب ، أن يعرف عصره ولو لم يعرف قائله ، لأنه يستطيع أن يتبين خصائص كل عصر ومميزاته ، ويطبق ذلك على ما يعرض عليه من شعر أو نثر . ومن أجل هذا أيضاً ترى الفرق واضحاً بين لغة الأدباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاماً . وتجد الفرق واضحاً بين لغة الجرائد المصرية اليوم وبين لغة الجرائد السورية والعراقية وإن كانت كلها تصدر باللغة العربية ، وتشترك فى العناصر الأساسية .

وهذا التغيير أو التجديد فى الأدب وتأثره بما حوله خضع له الأدب العربى

وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين ، فقد رأينا فى العصر العباسى مدرسة وعلى رأسها الأصمعى لا تحب إلا الشعر الجاهلى ، ولا تحب من المحدثين إلا من قلد القدماء . ورأينا من كان ينشد الشعر فيستحسنه ، فإذا قيل له إنه محدث استهجنه واتهم ذوقه ، ولكن هذه المدرسة أخضعها الزمن لحكمه ، ونشأ أدب عباسى جديد احتفظ بالعناصر الأساسية للأدب العربى ولم يأبه لما عداها . وكان الفرق كبيراً بين الأدبين كما قال الجاحظ : كم من الفرق بين قول امرئ القيس :

* تقول وقد مال الغبيط بنا معاً *

وقول على بن الجهم :

فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الماء فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وجاء المتنبى وعلى أثره المعرى فجددا فى الشعر من ناحية الأسلوب ومن ناحية المعانى ، فأنكر عليهما أدباء عصرهما نزعتهما الجديدة ، حتى رأينا من بين العلماء من أبوا أن يعدوهما من الشعراء . ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء ووضع المتنبى والمعرى فى مكانهما اللائق بهما .

وكان هذا هو الشأن فى كل عصر ، حتى عصرنا الحديث ، نشأ قوم تأثروا بالأدب العربى القديم وحذوا حذوه ، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه ، فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير ، وإذا استهلكت البنزين قالوا رعت السعدان[1] ، وسموا الجنيهات الإنجليزية وعملة الورق دراهم ودنانير ، وإذا لم يكن لهم من الأمر شىء قالوا لا ناقة لنا ولا جمل ، وهم فى الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وتأدب قوم بالأدب الغربى إلى ثقافتهم العربية ، فثاروا على كل ذلك واختلفوا بينهم فى مقدار هذه الثورة ، فقوم يريدون أن يتحرروا من الأوزان والتزام القوافى ، وآخرون يريدون أن يتحرروا من التشبيهات البالية والمجاز

(١) السعدان نبت من أفضل مراعى الإبل ، وفى المثل : (مرعى ولا كالسعدان) .

العتيق ، وآخرون يعافون بعض الأساليب القديمة والموضوعات التي جرى عليها السابقون . وكان صراع بين الطائفتين نعرض له بعد .

على كل حال دلتنا أحداث الزمان على أن عوامل البيئة في التغيير والتجديد لا يمكن أن تقاوم ، كما دلتنا على أن ليس كل تجديد يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن ، وأن نجاح من نجح من دعاة التجديد وفشل من فشل منهم إنما كان خاضعاً لقوانين طبيعية ظاهرة حيناً وخافية أحياناً ، وأن نوع التجديد إن كان صالحاً وكان مما تسمح به القوانين الطبيعية للأدب فمعارضة المعارضين لا يكون لها من أثر إلا أن تؤخر زمن الإصلاح ، وهو واقع لا محالة يوماً ما ، وإذا لم تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء أو خطاً في ماء .

وبعد فأي أنواع التجديد يتطلبه المجددون ؟ وهل من خير الأدب العربي قبوله أو رفضه ؟

١ — اللفظ

إن أول أنواع التجديد وأبسطها تجديد الألفاظ ، لأنها مادة الأديب الأولية ، وخيوطه التي ينسج منها قطعته الفنية .

وتجديد الألفاظ على ضربين :

١ — اختيار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر ، لأن لكل أمة في كل عصر ذوقاً خاصاً بها تختار ألفاظاً تناسبها وتأنس بها ، وتمج ألفاظاً لا تستحسنها ولا تستسيغها ، وذوق الأمة في حياة مستمرة ، فهو كذلك في عمل مستمر إزاء الألفاظ ، وأدباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة ، فلو أن أديباً استعمل اليوم كلمة « هَبَيَّخ » للجارية الحسناء لسكفت في إسقاط قصيدته أو مقالته . ولو استعمل كلمة « بُعاق » للمطر أو السيل لدل على فساد ذوقه ،

وسوء أدبه ، ومن أجل ذلك لا يستحسن فى هذا العصر بعض ما كان يستحسن فى عصور سابقة ، فقد كان يستحسن من أبى الطيب قوله :

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كَنَهْوَرا

ولكن (كنهورا) الآن ثقيلة فى اللفظ كريهة على السمع ، وهذا بديهى لا يحتاج إلى إطالة — وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديبا ، لقد أراد الأستاذان الشنقيطى وحمزه فتح الله أن يحييا غريب الألفاظ ويستعملاه فى قولهم وكتابتهم ففشلا كل الفشل ، وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما نستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية ، وفهموا أن ذلك ليس جداً من القول ، وليس طبيعيا أن تعيش بداوة القرن السابع فى حضارة القرن العشرين . إنما يحيا الأديب يوم يوفق لاختيار الألفاظ الرشيقة التى تناسب ذوق عصره ، والعصر الآن أميل إلى السرعة والاقتصاد ، وكلاهما يتطلب الوضوح والجلاء لا الغموض والغرابة .

لذلك أصبحت فى معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار .

٢ — ألفاظ تخلق خلقا ، تلك الألفاظ التى تساير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات ، وما ابتكرت من فن وعلم ومعانى وآراء ، واللغة العربية اليوم ، قاصرة كل القصور فى هذا الباب فليس لدينا ألفاظ لكثير مما اخترع وابتكر ، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم ، تجادل العالم العربى فيها طويلا ولما يستقر على حال .

وكان لقصور الألفاظ أثر كبير فى ضعف الأدب . فكيف يستطيع الأديب أن يصف حجرة وكل ما فيها من أثاث ليس له ألفاظ تدل عليه ؟ وكيف يستطيع الكاتب أن يؤلف رواية ، وهو فى كل خطوة يعثر بمسميات لا أسماء لها ؟ ولذلك

يهرب كثير من الأدباء من التعبير الخاص إلى التعبير العام ، فإذا أراد أن يصف رجلا يلبس طربوشا قال إنه يلبس عمامة أو قلنسوة ، والحقيقة أنه لا يلبس عمامة ولا قلنسوة ، وإنما يلبس طربوشا ، وإذا أراد أن يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية ، وهذا منتهى الفقر فى التعبير .

كل هذا حقن الأفكار فى أدمغة الأدباء ، وسبب ضعف الوصف والرواية وغيرها فى الأدب العربى الحديث ، وجعل الأدباء يفرون إلى الموضوعات الإنسانية العامة ، والأفكار الميتافيزيقية ، فإن نحن شئنا أن يكون الأدب ظلا لحياتنا ، وحياتنا الآن ، وجب أن نحل مشكلة الألفاظ حتى يطلق الأدباء من أغلالهم ، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم ، وظل أدبهم غذاء ناقصا للأمة ليس فيه كل العناصر التى لا بد منها للحياة .

٣ — العبارة

عرضت فيما سبق للبحث فى الألفاظ وما تتطلب من جدة ، واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد فى العبارة . وأعنى بالعبارة الجملة التى يؤدى بها المعنى على اختلاف ألوانها ، من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية .

ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما إلى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية ، فالأدب الجاهلى — مثلا — صورة صادقة لمعيشة العربى فى الجاهلية ، إذا بكى فإنما يبكى الأطلال والمنزل الداثر والرسم العافى . وإذا رحل ، فعلى ناقة أو بعير ، وإذا أعجبه نبت ، فالشيح والقيصوم ، والخزامى والعرار ، وإذا ذكر النسيم ، فصبا نجد ، وإذا حن إلى مكان ، فموطنه من الرقمتين ورضوى وثبير . كذلك كان فى تشبيهاته واستعاراته وأمثاله : يستوحى ما يحيط

به و يستلهم ما يقع حسه عليه . فقال : استنوق الجمل ، وهو أعز من الأبلق العقوق وأبدت الرغوة عن الصريح ، وهم أكثر من الحصى ، وهو ليث غابة ، وما تُحَلُّ حَبْوتَه ، وألقى حبله على غاربه ، وقصرت الأعنة ، واشتجرت الأسنة ، وزلزلت الأقدام من رنين القِسِي وقراع الرماح وطحنهم طحن الرحى ، ومطاله مطل نعاس الكلب ، وكالباحث عن حتفه بظلفه وحط راحلته ، وضرب أوتاده ، وألقى عصاه ، والقافلة تسير والكلاب تنبح . إلى كثير من أمثال ذلك — فهم فى كل هذا يصفون حياتهم و يشتقون منها تشبيهاتهم ، و يضربون منها أمثالهم .

وتتابع أدباء العرب بعد ، يزيدون فى التعبير ، تبعاً لتغير المعيشة الاجتماعية ، وتقدمهم فى الحضارة فقالوا : صندل الشراب وعنبره — وكأن أخلاقه سبكت من الذهب المصفى — ويكاد يسيل الظرف من أعطافه — ويمازج الأرواح لرقته — قد دس له الغدر فى الملق — وهو من صيارفة الكلام يتطفل على موائد الكتاب — وكأن ألفاظه قطع الرياض ، وكأن معانيه نسيم الآصال . وهكذا كانت العبارات المحدثة فى العصر العباسى تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والأموية .

وقد جارى المؤلفون الأدباء : يدونون ما اخترعوا ، ويقيدون ما أبدعوا . فرأينا عبد الرحمن الهمذانى يجمع فى كتابه (الألفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية وإسلامية ورأينا الحصرى يملأ كتابه (زهر الآداب) بفصول يعنونها « ألفاظ لأهل العصر » يجمع تحتها ما اخترعه أهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه أنيق . ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى كان خاتمتهم إبراهيم اليازجي فى كتابه « نجعة الرائد وشرعة الوارد » جمع فيه أحسن العبارات والألفاظ مما قال السابقون والمحدثون إلى عصره .

وبعد ، فلو قارنا بين الأدب العربى الحديث ، والأدب الغربى فى هذا الباب ، أعنى باب العبارة ، وجدنا فى أدبنا العربى قصوراً ظاهراً ، وضعفاً بيناً .

ذلك أن الأدب الغربيساير الزمن ، واعترف بكل ما حدث فيه واستمد منه ، على حين أن الأدب العربي الحديث أغمض عينه عن كل ما كان ، ولم يعترف بوجوده ، نظر الأدب الغربي إلى ماضيه وحاضره ومستقبله ، ولم ينظر الأدب العربي إلا إلى ماضيه . وزع الأدب الغربي لفتاته لينظر نظرة شاملة ، وثبّت الأدب العربي عينيه فيما وراءه ، فلم ينظر إلا إلى قديمه ، فكان ناقصاً لا يسايرنا ، ولا يصفنا ولا يمس حياتنا وإنما يمس حياة آبائنا .

اعترف الأدب الغربي بالأدب القديم فأخذ منه خيره ، واعترف بالدنيا الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها — رأى في دنياه مخترعات ومستكشفات لاحد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطيارات وغواصات وغازات وأضواء وراديو وما لا يحصى كثرة . كل هـذه الأشياء قلبت الحياة الاجتماعية رأساً على عقب . فلماذا لا تقلب الأدب ، فأقبل الأديب عليها يتعرفها ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة ، فكان له منها ما أراد .

ورأى الأديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل أعمال الإنسان تحليلا علمياً دقيقاً ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى وغضب ، فأخذ بحظ وافر منه واستعان به في أدبه وتعبيراته حتى استطاع أحد الكتاب الفرنسيين وهو مارسل بروست (Marcel Proust) أن يحلل ابتسامة سيدة في ست صفحات . ورأى نظما في الحكم تقوم وأخرى تسقط وكان لها من الأثر في حياة الناس وعقليتهم ما يخيل إليك معها أنهم أصبحوا بها خلقاً آخر ، فجعل يتتبع هذه التغيرات ويقتبس منه ما شاء ذوقه الأدبي .

كل هـذا وأمثاله جعل الأدب الغربي يسير محاذياً لكل نظم الحياة ويشاركها في رقيها واتجاهها ، وإن استضاء الناس بمصباح كهربائي فالأدب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به وإن كان نظام الحكم ديمقراطيا فالأدب ديمقراطي ،

والصور التى يصورها ديمقراطية ويتعمق السيكولوجى فى بحثه فيتعمق الروائى فى تحليل شخصيات روايته .

وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والأدب تسير معالا يخطو عنصر منها خطوة إلى الأمام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على أن يحتذيه . أما الأدب العربى فيحارب متراليوزاً بقوس وسهم ويضىء فى أدبه سراجاً بزيت والناس اليوم قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائى بخير منه ، ويبكى الأطلال ولا أطلال ويحن إلى سلع ولا سلع ويستطيب الخزامى والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . من الحق أن نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظاهر عاطفة حية وشعور قوى ، ولكن لا ننشئه . وإذا قلناه وجب أن نقول معه ما نحياه ونعيش فيه .

إذا أنت لم تحم القديم بحادث من الجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت فى العصر العباسى ، ولم تتقدم إلا قليلا بما اقتبس من الأدب الغربى ، والذى تتطلبه من التجديد فيها أن نستمد من حياتنا الواقعية ، ومن كل ما يحيط بنا جملا حية تلائم ما فى نفوسنا ، وأن نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات والكنايات نستمدها من الحياة التى نعيشها والمخترعات التى نستخدمها ، وما وصلت إليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

* * *

وقد عاق الأدب العربى الحديث عن الوصول إلى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها :

(١) ما سبقت الإشارة إليه من أن المخترعات ليس لها أسماء ، وأن أئمة اللغة لم يرضوا أن يستعملوا الكلمات الأجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية ، وتركوا الأدباء فى حيرة من أمرهم ، فكيف يستطيعون أن يستلهموها فى جملة لتكسب

المعنى قوة ، وهم يفرون من التلفظ بها ، ويخشون من علماء اللغة استعمالها ، لذلك رضينا من الأدب بالعدول عنها جملة وتفصيلا ، حقيقة ومجازاً . وبهذا سُد أمام الأديب العربى باب من أوسع الأبواب وأغزرها فائدة .

(٢) وسبب آخر من أهم الأسباب فى فقر الأدب العربى فى التعبير هو أن الأدب العربى الحديث أدب أرستقراطى لا أدب شعبى ، وأعنى أرستقراطية العلم لا أرستقراطية المال ، ذلك أن الأدب الانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى ، أدب شعب لا أدب طبقة خاصة — نعم قد يرقى الأدب الانجليزى مثلا — فلا يفهمه إلا الراقون ، ولكن بجانبه أدب إنجليزى شعبى لا يختلف عن أدب الخاصة فى ألفاظه وتراكيبه وإن اختلف فى دقة المعنى وبساطته — أما الأدب العربى فأدب خاص لطائفة المتعلمين تعلماً راقياً فحسب لا يشاركهم فيه العامة وأشباه العامة وللعامة أدب بلدى خاص يستمتعون به فى أغانيهم ونكتهم وزجلهم ومواليائهم — وحتى الخاصة لا يتذوقون الأدب العربى إلا فى الكتب والمجلات والجرائد . أما أحاديثهم ونوادرهم وفكاهاتهم فباللغة العامية ، وليست أمة من الأمم الحية الآن بين لغتها اليومية ولغتها الأدبية من الفروق ما بين اللغة العربية واللغة العامية .

نتج من هذه الظاهرة نقص كبير فى الأدب العربى الحديث ، لأن استعمال الألفاظ والعبارات فى البيت وعلى المائدة وفى الشارع يكسبها حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة ، ولو اقتصر فى استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة ، لا يهذبها الاستعمال ولا يرقيها الصقل اليومى . وحسبك دليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهى من أهم أركان الأدب لا تجد منها سائغاً عذباً فى أدبنا العربى عشر معشار ما تجده فى الأدب العامى ، وأن النادرة تحكى بالعامية فتضحك إلى أقصى حد ، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة ، وأن كثيراً من الألفاظ والتعبيرات العامية قد أفادها الاستعمال روحا قوية ، فإذا عبرت عنها بالعربية

لم تجد لها من التعبير قوة العامية وحسن دلالتها على المعنى .

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية ما لا يقدر ، فقد أصبح الشعب كله منتجاً أدباً وتعبيراً قويا ، وأصبح الحديث على المائدة وفى حجرة الجلوس وفى التمثيل والسينما يخرج أدبا جديداً ويحيى أدبا قديماً ، والأمة كلها تتعاون فى الإنتاج الأدبى ، هذا بتعبيره الرقيق ، وهذا بنكته ونوادره ، وهذا بقصته وأمثاله ، وهذا بشعره وهكذا .

وليس كذلك الحال فى الأدب العربى ، فالأمثال والنوادر والحكايات باللغة العامية ، والأحاديث اليومية وقضاء كل شئون الحياة باللغة العامية ، وليس للغة العربية إلا الكتاب وما إليه — ولذلك أصبح عندنا أدبان ، أدب أرستقراطى هو هذا الشعر والكتب التى تؤلف والمجلات والجرائد التى تنشر ، وأدب شعبى هو الزجل والأغانى والحواديت وما إليها ، و بين الأدبين فواصل كبيرة وحواجز متينة ، وفى هذا ضرر كبير على الأمة والأدب معاً ، أما الأمة فلأن شعبها لا ينتفع بنتائج المتعلمين منها ، وأما الأدب فلأنه ليس أدباً صحيحاً ، إذ الأدب الصحيح هو ما كان ظلا لحياة الأمة الاجتماعية كلها لا لحياة طبقة خاصة منها .

ولا أمل لحياة الأدب العربى من هذه الناحية إلا بإزالة الحواجز القوية بين العامية والعربية على أى وجه يرضاه قادة الأمة ، و يحفظ للغة العربية مكانتها من حيث هى لغة الدين ورابطة الشعوب الشرقية . إذ ذاك تصبح اللغة حية ، والتعبيرات حية ، و إذ ذاك تزول الحيرة التى نعيش فيها الآن ، فإنك تستعمل اللفظ العامى والعبارة العامية فلا تجد لها نظيراً فى العربية ، و إن وجدت لها نظيراً فنظير ميت ليس فيه حياتهما . كنت أقرأ الآن فى جريدة فوجدت فيها كلمة « بعبع » وكنت أسمع فسمعت من يقول : إنه بيت « مبهوأ » ومن يقول : « رزق الهبل على المجانين » . ووجدتنى إذا أجهدت نفسى قد أعثر على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها . ولكن ليس فيها حياتها ، لأن الحياة وليدة

الاستعمال ، وأريد الاستعمال الشعبي ، وهذا أحد الأسباب في أن مقالات الأستاذ فكري أباظه ، والمجلات الهزلية ، والهزلية الجدية لها من الرواج في أوساط الجماهير ما ليس لغيرها ، وتتفتح لها نفوس شعبية أكثر مما تتفتح للمقالات العربية الصرفة ، وترن الكلمة أو العبارة في الأذن رنيناً دونه رنين العربية الكلاسيكية .

(٣) وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والأدب قوية متينة ، وإن شئت فقل إنه ليس هنالك صلة بين كلية العلوم والآداب ، وإن الثقافة التي يتثقفها الأديب ينقصها — غالباً — قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية ، تجعله يستطيع أن يلم إلماما ما بالمخترعات والمستكشفات ، ويستغلها في أدبه . وهذا القدر يلقفه الأديب الأوروبي في بيته وفيما يقع في يده من كتب ومجلات أولية ، ثم في مدرسته . وأدباء الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم ، فأصبحت هنالك أنواع من الأدب ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية أخذها منهم الشعب واستساغها . أما برنامج الأديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور ، ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور .

٣ — الموضوع

من أوضح الظواهر أن الجمهرة العظمى من المتعلمين الذين درسوا أدباً عربياً وأدباً أجنبياً يعكفون على الأدب الأجنبي يتذوقونه ويكثرون من مطالعته ، في جدهم إن شاءوا الجد ، وفي لهوهم إن شاءوا اللهو . وهم إن قرأوا في الأدب العربي ففي القليل النادر ، وإن فعلوا لم يطيلوا ولم يتعمقوا وقل أن يدرسوا كتابا دراسة جيدة ، إنما أكبر همهم أن يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على أبيات من الشعر يستملحونها ، أو قصة طريفة يتفكهون بها ، ومكتبتهم — على قلتها —

تمثل ميلهم ، فالكتب الإنجليزية أو الفرنسية فيها غالبة ، والكتب العربية قليلة نادرة .

ذلك ولا شك حال أغلب المثقفين ثقافة عصرية .

ويذهب بعض الباحثين فى تعليل هذه الظاهرة إلى أن السبب يرجع إلى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها فى المدارس ، فإن أساتذتها لا يحببون إلى الطلاب الأدب العربى ، ولا يصلون به إلى نفوسهم ، وإنما هى أمثلة محدودة تتكرر عاما بعد عام ، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة ، ولا غرض من دراستها إلا أن يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم ، ثم تذهب بذهاب الامتحان ، لأنهم قد تجرعوها على مضض ، فهم يفرحون بنسيانها فرح المريض — وقد شفى — بالخلاص من دواء مر المذاق .

قد يكون هذا سبباً صحيحاً ، ولكنه فيما أرى ليس بالسبب الجوهرى ، فإن بعض اللغات الأجنبية التى تدرس بيننا ليست دراستها بأحسن حالا من دراسة اللغة العربية ، ومع هذا فالطلبة يسيغون أدبها ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الأدب العربى .

أهم سبب عندى يرجع إلى موقف الأدبين الأدب العربى والأدب الأوروبى .

ذلك أن كل أدب أوروبى له قديم وحديث ، والأدب الحديث هو الذى يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب ، لأنه فى الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفنى ، فالأديب المحدث يرى ظاهرة اجتماعية فيضعها فى قصة ، أو منظراً جميلا فيضمه فى قصيدة ، أو معنى أثارته فى نفوس قومه أحداث سياسية أو اقتصادية فيضمه فى مقالة أو كتاب ، فيقبل الجمهور على قراءة ذلك ويعجبون به ، وسبب الإعجاب أن الأديب شعر بما يشعر به الجمهور ، واستطاع أن يعبر عنه التعبير الفنى الذى لا يستطيعه الجمهور . أما الأدب الأوروبى القديم فإنما يناسب خاصة المتعلمين لأنه يتطلب دراسة لغوية وأدبية عميقة كما يتطلب — لتفوقه — أن يلم

المتعلم بشيء كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التي أحاطت بالأديب وبالقطعة الفنية حتى يستطيع أن يفهمها فهما صحيحاً ، وليس ذلك في مكنة السواد الأعظم من الناس . فالذين يفهمون الإلياذة والأوديسة وخطب ديمستين قليل بالنسبة إلى الذين يقرأون الأدب الحديث ويفهمونه ، وكذلك الذين يفهمون الأدب الانجليزي أو الفرنسي في القرون الوسطى ويتذوقونه هم الخاصة من الأدباء . وإن قرأ الجمهور شيئا من الأدب القديم فإنما يقرأه مترجما إلى اللغة الحديثة ، أو معروضا في شكل جديد قد ذللت فيه كل الصعوبات التي يحتمل أن يلقاها القارئ العادي . أما الأدب الإنجليزي أو الفرنسي الحديث ، فيكاد يكون من حظ الإنجليز أو الفرنسيين جميعاً .

وسبب ذلك أن الأدب هو نقد الحياة في أسلوب فني ، وإذا كانت كل أمة تفهم حياتها الحاضرة فهماً ما — وإن اختلفوا في مقدار الفهم — كان الأدب الحديث أقرب إلى فهمهم وأيسر متناولا لجمهورهم — وإذا كان الأدب القديم وصفا لحياة قديمة لا يستطيع فهمها فهما صحيحاً إلا من عرف بيئتها وتاريخها كان ذلك الأدب أدب الخاصة .

* * *

وبعد ، فالأدب العربي أدب قديم لا حديث له ، وإن شئت تعبيراً دقيقاً فقل إنه أدب قديم لم يستكمل حديثه ، لذلك كان الأدب العربي أدب الخاصة لا أدب الجمهور .

لا يستطيع القارئ أن يفهم الأدب العربي القديم إلا بفهم دقيق للتاريخ وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التي نشأ فيها الأدب ومعرفة واسعة بالجغرافيا ، وعلم تام بقوانين الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغاريتمات ليعرف كيف يبحث في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة ، وليس يصبر على ذلك كله إلا المجاهدون الصابرون ، وقليل ما هم .

يريد سواد المتعلمين أن يغذوا مشاعرهم من حب يحلل تحليلا دقيقاً ، أو إعجاب بمنظر طبيعي ملك عليهم نفوسهم ، فأرادوا أن يصور هذا الإعجاب في قطعة فنية ، أو تبرم بأسر ورق فهم يريدون أدبا يتغنى بالحرية ويحفز النفوس إلى تحقيقها ، أو ألم من سوء حالة اجتماعية فهم يبتغون قصة تمثلها ، أو قصيدة تصفها أو كتاباً يحللها أو نحو ذلك من ضروب المشاعر فلا يجدها في الأدب العربي الحديث إلا قليلا نادرا فيضطر إلى الأدب الأجنبي يقرؤه ويتغنى به ويستمرئه ، وهو على الرغم من أن ذلك الأدب ليس بلغته ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره ولا يحلل حالات اجتماعية تشبه مشابهة تامة حالاته ، على الرغم من ذلك كله مضطر أن يقرأه ، إذ ليس عنده من أدبه ما يكفي لغذائه ، وفي الأدب الغربي كل صنوف الغذاء على اختلاف الأنواع وعلى اختلاف الأساليب ، إن شاء سهلا ، وجد السهل ، أو صعباً وجد الصعب ، أو بين ذلك وجد بين ذلك ، وإذا غمض عليه لفظ استطاع أن يكشف عنه في المعاجم من أول درس تعلمه فكيف لا يهمل بعد ذلك الأدب العربي ويعكف على الأدب الغربي ؟

إن شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية أو العالية في الأدبين ، فهو في الأدب الغربي يدرس شكسبير وأمثاله فيجد موضوعا شيقاً يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه ، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما ، قد صيغت في قالب فني رشيق ، فخرج من الدرس يحبها ويحب موضوعها ، أما في الأدب العربي فيدرس مختارات من جرير والفرزدق والأخطل أو مختارات من مقامات البديع والحريري أو نحو ذلك ، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها أو ما يقرب منها ، ولا فكرة عميقة حللت تحليلا واسعاً ، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها أو على الأقل يكون على الحياد منها .

لست أنكر أن في جرير وأمثاله ، والمقامات وأمثالها ، وفي الأدب العربي

على العموم جمالا وفناً وإبداعاً ، ولكن ذلك لا يدركه إلا الخاصة الذين مرنوا طويلا على الدرس وبذلوا الجهد فى تدريب أذواقهم على تقويمه واستساغته ، وليس ذلك فى استطاعة كل الطلبة ولا أكثرهم .

فإن أنت نظرت إلى الأدب العربى الحديث فماذا ترى ؟ ترى كثيراً من الأدب الغربى قد ترجم إلى العربية ، وليس من الحق أن يعد هذا أدبا عربياً فى جوهره وموضوعه ، إذ ليس له من العربية إلا لغة ملتوية على النمط الغربى . وترى نتاجاً مبتكراً قليلا ، وأكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتباً مجازاً ، ولا تربطها وحدة غالباً . والبقية الباقيــة من القليل هى التى يصح أن تسمى أدباً عربياً حديثاً لم يكتمل .

ذلك فى نظرى أكبر سبب فى انصراف جمهور المتعلمين عن الأدب العربى فإن أريد إقبالهم عليه فلا بد من إنتاج حديث وافر يغذى كل مشاعر الحياة كما يغذى العقول ، وليس من الحق أن ندعو السواد الأعظم إلى الأدب العربى قبل أن نستكمله أو على الأقل نوجد فيه ما يسد رمقهم ، وإن أردنا الإنصاف فواجب أن ندعو الدعوتين : دعوة الأدباء فى العربية إلى أن ينتجوا ودعوة القراء إلى أن يقرأوا .

ولن ينجح الأدباء إذا اقتصروا على أن يحتذوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون أن يمسوا حياتهم الواقعية وبيئتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية ، فالأدب متغير ، خاضع لقانون النشوء والارتقاء ، فإذا تقيد أدباؤنا بالموضوعات التى عالجها القدماء وبالأشكال التى صب فيها الأدب القديم عُدّ أدبهم قديماً لا حديثاً ، ولم يصلح علاجا لما نصف من أمراض .

مثال ذلك : أنا إذا وضعنا أيدينا على مختارات البارودى وهو كتاب ضخم فى أربعة أجزاء اختار فيها الثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسى ، وجدناه

قد اختار نحو أربعين ألف بيت ، منها أربعة وعشرين ألفا فى المديح ، و إذا أضفت الهجاء والرثاء إلى المديح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين ألفا والربع الباقى فى الأدب والصفات والزهد والنسيب !

فترى من هذا إفراط الأدباء القدماء فى وصف العواطف الشخصية من كرم ورثاء وهجاء وتقصيرهم فى أبواب كثيرة أهمها وصف المناظر الطبيعية وتحليل الانفعالات النفسية وغير ذلك من ضروب الأدب .

وهذا التقصير وقع فى الأدب الأوروبى القديم كما وقع فى الأدب العربى ، فلو قرأنا شعر هوميروس وفرجيل ودانتى وجدنا فيه قليلا من وصف جمال الطبيعة من جبال و بحار ونجوم ، على حين أن الشعر الأوروبى الحديث قد ملئ بهـذا الضرب من القول وأبدع الشعراء فيه إبداعاً لا حدّ له ، فأفاضوا فى القول فى السماء ونجومها ، والأشجار وازدهارها وذبولها ، والبحار والصحراء وغيرها ، ووجدوا فى ذلك كله كنوزاً استمدوا منها شعرهم ، وكان تقصير القدماء و إجادة المحدثين فى ذلك قانونا طبيعيا ، لأن الإعجاب بجمال الطبيعة نتيجة رقى كبير فى الذوق ، فإذا قصر أدباؤنا المحدثون فى هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الأقدين فى المديح والهجاء والغزل فقط — ظل نقص الأدب العربى على ما هو عليه .

كذلك يعيش الشرقى عيشة خاصة غير التى كان يعيشها آباؤه ، سفرت المرأة بعد حجابها ، وتغير فى العشرين سنة الأخيرة كل نظم الحياة تقريبا من معيشة بيئية ونظم اجتماعية وحياة سياسية ، وأصبح كل باب من هـذه الأبواب يتطلب قصصاً جديداً وشعراً جديداً وكتبا أدبية جديدة ، فإن نظر أدباؤنا إلى دواوين الشعراء الأقدمين ولم ينظروا إلى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذى فيه يعيشون فلا أمل فى شعرهم ولا نثرهم وظل المتعلم منصرفا عنهم إلى الأدب الغربى على الرغم منهم .

ونوع آخر من الأدب يصح أن يستغله الأدباء وهو أن يعمدوا إلى الأدب القديم ، وأبطال الشرق والأحداث التاريخية العربية فيجعلوا منها موضوعا لدراستهم ثم يلقوا عليه أضواءً مما وصل إليه العلم الحديث والأدب الحديث وعلم النفس الحديث ، فيترجموه إلى لغة العصر ويبرزوه فى شكل يناسب ذوق الجمهور ويحبب إليهم قديمهم .

إنهم إن فعلوا ذلك استطاع من لا يعرف لغة أجنبية أن يجد غذاءه فى الأدب العربى ، واستطاع أن يكون إنسانا مثقفا تكفيه ثقافته ، واستطاع من يعرف لغة أجنبية أن يباهى بأدب قومه كما تباهى كل أمة بأدبها وفى ذلك اعتداد بشخصيتنا العربية الشرقية لا يستهان به .

٤ — الشـــعر

من قديم حاول الأدباء والنقاد أن يضعوا تعريفاً للشعر فاختلفت تعاريفهم لاختلاف أنظارهم ولأن كلمة الشعر استعملت فى معانٍ مختلفة ، فكان كل أديب يعرفه حسب نظره ، وحسب المعنى الذى يرمى إليه ، وكان سواء فى ذلك أدباء العرب والفرنج .

ذلك أن الشعر — على العموم — يتكون من عنصرين أساسيين وهما الوزن والقافية أولا ، وإثارة المشاعر ثانياً ، فإذا فقد الكلام عنصراً من هذين العنصرين لم يصح أن يسمى شعراً ، غير أن بعض العلماء طغى عليه النظر إلى عنصر الوزن فعرفه تعريفا أفقده روحه ، فقالوا إن « الشعر هو الكلام الموزون المقفى » ومثله قول بعض الفرنج « أى كلام موزون يسمى شعراً سواء أكان جيداً أم رديئا » وعلى هذا التعريف فألفية ابن مالك شعر ، وقواعد الحساب

المنظومة شعر ، والمتون الفقهية المنظومة شعر — كما أن بعض العلماء طغى عليه النظر إلى روح الشعر ومعناه فعرفوه تعريفا أفقده موسيقاه ، كالذى قال بعضهم : « الشعر فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء » ومثله قول رسكن : «الشعر إبراز العواطف النبيلة من طريق الخيال» وهو تعريف يصح أن يكون للأدب كله نثره وشعره ، بل للفن جميعه من أدب ونحت وتصوير وموسيقى .

وابن خلدون نقد التعريف بأنه الكلام الموزون المقفى وقال إنه إن صح تعريفا عند العروضيين لا يصح عند البلاغيين ، ثم اختار أن يعرفه « بأنه الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله ، الجارى على أساليب مخصوصة » وعيب هذا التعريف أنه ممل وأنه لم يلتفت إلى مزية الشعر وروحه وهو إثارة المشاعر ، واستقلال كل جزء منه فى غرضه ومقصده ليس من العناصر الأساسية التى يصح أن تدخل فى التعريف .

فلو قلنا إن الشعر هو الكلام الموزون المقفى المنبعث عن عاطفة والمثير لعاطفة كان تعريفا أقرب إلى الصواب .

فإذا وجدت نوعا من الأدب يجمع الوزن والاتصال بالمشاعر فسمه شعراً وإلا فلا .

والشعر يثير المشاعر بما فيه من خصائص — فأولا — بأوزانه وقوافيه ، ولذلك كان المعنى الواحد إذا قيل مرة شعراً ومرة نثراً كان فى الشعر أقوى أثراً .

وثانياً — بلغته ، فللشعر لغة غير لغة النثر ، ولسنا نعنى بلغة الشعر الكلمات الغريبة أو أنواع البديع أو نحو ذلك ، فقد يكون الشعر فى منتهى الرقى وكلماته فى منتهى السهولة ، وهو كذلك خلو من كل أنواع البديع ، إنما الذى

نعنيه أن للشاعر ملكة لا يمكن أن نوضحها تمام الوضوح ، بها يستطيع أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يرى أنها أبعث للشاعر . وهو كذلك يضعها فى قوالب يتخيرها من القوالب العديدة والتراكيب اللغوية المختلفة ، وهذا هو ما يجعل الشاعر شاعراً ؛ فقد يكون عندنا شعور فياض كالشعور الذى عند الشاعر أو أغزر منه ، ولكن ليس لنا هذه القدرة على الإفصاح واختيار الألفاظ والقوالب والتراكيب — ومن ثم كان من المستحيل ترجمة الشعر إلى شعر ، لأن الترجمة لا ترينا ما للشاعر من قدرة فنية على اختيار الألفاظ والأساليب ، والذى نترجمه هو المعنى الذى حواه الشعر وما فيه من تصوير وخيال ، ويعد المترجم أميناً إذا هو استطاع أن ينقل هذا ، أما طريقة الأداء فلا يمكن ترجمتها ، نعم ، إن بعض الشعراء قد يقرأ القطعة من الشعر ، ويكون له قدرة فنية فيصوغ هو شعراً مستمداً من وحى ما قرأ ، وقد يجرى مع الأول فى واد واحد وتكون له عذوبة ما للأول ، ولكن ليس هذا ترجمة على الإطلاق .

كذلك يثير الشاعر الشعور بما عنده من لطف النظر أو الإلهام أو اللقانة أو ما شئت فسمه ، فللشاعر روح غامض طبع عليه لا يكتسب بتعلم ، به ينظر إلى الأشياء نظراً خاصاً ، وبه يبعث الشعور عند السامع . ولعل هذا هو الذى جعل شعراء العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر . ولأمر ما خلط العرب فسموا النبى شاعراً أحياناً وكاهناً أحياناً (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) .

وللشاعر ناظر باطن للحياة يغوص فيها ويستخرج معانيها ويعرضها فى شعره . ولأن الشعر هو معنى الحياة كان شعر كل عصر مرآة له . وقديماً قالوا : (الشعر ديوان العرب) والحق أنه ديوان الأمم ، تسجل فيه حياتها وأفكارها ومشاعرها . فالشاعر يعطينا صورة روحية حية أكثر مما يعطينا إياها التاريخ . والشعراء عادة فى مقدمة قومهم شعوراً ، وشعرهم إيذان بالفلسفة وإرهاص لها ، فهم يلهمون

الشيء إلهاما غامضاً ، ثم يتضح ما ألهموا به على مر الأزمان ، وتأتى الفلسفة بعد فتشرح وتحلل وتدلل

* * *

أما الوزن فى الشعر فهو موسيقاه ، وله قيمة كبرى فى الشعر حتى عدّ أهم فارق بينه وبين النثر ، والشعر يقوى بالموسيقى الجيــدة ، ويضعف شأنه إذا ساءت موسيقاه . وارتباط الشعر بالموسيقى أشد من ارتباط الفنون الأخرى كالنقش والتصوير ، حتى كان الرومان يقولون : « إن الشعراء ليسوا إلا مغنين يترنمون بشعرهم . ويغنون به لأنفسهم ولمن شاء أن يردّده بعدهم » .

ومن أنواع الشبه بين الموسيقى والشعر ما لاحظه بعضهم من أن كلا منهما يتنوع أنواعا متماثلة . فالصوت يختلف عن الصوت من نواح أربعة :

١ — من ناحية الطول والقصر

٢ — والغلظة والرقة

٣ — والارتفاع والانخفاض

٤ — ومن ناحية مصدر الصوت كعود أو قانون

وهذه النواحى الأربعة يمكن أن نراعيها فى الشعر ، فمن النوع الأول اختلاف التفاعيل طولا وقصراً ، فالرجز أقصر فى التفاعيل من الطويل وهكذا . ولهذا الاختلاف تأثير كبير فى الأذن الموسيقية .

كذلك نرى فى الشعر ما يتناسب مع الشدة والضعف والغلظة والرقة فالشعر قد يناسبه — أحياناً — حروف وكلمات ضخمة قوية ، وقد يناسبه حروف وكلمات لينة رخوة ، كالذى قالوا فى قوله :

ألا أيها النـوّام ويحكمو هبّوا أسائلـكم: هل يقتل الرجلَ الحبُّ ؟

فالشطر الأول قوى شديد والثانى رخو ناعم .

وفى الشعر ما يناسبه الهدوء والرقة كشعر الغزل ، ومنه ما يناسبه الشدة والبطش ، ويناسبه إنشاده فى قوة وجلبة كشعر الحماسة .

ونلاحظ فى الموسيقى أن النغمة الواحدة إذا وُقّعت على الكمنجة ثم وقّعت بعينها على البيانة كانت النغمتان مختلفتين تأثيراً ، وهذا يقابله فى الشعر القافية ، فالقصيدة على قافية قد يكون لها أثر لا يكون إذا قيلت على قافية أخرى وهكذا .

* * *

والشعر أقل تقدماً وأبطأ خطى من النثر ، سواء فى ذلك اللغة العربية وغيرها من اللغات ، وسبب ذلك على ما يظهر أن الشعر لغة العواطف ، والنثر لغة العقل ، والمشاعر والعواطف قليلة التغير بطيئة الرقى ، وما حدث فيها من تغيّر فأكثره تغير فى الشكل لا فى الموضوع ، أما العقل فراقٍ أبداً ، وثاب فى الرقى ، ومظاهر ذلك الرقى العلمى الذى نحسه من سنة إلى أخرى ، ولأن الشعر تعبير شخصى وأعنى بذلك أن الشاعر يعرض علينا فى شعره مشاعره ونظراته إلى الحياة و إحساسه بها ، أما الناثر فعالمى إنسانى يعرض الشىء كما هو لا كما يرى ، تحس فى الشعر دائماً بالشاعر يحدثك عن نفسه ، وتحس فى النثر بعقل يخاطب عقلك ، و إن شعرت بالناثر فمن وراء حجاب . ومن أجل هذا خضع النثر للمنطق ولم يخضع له الشعر ، ترى فى الشعر غالباً مبالغة لا يرضاها المنطق ، وتناقضاً لا يقره المنطق ، وتحكما فى الحكم لا يؤيده المنطق ، وتخبطاً وهراء يغتفرهما العقل فى الشعر ولا يغتفرهما فى النثر — وهذه الظاهرة وهى سير النثر إلى الأمام فى سرعة وقفز ، وسير الشعر فى بطء وتمهّل ، هى التى جعلتنا نتذوق النثر فى ذلك العصر ، لأن الصلة بين نثرنا والنثر القديم صلة ضعيفة قد خالفناها كل المخالفة ولم يبق منها إلا أساس التركيب الذى تقتضيه طبيعة اللغة ، بل إن مسافة الخلف بين نثرنا والنثر من عشرين سنة بعيدة كل البعد ، وعلى العكس من ذلك الشعر ، فالفرق بين الشعر القديم

والحديث قليل تافه ومع هذا — فالشعر يجب أن يخضع لسنة النشوء والارتقاء ، ويجب أن يتقدم ويجارى الزمان كما حدث فى الشعر العربى .

يجب أن يتقدم الشعر فى كل من عنصريه عنصر الوزن وعنصر المعنى ، ففى الوزن نرى أن العرب فى الجاهلية صبت شعرها فى ستة عشر بحراً ، وكان خضوعها لهذه البحور لا لأنها حصرت كل ما يمكن أن يكون ، ولكن ابتكروا أولا بحراً أو بحرين ثم جاء الخلف فزادوا هذه البحور شيئاً فشيئاً ، لا يهديهم فى الابتكار إلا الأذن الموسيقية ، وهم لا عيب عليهم فى ذلك ولكن العيب عيب من أتى بعدهم فقدسوا هذه البحور ولم يشاءوا أن يخرجوا عنها قيد شعرة ، وقد تحكم العلماء والأدباء فى أذواق الناس فأبوا عليهم أن يقولوا فى غيرها أو أن يشذوا ولو قليلا عنها . وهو تقديس فى غير محله ، لأن أوزان الشعر كما قلنا هى موسيقاه ، وكما تطورت الموسيقى فى العصور واخترعت نغمات وولد من القديم نغمات جديدة ، وكانت موسيقى العصر العباسى غير موسيقى العصر الأموى ، وهما غير موسيقى الجاهلية ، كان واجباً أن يغير الشعراء موسيقى الشعر ولا يقفوا عند الحد الذى رسمه الجاهليون ، وعجيب أن نسمح فى عصرنا للموسيقى الشرقية أن تطعَّم بالموسيقى الغربية ونهيئ آلاتنا للتوقيع عليها بهذه النغمات الجديدة ونهيئ آذاننا لسماعها ثم لا نفعل ذلك فى الشعر ! نعم أخذ بعض الناس يتحللون من قيود البحور والقوافى الجاهلية كما فعل الأندلسيون بالموشحات وما إليها ، ولكن وقف من بعدهم على اختراعهم ولم يسيروا على سنتهم فى التقدم .

يجب أن يتحرر نوابغ الشعراء من هذه القيود ويشعروا بما يحسون ويوقعوا على النغمة التى يرتضون ، وليس الحكم بيننا وبينهم هو البحور الستة عشر ، ولكن الحكم هو الأذن الموسيقية ، والأذن الموسيقية وحدها ، وكما نرجع فى كل فن إلى الخبيرين نستفتيهم ونحتكم إليهم ، فكذلك فى هذا الضرب يجب أن نحتكم إلى من رقت أذنهم الموسيقية وأذواقهم الفنية وليس فى هذا ضير ما على

ثروتنا القديمة فى الشعر ، فإنا باختراعنا بحوراً وأوزاناً نزيد فى ثروتنا إلى ثروتهم كما نزيد فى موسيقانا إلى موسيقاهم وفى علمنا إلى علمهم .

أما من حيث الموضوع ومعانى الشعر فمجال القول فيه أوسع ، وتقصير الشعراء فيه أبين ، ولئن كانت كل أمة تعد الشعر ديوانا تسجل فيه نزعاتها وآمالها وحياتها ، فإنى أخشى أن يكون الشعر العربى سجلا ناقصاً لم يدون فيه إلا وقائع قليلة من نزعات كثيرة ، وصفحات ضئيلة من حياة حافلة مركبة معقدة . لقد دون الشعر كثيراً من وقائع المديح والرثاء والغزل والخمريات وما إليها وهذا حسن ، وهو ضرب من الشعر لا بد منه ، ولكن ليس هذا كل مشاعرنا ولا أكثرها — لقد مررت فى هذا العام على تلاميذ مدارس ثانوية خارجين من لعب الكرة فسمعت بعضهم يصيح : « يا محلى ديل العصفورة ، ومدرستنا هى المنصورة » فجرت من عينى دمعة على ما نحن فيه من ضعة وانحطاط ، وقلت أين الشعراء يضعون الأناشيد تجارى نفسية الطلبة ، وترقى من مشاعرهم ، وتزيد فى روحهم حماسة وقوة ، وتميز الطبقة المتعلمة من طبقة العامة وأمثالهم ؟ وأنى كشافة العراق ينشدون الأناشيد المختلفة فى المناسبات المختلفة ، فلم يجد كشافة مصر ما يجيبونهم به و يساجلونهم فيه إلا هراء من الكلام وسخفاً من الغناء ، ثم أين الشعراء يضعون أغانى للشعب وأغانى المتعلمين تناسب حياتهم وموقفهم الاجتماعى ؟ نعم ، تنبه بعض الشعراء لهذا ووضعوا أغانى أرقى مما وضع مَن قبلهم ، ولكن أكثرها بكاء وحنين وذوبان ، وهى من الأدب الذى سميته أدباً مائعاً ، والذى لا يصح لأمة ناهضة أن تقتصر عليه ، بل أين شعراء الشرق الذين تغنوا بما حوته طبيعة بلادهم من جمال و إبداع فرقوا ذوق شعوبهم وأشعروهم بجمال الطبيعة ، وغذوا عواطفهم وعوّدوهم تقدير الجمال والهيام به ؟ ! لقد قصر شعراء العرب قديماً وحديثاً فى هذا الباب ، فلا نعثر منه فى الأدب العربى إلا على قليل ، وهذا القليل لا يكفينا الآن ولا يسد رغباتنا ، لأن شعر الطبيعة قد رقى عند الأمم وأصبح مؤسساً على شيئين لا بد منهما ، وهما علم

بالطبيعة ومعرفة بقوانينها ، وحب للطبيعة وهيام بها ، ثم صياغة ذلك فى قول ساحر جذاب .

وهذا الضرب من الشعر قطع فيه المحدثون من الغربيين شوطاً بعيداً وسبقوا فيه مَن قبلهم بمراحل طويلة — وبعد هذا كله — أين الشعر الاجتماعى العربى الذى يساير نزعات أمم الشرق ومطامعها وآمالها فى الحياة ؟ إن أمم الشرق تنزع إلى الحرية وتأمل أن تتبوأ فى العالم الإنسانى المكان اللائق بها ، وتنشد ضروبا من الإصلاح الاجتماعى ترى الحاجة ماسة إليه ، وكلها مجال فسيح للشعر يلهب حماستها ويقوى إيمانها ويهديها سبل الحياة . فأين الشعراء ، الذين وقفوا هذه المواقف وقادوها قيادة صالحة ؟

إن عواطف الأمم الشرقية ساغبة تنتظر من يغذيها ولا تجده .

الحق أن أدباء النثر قد أدّوا رسالتهم خيراً مما أداها أدباء الشعر ، وفى كل من الفريقين تقصير ما؟

مدرسة القياس فى اللغة

من طبيعة الأشياء أن يكون فى كل جماعة بلغت شأواً ما من الرقى ، طائفة من المحافظين وطائفة من الأحرار .

فالمحافظون بطبيعتهم ميالون إلى السير على القديم من غير تفكير فى تغييره ولا الخروج عليه ، ويدعوهم إلى ذلك : إما خمودهم الذهنى وفقدان النشاط العقلى الذى يبعث على التفكير ويدعو إلى التغيير ، وإما حب السلامة وعدم تنغيص الحياة بما يستوجبه التجديد من الاضطراب والتعرض للنقد ، وإما منفعتهم الشخصية من النظام القديم على وجه ما ، وإما إخلاصهم للقديم وإجلالهم له لما أسبغ عليه من تقديس .

والأحرار ميالون إلى التجديد يدعوهم إلى ذلك نشاط ذهنهم وما يرونه فى القديم من عيوب تدعوهم إلى نقدها وتغييرها ، ولهم من الشجاعة والغيرة ما يحملهم على مجابهة القديم والدعوة إلى الجديد .

هذا هو الشأن دائما فى تاريخ الحياة الإنسانية ؛ وقد كان هذا عند العرب كما كان عند غيرهم ، فالدعوة إلى الإسلام نفسه دعوة إلى التجديد ، وكان فى الصحابة أنفسهم محافظون وأحرار قد يمثلهم جميعا عمر بن الخطاب وابنه عبد الله .

وُجد هؤلاء الأحرار والمحافظون فى الفقة ، فكان أهل الحديث الذين يقفون عند جمعه واستنباط الأحكام منه ، وأهل الرأى أو أهل القياس ، وهم الذين يقيسون ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص ، وهذا هو الشأن فى كل جماعة يشتغلون بكل علم : منهم من يقف عندما قرره العلماء ومنهم من يبتكر ويستنبط ويبين خطأ مَن قبله ويصححه .

وكذلك الشأن فى اللغة حتى بين الأدباء ، فمن الشعراء والأدباء مَن كان يلتزم

ما ورد فى اللغة ولا يخرج عنه بحال من الأحوال ، ومنهم من كان يجيز لنفسه أن يجدد . فيحكون عن العجاج وابنه رؤبة أنهما كانا يصوغان ألفاظا لم يُسبقا إليها . ويروى عن بشار أنه كان يقيس ما لم يرد على ما ورد : فرأى العرب تصوغ فَعَلى من الفعل للدلالة على السرعة ، فقالوا : جمزى لسرعة السير ، فقاس عليها وقال :

والآن أقصر عن سمية باطلى وأشار بالوَجَلى على مشيرُ

وقال :

على الغَزَلى منى السلام فربما لهوت بها فى ظل مخضلة زهر

وعابه المحافظون على ذلك فقالوا لم يسمع من العرب وجلى ولا غزلى .

وأنشد الخليلَ رجل فقال :

« ترافع العز بنا فارفنععا »

قال الخليل : فقلت هذا لا يكون . فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

« تقاعس العز بنا فاقعنسسا »

على كل حال ، بدأ العلماء يجمعون اللغة من أفواه العرب سواء فى ألفاظها وأساليبها ، وقد بذلوا فى ذلك جهداً مشكورا وتحملوا فى ذلك من العذاب ما لا يستطيعه إلا أولوا العزم ، وفضّلوا أن يأخذوا عن العرب العرباء الذين لم تفسدهم الحضارة ولا الاختلاط وعدوا أصح من تؤخذ عنهم اللغة — ، وهم قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يأخذوا عن غيرهم من سائر قبائلهم كما لم يأخذوا عن حضرى ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم .

ولكن يؤخذ عليهم أنهم ساروا فى الجمع حيثما اتفق ، فلم يفردوا كل قبيلة بما أخذ عنها ، ولو فعلوا ذلك لأفادونا فائدة كبرى . وفى رأيى أن كثيراً من الاضطراب فى اللغة كالذى نراه فى أوزان جموع التكسير المختلفة ، وجمع الكلمة على أشكال عدة مثل جموع ناقة وعبد ، سببه اختلاف لغات القبائل ، وأن كل

لغة كان لها موازينها القياسية المطردة غالباً ، وكذلك اختلاف أوزان الأفعال الثلاثية كثير منها كان سببه هذا ، وكذلك تعدد المصادر للفعل الواحد ، ففعل لقى مثلا له أكثر من عشرة مصادر ، وما أظن أن قوما عقلاء يجعلون للغتهم مصادر أكثر من عشرة لكلمة واحدة . وهذا ما جعل اللغة العربية تنوء بالمترادفات . فلو أن جامعي اللغة جمعوها على نمط منظم لأفردوا كل لغة بمجموعة ، وكان هذا يفيدنا كثيراً فى تنظيم لغتنا وحذف ما يحذف و إثبات ما يثبت .

كما يؤخذ عليهم أنهم لم يفرقوا فى جمعهم بين اختلاف الكلمات الواحدة من حيث مادتها و بين الكلمات المختلفة بحسب اللهجات ، فقد تكون الكلمة واحدة فى الأصل ولكن اختلفت لهجات القبائل فى وضع حرف مكان حرف أو تقديم حرف وتأخيره ، مثل أن تقول قبيلة : نكف عن الشىء ، وقبيلة كنف ، ومثل عاث يعيث ، وعثا يعثو ، والشىء الشائع ، والشىء الشاعى ، و بضا بالمكان وباض أى أقام ، ومثل كدر وكدل وكدن إلى كثير من أمثال ذلك . والمعاجم مملوءة بها و بتعدادها ، مع أن الواضح فيها أن أصل المادة شىء واحد واختلفت فيها اللهجات ، فلما جاء أصحاب المعاجم جمعوا هذا حيثما اتفق أيضاً . وكان الواجب أن يكون بعد هذا الجمع الترتيب والتبويب والغربلة والدراسة ، كما هو الشأن فى كل علم تجمع مادته الخاصة حيثما اتفق ثم تفحص وترتب حسبما يدل عليه العلم ، فمثلا : جمع المشتغلون بالحيوان أصناف حيوانات البحر وسموها سمكا اعتمادا على سكنى الماء وتماثل الصورة ، وجعلوا صنفاً يسمى الرهيل من السمك لهذه الشواهد الظاهرية ، فلما عنى علماء الحيوان بالبحث وجدوه من ذوات الثدى فألحقوه بالخيل والبقر وأخرجوه من دائرة الأسماك .

وعدّ الأقدمون الأجرام السماوية من ذوات النفوس لما شاهدوا فى حياتهم الأرضية من أن المتحرك من غير محرك محسوس لا يكون إلا ذا نفس و إرادة ، فجعلوا للنجوم نفوساً وإرادات وعدوها أرقى من الإنسان لأنها فى السماء وهم

فى الأرض . فلما اكتشف قانون الجذب ، وتقدم العلم تبين أنها ليست بذات أنفس وإرادات وإنما هى مادة جامدة كالأرض إلى كثير من هذه الأمثلة .

وقد قصر أصحاب المعاجم فى بحثهم المستقصى عن النمط العلمى .

وكان هذا الجمع هو المادة الخامة للغويين والنحويين . فأما النحويون والصرفيون فقد برعوا فى القياس إلى أقصى حد ، فكل علمهم قياسى . نظروا إلى الأعم الأغلب فجعلوه قاعدة وجعلوا ما جاء على خلافها شاذا لا يصح لنا الإتيان بمثله . فالعرب لم تلتزم مثلا نصب اسم إن ولا رفع خبرها ولا عطف المرفوع على المرفوع والمنصوب على المنصوب وهكذا ، بل ورد فى القرآن رفع اسم إن فى قوله تعالى « إن هذان لساحران » وجاء فيه « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » . وقوله « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » فقعدوا قواعدهم على الكثير الغالب . وكذلك الصرفيون فى قواعد الإعلال والإبدال واشتقاق صيغ اسم الفاعل والمفعول والزمان والمكان الخ . فضبطوا بذلك اللغة فى اختصاصهم ، وكل هذا عن طريق القياس .

أما اللغويون فسادت عليهم المحافظة وقلت فيهم الحرية ، وليس الاختلاف فى أن اللغة توقيفية أو غير توقيفية إلا مظهرا من مظاهر المحافظة والحرية ، فمن قال بأنها توقيفية أو بعبارة أخرى من وضع الله أسبغ عليها حلة من التقديس والتزمها من غير تصرف فيها . ومن قال إنها غير توقيفية أو بعبارة أخرى من وضع البشر كان أكثر حرية فى التصرف فيها .

على كل حال نرى كثيراً من اللغويين وقفوا عند ما ورد ، وكانوا محافظين ، ومن هؤلاء جامعو اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى وأبى زيد فلم يكونوا يستبيحون لأنفسهم أن يقولوا كلمة أو يشتقوا اشتقاقاً إلا عن سماع ، ومن هؤلاء أيضاً أصحاب المعاجم كالجوهرى والفيروزابادى وابن منظور فلم يقيسوا على ما رووا ، وإن

اختلف بعضهم عن بعض فى زيادة الـكمية المروية أو نقصها ، وكثرة الاستشهاد وقلته ، وذكر أسماء البلاد والأعلام أو عدمه ، ونحو ذلك .

وبجانب ذلك قلة من القياسيين أو بعبارة أخرى مدرسة القياس وربما كان من أعلام هذه المدرسة أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى .

فأما أبو على الفارسى ففارسى الأب عربى الأم ، مات ببغداد سنة ٣٧٧ فى أيام الطائع لله عن نيف وتسعين سـنة . طوف كثيراً فى بلاد الشام وأقام بحلب مدة وخدم سيف الدولة بن حمدان ثم رجع إلى بغداد وخدم عضد الدولة وبقى بها إلى أن مات .

وقد كان معاصراً لأبى سعيد السيرافى وكان أبو سعيد هذا أكثر من الفارسى رواية ، وكان الفارسى أكثر منه قياساً حتى لقد قال أبو على الفارسى : « لأن أخطئ فى خمسين مسألة مما بابه الرواية أحب إلىّ من أن أخطئ فى مسألة واحدة قياسية . وقد قال فيه بعض تلاميذه : « أحسب أن أبا على قد خطر له وانتزع من علل هـذا العلم ثلث ما وقع لجميع أصحابنا » وما العلل إلا مقدمة القياس .

وكان يقول : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب . فإذا عربت لفظة أعجمية أجريت عليها أحكام الإعراب وعددتها من كلام العرب ، وأجيز الاشتقاق منها : كما عرب العرب لفظة الدرهم واشتقوا منه درهمت الخبّازى أى صارت كالدراهم ؛ وقالوا رجل مدرهم ، أى كثرت دراهمه .

وكان يقول : لو شاء شاعر أو ساجع أو متسع أن يبنى بإلحاق لام الـكلمة اسما أو فعلا أو صفة لجاز له ولـكان ذلك من كلام العرب . وذلك نحو قولك : خرجج أكرم من دخلل وضربب زيد عمراً ، ومررت برجل ضربب وكرمم ونحو ذلك . فقال له تلميذه ابن جنى : أفترتجل اللغة ارتجالا ؟ قال ليس بارتجال ، لـكنه مقيس على كلامهم فهو إذن من كلامهم . ثم قال : ألا ترى أنك تقول :

طاب الخشكنان ، فتجعله من كلام العرب وإن لم تكن العرب تكلمت به هكذا .
قال : فرفعك إياه كرفعها ما صار لذلك محمولا على كلامها ومنسوبا إلى لغتها .

وكان جريئا إلى حد لم نصل إليه إلى اليوم ، فكان من رأيه أن الألف اللينة فى الكلمة الثلاثية تكتب ألفا مطلقاً ، سواء أكان أصلها واواً أم ياء ، وقد علل ذلك بحمل الخط على اللفظ .

وأما ابن جنى فهو من أب رومى ، وكان من أمهر العلماء فى التصريف . مات فى سنة ٣٩٢ فى خلافة القادر . اجتمع بالمتنبى فى بلاط سيف الدولة وكان المتنبى يقول فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » وكتابه الخصائص نحا فيه منحى جديداً طريفا يدل على تذوقه للغة وتعمقه فى فهم أسرارها ومحاولة فلسفتها . وقد صحب أبا على الفارسى أستاذه أربعين سنة واستوعب علمه وزاده تفصيلا وتعليلا وتدليلا . وقد رأى الفقهاء وضعوا للفقه أصولا والمتكلمين وضعوا للعقائد أصولا ، فأراد أن يضع للغة والنحو كذلك أصولا ، فكان بذلك واضع علم جديد يقول فيه : « إنه من أشرف ما صنف فيه من علم العرب وأذهبه فى طريق القياس والنظر وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة » ووصف ما كان يعانى فى ذلك الباب من إمعان النظر وطول التفكير ومقارنة الأشياء بالأشياء وموازنة النظائر بالنظائر ، فكان له من ذلك كله اكتشاف كثير من حقائق اللغة ، وسر الوضع ، ورسم مناهج القياس .

وكذلك له فضل كبير فيما سمى الاشتقاق الكبير ، وهو الذى سماه بهذا الاسم . وقد تنبه إليه أستاذه أبو على الفارسى . قال ابن جنى : « إن أبا على — رحمه الله — كان يستعين به ويخلد إليه لكنه مع ذلك لم يسمه وإنما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح إليه » فجاء ابن جنى فوسعه ونماه وسماه ، وسمى الاشتقاق المعروف فى أيدى الناس بالاشتقاق الصغير؛ كأن نشتق من كتب :

يكتب وأكتب وكاتب ومكتوب ومكتب وكتاب ... الخ ... أما الاشتقاق الكبير فيعنون به حصر أصول الكلمة وتقليبها على وجوهها المختلفة ، وأن نستخرج منها التباديل والتوافيق ونقرن بينها كأن نأخذ كلمة كلم ونحولها إلى : ك م ل ، م ك ل ، م ل ك ، ل ك م ، ل م ك ، ونمعن النظر فيها لننظر هل هذه الحروف إذا جمعت كلها على نحو ما ، دلت على شيء واحد يتنوع بتنوع تركيب هذه الحروف : فنستخرج مثلا أن هذه الحروف الثلاثة إذا اجتمعت دلت على القوة ونستخرج معنى القوة من كل ما دلت عليه فى أشكالها المختلفة ، وهذا باب عظيم من أبواب أصول اللغة تفوق فيه ابن جنى .

ومما يؤسف له أن مدرسة القياس هذه لم تستمر فى سيرها حتى تؤتى ثمارها فإن النكبة التى أصيب بها المعتزلة نكبة أصيب بها العلم العربى كله . فقد كانت الحرب بين المعتزلة والمحدثين حربا أيضاً بين منهجين للعلم : منهج تحكيم العقل مع المحافظة على أصل الدين — وهو الذى دعا إليه المعتزلة — وهو منهج البحث والتجربة والاستدلال العقلى والشك والقياس وما إلى ذلك كما يظهر فى منهج النظّام والجاحظ وأشباههما ، ومنهج الذين يقتصرون على الرواية والجمع والتخريج والتعديل وما إلى ذلك وهو منهج المحدثين . فلما نصر المتوكل المحدثين ونكل بالمعتزلة سادت طريقة المحدثين المؤسسة على الرواية وانكمشت طريقة المعتزلة المؤسسة على العقل والقياس وأثر ذلك فى وقوف جميع العلوم ومنها اللغة .

وقد كان للمعتزلة أثر كبير فى القياس فى اللغة يظهر فى قولهم بأن اللغة اصطلاحية من وضع البشر لا توقيفية ، كما يظهر فى تحرر الجاحظ وأمثاله من المعتزلة فى تشقيقهم الكلام واستعمالهم المولد من الألفاظ بل والأعجمى ، وكما يظهر أيضاً فى أن زعيمى مدرسة القياس وهما أبو على الفارسى وابن جنى كانا من المعتزلة ، وكما يظهر فى البحوث اللغوية الطريفة التى حققها الزمخشرى فى كتبه وتفريقه بين دلالة الألفاظ عن طريق الحقيقة ودلالتها عن طريق المجاز وهو

معتزلى أيضاً . فلما ذهبت دولتهم غلبت دولة المحافظين فى اللغة كما هو الشأن فى كل علم . فإن قلتَ إن العلم العربى وقف عند نكبة المعتزلة أو بعدهم بقليل — لأن أثرهم لم يمح مرة واحدة بل ظل قرنا أو أكثر يعمل بحكم دفعتهم القوية — وقلت إن العلم أصبح فى الأعم الأغلب جمعاً ورواية وتأليفا لمفترق وتفريقا لمجتمع من غير نظر عقلى قوى أو ابتكار ، لم تكن بعيداً عن الصواب .

* * *

ونحن إذا أيدنا القول بالقياس فى اللغة ودعونا إليه فما الذى نريده ؟ وما الذى نستفيد منه فى مثل موقفنا ؟

يمكننا أن نستفيد من القول بالقياس فى اللغة فوائد كثيرة ، من أهمها فى نظرنا :

١ — أننا نجد كتب اللغة كثيرا ما تذكر المصادر ولا تذكر أفعالها أو العكس ، أو يذكر الفعل ولا يذكر من أى باب هو ، فالقول بالقياس يمكننا من تكميل هذا النقص بحمل المجهول على المعلوم . فمتى رأيناهم يكثرون من المصادر على وزن خاص إذا كان الفعل على وزن خاص فى الأعم الأغلب أمكننا أن نقيس ما لم يذكروا على ما ذكروا وأن نعده من كلام العرب وهكذا . وهذا الباب يكمل نقصا كبيراً فى المعاجم .

٢ — أننا إذا وجدناهم يشتقون وزنا خاصا ويستعملونه للدلالة على شىء خاص أمكننا أن نقيس عليه ما لم يذكروا . فإذا وجدناهم مثلا يصوغون «فعّال» للدلالة على محترف الحرفة أو المهنة كنجار وحداد وقفال أمكننا أن نقيس عليه من أسماء أصحاب المهن والحرف ما لم يذكروه .

٣ — الاعتراف بالمولد والدخيل وعده عربيا وإدخاله فى معاجمنا ما دام يجرى على الصيغ العربية ويسير على نمط العرب فى وضعهم أو اشتقاقهم ، مثل كلمة

الوزائع ، وقد استعملها ابن خلدون بمعنى الضرائب التى يوزعها الحاكم على الرعية ، ومثل : تندَّر ، إذا جاء بالنادرة ، وتنادر عليه ، إذا جعله موضع نادرته ؛ وقد استعملها صاحب الأغانى ؛ ومثل : المقيدة ، وهى الدفتر الذى يكتب فيه الرجل ما يمر به تذكرة لنفسه ، ومثل : تفرج ، بمعنى اطلع على الشىء ليتسلى به ، ومثل مئات الكلمات التى استعملت فى العصور المختلفة للدلالة على معان جديدة من مثل ما أثبته دوزى فى معجمه ، فما بالنا لا نثبته فى معاجمنا قياسا على ما فعل العرب ؟

٤ — أننا نجد العرب أحيانا يلحظون فى الشىء معنى من المعانى فيسمونه باسم مشتق من الكلمة التى تدل عليه ، فقد سموا القارورة قارورة لأنهم لحظوا أن الشىء يقر فيها ، وسموا الدار داراً لأنه يكثر فيها الدوران ، فلماذا لا نستعمل هذا الباب فيما يقابلنا من كثير من ألفاظ الحضارة والمصطلحات العلمية الكثيرة التى نقف أمامها حائرين ولا نشتق من الكلمات العربية كلمات تدل عليها ملاحظين ما نلمحه من معنى فيها ؟

٥ — وهناك باب أخطر من ذلك وأجرأ وهو التفهم فى عمق وأناة . كيف وضع العرب لغتهم ؟ فنرى مثلا أن العرب كان لها ذوق مرهف فى وضع الكلمات استنفادا على محاكاة الأصوات تارة بتقليد الأصوات ، كما سموا صوت الماء خريراً وصوت الحجر صكا وصوت الريح هبوبا والضفدع نقيقاً واللبن درا والمريض أنينا الخ ... محاكاة للأصوات التى يسمعونها أو يتخيلونها من صوت هذه الأشياء ثم صاغوا من هذه الأسماء أفعالا ثم توسعوا فى الاشتقاق منها للدلالة على مايشبهها وما يقرب منها . فاللغة عند حدوثها الأول كانت أصواتا يحدثها المتكلم حاكيا للأصوات المسموعة ، ثم صارت تلك الأصوات المحكية . علامة لما يسمع بالأذن أو يبصر بالعين أو يلمس باليد أو يشم بالأنف أو يعقل بالعقل ، شأنها فى ذلك شأن الخط ، كانت عند حدوثه تصويراً للمجسمات ، فالباء للبيت والعين للعين ثم صارت علامة للأصوات المسموعة ، ولكن عادة يكون صوت الحاكى

أقصر من المحكي فيكتفى فى الحكاية بالرمز ، أما النحت والتصوير فتكون الحكاية كاملة .

والأمر فى دلالة الكلمات على الأصوات أدق مما يتصور ، وكثيراً ما تعتمد الكلمة فى حكاية الصوت على حرف يدل عليه وتكمل بقية الحروف لخدمته ، فحرف السين أساسى فى كلمة التنفس والحس واللمس ، لأنه يتخيل فى مدلولها صوت السين عند الاحتكاك ، وحرف الراء هو الأساس فى البحر والنشر والفجر والنحر والبذر والفر ، لأنه يتخيل فى هذه الأشياء كلها صوت الراء ، وحرف النون هو الأساس فى الظن والرن والفن ، وحرف القاف فى الدق والشق والطرق وهكذا .

وعند تحرى هذا الباب نراهم يحاكون أولا صوت المسموع بالأذن ثم ينقلونه إلى المبصر بالعين ثم ينقلونه إلى المحسوس بباقى الحواس الخارجية ثم إلى المعقول بالعقل . فمثلا لو نظرنا إلى كلمة حس وتتبعناها وجدنا أن المصدر الأصلى لحس كان صوتاً سينياً تخيلوا أنه يسمع عند الحس أى عند المس باليد ثم انتقلوا من الإحساس باليد إلى الإحساس بغيرها فسموا كل ما يشعر به محسوساً وسموا الآلات التى يحس بها حواس ثم أطلقوها على العلم الحادث من الحواس وعلى اليقين الحاصل من العلم بها واشتقوا أحس بالشىء أى أيقنت به ، ولو تتبعت المادة لوجدتها كلها من هذا القبيل مندرجة على نحو ظريف . ثم نوعوا هذا الصوت السينى فجعلوه مرة حساً ومرة لمساً ومرة مساً . . . ولو تقصينا هذا الباب على هذا النمط لأفادنا فائدة كبرى ولدلنا على أن مصادر اللغة التى تحاكى الأصوات فى منبعها الأول كانت مصادر محصورة تعد بالعشرات فإن توسعنا قليلا قلنا بالمئات ، ثم تضخمت هذه المصادر بالاشتقاق الصغير والاشتقاق الكبير على مدى الأزمان وعلى حسب ما يجد من المعانى وما يقرب من المصادر الأصلية ، وهو باب يفيدنا عندما يفسر أصحاب المعاجم أو المفسرون للقرآن والحديث والنصوص الأدبية اللفظ

بتفسيرات مختلفة فنستطيع به أن نرجح قولا على قول ورأياً على رأى ، كما نستفيد منه استكشاف بعض الأغلاط التي وردت في معاجم اللغة ومنشؤها خطأ في النقل أو تصحيف في الكتابة أو نقل عن ألثغ أو نحو ذلك ، وهذا باب عظيم يحتاج الكلام فيه إلى أكثر من محاضرة ، وإذا كان ابن جني قد سمى هذا ما اكتشفه الاشتقاق الكبير فيصح أن نسمى هذا الضرب الاشتقاق الأكبر .

وتارة كانوا يلحظون ما بين الحرف والمعنى من مناسبة فيلحظون في الحاء إذا أتت في آخر الكلمة دلالة على الاتساع والانتشار مثل ساح وباح وصاح وشرح وسرح . والكلمة المبدوءة بالشين على التشتت والتفرق مثل شتت وشطر وشمت وشع الخ . . . . والكلمات المبدوءة بالغين على الغموض مثل غمض وغابت الشمس وغبش الليل وغار الماء وغطى الشيء الخ . . . وقد فطن بعض كبار اللغويين إلى هذا الأمر ونبهوا عليه كما يفعل الزمخشري كثيراً في تفسيره .

وهذا الأمر وإن لم يصرح العرب به ، فقد كان مركوزاً في طبيعتهم مقدساً في أذواقهم يعتمدون عليه في وضع الكلمات والاشتقاق منها ، فمن بلغ من قوة الحس مبلغهم ومن دقة الملاحظة دقتهم ، كان له بمقتضى القياس مثل ما لهم .

ولكن من الذي يجوز له هذا ؟ إننا إذا قلنا بجوازه لكل فرد كان الأمر فوضى وتعرضت اللغة للاضطراب ولكنا نقول كما قال الفقهاء ونحذو حذوهم ، ففي عصورهم الزاهية كان الاجتهاد وكان البحث في المجتهد والقول في شروطه ، وحصروا قياس الأحكام وتقويم العدالة وصحة الحكم في يد المجتهدين ، وشرطوا للمجتهد شروطاً تتلخص في أن يكون محيطاً بمدارك الشرع متمكناً من وسائل النظر فيها والاستنباط منها ، وعلى الجملة يكون فضلا عن مواهبه الذهنية مثقفاً ثقافة شرعية وما يلزمها من ثقافة لغوية ونحوية الخ . . . وعلى هذا القياس يجب أن نقول في المجتهد اللغوى ، فلا بد أن يكون مثقفاً ثقافة لغوية وأدبية واسعة ، متمكنا من النحو والصرف لأنهما وسائل من وسائل إتقان اللغة ، وفوق ذلك أن يكون له ذوق قد

أرهف بكثرة القراءة اللغوية والأدبية ، ومعرفة بسر الوضع على النحو الذى أبنا حتى يستطيع أن يدرك بحسه الذى كونته الثقافة وعلمه العميق ، الجيد من الردىء وما يصح وما لا يصح ونحو ذلك . كما يستطيع بهذه المؤهلات كلها أن يتخير اللفظ المناسب للمعنى المناسب ، إما بوضع جديد أو اشتقاق من لفظ قديم ، فإذا بلغ هذا المبلغ كان له الاجتهاد اللغوى كما كان لنظيره الاجتهاد الفقهى .

وكما أن للهيئات القضائية مركزاً هاماً يستند إليه فيما يصدر عنه من أحكام ويستأنس بما وصل إليه فى القضايا المعروضة من اجتهاد فكذلك يجب أن يكون الشأن فى اللغة — فى الاجتهاد وشروط المجتهد والجمعيات اللغوية التى تتمثل فى المجامع وأشباهها . لا يمكن أن تحيا أمة حياة صحيحة — إلا بالاجتهاد . الاجتهاد فى التشريع والاجتهاد فى كل علم من العلوم والاجتهاد فى اللغة . ودعامة الاجتهاد التى يرتكز عليها هى القياس .

الأدب فن جميل

لعله من الخطأ المزمن دراستنا للأدب على أنه فن مستقل ، فإن ربطناه بغيره فإنما نربطه بقواعد النحو والصرف واللغة على أنها وسائل لابد منها للأدب والأديب ، مع أن هناك رابطة أوثق ، واتصالا أحكم ما يزال أكثرنا غافلا عنه للآن — وهذه الرابطة إن درست دراسة دقيقة واسعة غيرت نظرنا للأدب وتقويمه ، وأفادتنا أكبر فائدة فى النقد الأدبى . وأعنى بهذا أن تدرس الأدب على أنه فن من الفنون الجميلة كالنقش والتصوير والموسيقى ، يخضع للقوانين العامة التى استكشفها علم الجمال ، ويشترك فيها مع كل هذه الفنون ، كما يخضع النبات والحيوان والإنسان للقوانين العامة لعلم الحياة ، وكما تخضع كل المواد على اختلاف أنواعها لقوانين علمى الطبيعة والكيمياء .

فهناك فرع من فروع الفلسفة هو « علم الجمال » أخذ يتساءل : ما هو الجميل وما الشروط التى تتوافر فى الشىء حتى يعد جميلا ؟ وأجاب عن ذلك إجابات عديدة ، ووضع القواعد المختلفة التى تنطبق على كل جميل — وهذه الأسئلة والإجابات والقواعد يمكن تطبيقها على الأدب كل الانطباق ، لأن الأدب ليس له قيمة إلا فى جماله — جمال لفظه وجمال معانيه وجمال عواطفه وجمال خياله ، فإن هو عرى عن هذا الجمال لم يعد أدبا ، ومن أجل ذلك كان الأدب يخاطب العاطفة لا العقل وحده كما هو الشأن فى الموسيقى والتصوير والنقش ، إنما الذى يخاطب العقل وحده هو العلم لا الفن . فالقصيدة من الشعر والوردة فى غصنها والقمر فى سمائه ، والجبل المعمم بالثلج ، والتمثال المحكم الأنيق والبناء الشامخ المشيد والقطعة الموسيقية الجيدة التوقيع ووجه المرأة الحسناء والرواية الحسنة والقصة الحلوة — كلها نسميه جميلا وكلها يخضع لقوانين الجمال . فإن اختلفت فى شىء

فاختلاف فى التفاصيل لا فى الأسس . فإن نحن نظرنا إلى الأدب على أنه أحد الفنون الجميلة كان هذا المنظر خليقا أن يصحح نظرنا ، لأن ما نضعه من قواعد الأدب الأساسية يمكن امتحانه بتطبيقه على الموسيقى والنقش والتصوير حتى نتبين صحته من فساده . أما إن استمر الأدباء فى نظرتهم إلى الأدب مستقلا وقعوا فى خطأ قصور النظر ، وكان مثلهم مثل من بنى قواعد كلية بعد مشاهدته جزئيا واحدا ، أو بعد أن استقرأ استقراء ناقصا .

وشيء آخر وهو أن نظرنا إلى الأدب فى ضوء الفنون الجميلة الأخرى يوسع نظرنا إلى مناح نعجز عن إدراكها إذا نظرنا إلى الأدب وحده .

فقوانين الجمال واحدة مهما اختلفت مادتها الأولية ، فقد تكون المادة حجرا فتكون تمثالا ، أو لونا فيكون تصويرا ، أو صوتا فيكون موسيقى ، أو يكون شعراً أو نثراً . وقد ندرك الجمال بأعيننا وقد ندركه بآذاننا ولكن مع كل هذه الاختلافات هناك صلة مشتركة صاربها الجميل جميلا وإذا عدمت عدم الجمال . وهذه الصلة تكون فى الأدب فيكون أدباً جميلا ، وفى الموسيقى فتكون جميلة ، وفى الصور فتكون جميلة . وعلى مقدار تحقق هذه الصلة يكون مقدار الجمال سواء كانت هـذه الصلة فى الشيء الخارجي وحده كما يقول بعضهم — أو فى الشخص الرائى والسامع وفى المرئى والمسموع معا كما يقول آخرون . ولكنها على كل حال قدر مشترك بين جميع فروع الفن .

ونظرة واحدة ترينا الارتباط المتين بين فروع الفن المختلفة . فالشعر — مثلا — ليس إلا تصويراً ناطقاً ، والتصوير ليس إلا شعرا صامتاً . والشعر والموسيقى أشد ارتباطا . فأوزان الشعر أوزان موسيقية تختلف فى الحركات والسكنات والطول والقصر كما هو الشأن فى الموسيقى . ونلاحظ فى الموسيقى أن النغمة الواحدة إذا وقعت على « الـكمنجة » ثم وقعت بعد على « البيانو » كانت النغمتان مختلفتين

كيفية ومختلفتين تأثيراً ، ولكل منهما طعم غير طعم الأخرى . وهذا يقابله في الشعر القافية . فالقصيدة على قافية قد يكون لها أثر غير القصيدة إذا قيلت على قافية أخرى وهكذا .

بل هناك دليل أقوى من هذا ، وهو أن مرجع كل الفنون من أدب وتصوير وموسيقي إلى « الذوق » وهذا الذوق خاضع لقوانين النشوء والارتقاء والرقي والانحطاط في الفنون كلها . فالطفل قبل أن يشعر بلذة من جمال شكل أو جمال حركة تأخذ ببصره الألوان الزاهية والصور البديعة . ومن أخذ بحظ قليل من المدنية يميل إلى الألوان القوية كالأحمر القاني والأصفر الفاقع ويعجبه من الثياب الألوان الكثيرة الصارخة . أما المتمدنون فتعجبهم الألوان الخفيفة المتناسقة الخافتة الهادئة — وكذلك الشأن في الأدب فالقطعة الأدبية التي تعجب الشعب المنحط لا تعجب الأديب الراقي من ناحية الألفاظ ومن ناحية المعاني ، وهذا — من غير شك — يرجع إلى اختلاف الذوق وتدرجه في الرقي ، بل الأديب نفسه إذا رقي استحسن ما لم يكن يستحسن ، واستهجن ما لم يكن يستهجن تبعا لرقي ذوقه . وإذا كان الذوق يرقى وينحط فهو خاضع لنظام وقوانين يمكن دراستها وإن لم تستكشف جميعها الآن ، وهذه القوانين يمكن تطبيقها على الأدب كما يمكن تطبيقها على الموسيقى والتصوير وكل فن جميل .

بل كل الفنون مرجعها عند الفنان والسامع والرائي إلى الشعور بالجمال ، والفنان يشعر بالجمال ثم يتحول الشعور عنده إلى إنتاج ، وما ينتجه يثير في نفس السامعين والناظرين شعوراً بالجمال ، فالمنظر الجميل يثير عند الفنان شعوراً بالجمال فيحوله الشاعر شعراً والمصور صورة والمسيقي موسيقى ، وهي كلها تثير الشعور بالجمال عند من رآها أو سمعها ، ولا فرق بين الفنان وغيره إلا أن الفنان قابل فاعل معا وغيره قابل فقط ، فجميع الفنون تتفق في الأصل ولا تختلف إلا في الشكل . وكل الفروق بينها أن هذا يصوغ فنه من كلمات وهذا من نغمات وذاك من ألوان ،

لأن هذا يعتمد على قلمه والآخر يعتمد على عوده أو قانونه والثالث يعتمد على ريشته ، إلى آخر ما هنالك من فروق لا تمس الأصل .

* * *

إن كان ذلك كذلك كان من الخطأ البين أن ندرس الأدب والبلاغة والنقد الأدبي دراسة مستقلة عن دراسة قواعد الجمال في الفنون الجميلة عامة ، بل يجب أن ندرسها في ضوء جميعها — ويقيني أن الدراسة على هذا النحو الذي أقترحه تعدل نظرنا في الأدب وقواعده وتكشف لنا عما وقعنا فيه من ضروب النقص ، فنظرنا إلى المجاز والاستعارة والكناية يتغير إذا نظرنا إليها في ضوء التصوير الرمزي ، والموسيقي من محسنات وبحور الشعر تصحح بدراسة حركات الموسيقى وهكذا .
ولأضرب لذلك مثلا يوضح ما أريد : خذ مثلا المبالغة فإننا ندرسها في الأدب مستقلة ويعرضون لها في البلاغة بنظرات ضيقة . فإن هم ألقوا نظرة على الفنون الجميلة جميعها رأوا أن المبالغة لابد منها في الفنون بقدر ما توضح الحقائق ، وأن الفنان إن اقتصر على تقليد الطبيعة لم يكن لفنه قيمة ، فهو يبالغ في الطبيعة لتوضيحها ، فالمصور يبالغ في بعض أجزاء الصورة لمعنى يوضحه ، والشاعر يكبر حجم الرجل ليشعر بعظمته ، وواضع القصة أو الرواية يبالغ في نواحي أشخاص الرواية حتى تدل بوضوح على المعاني التي يريدها ، والخطيب يبالغ في المعنى الذي يريده حتى يثير إلى أقصى حد عواطف من يخطبهم وهكذا . فلو نظرنا إلى المبالغة في ضوء الشعر والرواية والخطابة والتصوير والموسيقى أمكننا أن نستخلص من ذلك كله قواعد تفوق بمراحل ما استنبطناه من قواعد المبالغة حين عرضنا للأدب وحده .

كذلك نراهم — مثلا — يعرضون عند الكلام في النقد الأدبي لعلاقة الأدب بالأخلاق ، وهل يجب أن يخضع الأدب للأخلاق أو أن الأدب للأدب

وأن القطعة الأدبية قد تكون بالغة أقصى السمو ولو لم تتفق والأخلاق ؟ ومن رأيي أن هذه المسألة إذا لم تدرس في حدود الأدب وحده بل درست في دائرة الفن جميعه من موسيقى وتصوير ونحت وتماثيل ، اتضح وجه الحق فيها أكثر من وضوحه عند قصر نظرنا على الأدب وحده .

لقد تعددت دراسات الأدب وسلك الباحثون فيه سبلا كثيرة ، فقوم درسوا الأدب دراسة تاريخية فدرسوه على أنه ظل للحياة الاجتماعية وقالوا لا يمكن أن نفهم الأدب حق الفهم إلا إذا درسنا البيئة التي أنتجته ، فلسنا نستطيع أن نفهم المتنبي — مثلا — إلا إذا فهمنا الأوساط التي قيلت فيها قصائده ففهمنا حال مصر إذ ذاك وما قال فيها وفي ملوكها ، وفهمنا حال العراق وما قال فيها من قصائد ، وهكذا — ودرس آخرون الأدب من ناحية حياة الأديب ولاحظوا في ذلك أن نفس الأديب هي المنبع الذي صدرت عنه القطعة الفنية فيجب أن تدرس هذه النفس ليفهم ما يصدر عنها ، فالكتاب الذي ألف والقصيدة التي نظمت لا يمكن فهمها حق الفهم إلا إذا فهمت نفسية القائل . واتجه آخرون اتجاها غير هذا وذاك فقالوا يجب أن ندرس الأدب من حيث هو ، لا من البيئة ولا من حياة الأديب ، وأن نقوم الآثار الأدبية بقطع النظر عن بيئتها وقائلها ، وأن نجيب عن الأسئلة الآتية : ما منزلة القطعة الفنية ؟ وما موضع الحسن فيها ؟ وما الذي جعلها أثراً فنياً على مر الزمان ؟

والذي أدعو إليه في مقالي الآن شيء غير هذا كله ، وهو أن ندرس الأدب من حيث هو فن جميل ، ومن حيث هو خاضع لقوانين علم الجمال ، ومن حيث الارتباط الشديد بينه و بين سائر الفنون الجميلة .

وهذا يتطلب أن عالم الأدب ينبغي أولا أن يدرس علم الجمال وما وضع له من قواعد وما أثيرت حوله من مسائل . و إذا كان علم الجمال فرعاً من فروع الفلسفة

فيجب أن يدرس ما يتصل به من فروع الفلسفة وخاصة علم النفس — وهو إذا درس القواعد العامة لعلم الجمال استطاع بعد أن يدرس القواعد الخاصة التي يمتاز بها كل فن جميل ، فالموسيقى تمتاز بأشياء لأن عمادها الصوت ، والتصوير يمتاز بأشياء لأن عماده اللون ، والأدب يمتاز بأشياء لأن عماده اللفظ والمعانى — ولكن هذه الأشياء التفصيلية لا تفهم حق الفهم إلا فى ضوء النظريات العامة التى تشترك فيها كل الفنون الجميلة — ذلك أن الفنون الجميلة جميعها ترتبط بالعاطفة وتعتمد عليها وتوضع من أجلها وتقوم بها — فما لم تدرس العاطفة وحاجتها إلى الجمال وغذاؤها بالجمال لا يمكن أن يفهم أى فن ومنه الأدب .

بهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نفهم الأدب ونقدره تقديراً صحيحاً ، وبذلك نستطيع أن نضبط النقد الأدبى ونعالج ما هو فيه من فوضى لا تستند إلى أساس ، ويذهب كل ناقد مذهبه ويركب رأسه من غير أن يتحدد بحدود تقيده وأسس يلتزمها ويسير عليها .

وأنا على يقين أنا إذا سرنا على هذا النمط تغيرت وجوه دراستنا التقليدية التى سرنا عليها إلى الآن فى البيان والبديع والنقد الأدبى ، وتجلت لنا أمور فى منتهى الخطورة ، ورأينا أنفسنا نمسك بالقلم نحذف كثيراً من أمور السخف أوقعتنا فيها النظرة الجزئية للأدب ، ورأينا أنفسنا نؤسس علما جديداً ومذهباً جديداً ونظريات جديدة .

أغنيـــــة

تعجبنى أحيانا بعض الأغانى الشعبية ، إذ أراها تمثل روح الشعب وآماله وآلامه — وأراها أصدق فى وصف الحياة المتنوعة مما يفعل أدباء اليوم ، فكل أغانيهم لا تمثل إلا عاطفة الحب البائس ، وما يتبعه من ألم ممض ، ولوعة مضنية ، أما الأغانى الشعبية ففيها الحب البائس والحب الباسم ، وفيها التغنى بالبطولة والشكوى من الظلم . وأحيانا فيها فلسفة اجتماعية كالأغنية التى سأعرضها اليوم ، ومرماها تصوير الهيئة الاجتماعية فى صورة الجسم الواحد تتعاون أعضاؤه لتحقيق المصلحة العامة — وهو معنى عرض له الفلاسفة والأدباء فى الأمم المختلفة قديما وحديثا — فمثّله اليونان مرة بإضراب أعضاء الجسم . قال القلب : لماذا أوزع الدم على سائر الأعضاء ولا ينالنى أنا منه إلا قطرات ؟ فلأضرب . وقالت المعدة : ولماذا أهضم أنا أيضا الأكل كله وليس يصيبنى منه إلا قليل ، أفما كان الأولى ألا أهضم إلا ما ينالنى ؟ فلأضرب . وقالت الأسنان : وما لى أنا كالطاحون تطحن دائما ولا ينالنى من الغذاء إلا قدر السمسمة ؟ فلأضرب . وقالت الرجل : وأنا دائبة السعى يمينا وشمالا وليلا ونهاراً فى جمع العيش وتحصيل القوت ، ثم حظى من كل هذا فتات الموائد ؟ فلأضرب . وقال كل عضو هذا القول أو شبهه ، فأضربت الأعضاء جميعاً ، فلا الرجل تسعى ، ولا اليد تحمل الغذاء إلى الفم ، ولا الأسنان تمضغ ، ولا المعدة تهضم ، ولا القلب يوزع .

ثم بعد قليل شعرت المعدة بالجوع ولم تستطع الرجل المشى ولا اليد الحركة ، وأدركت كلها أنها سائرة إلى الفناء السريع ، فاجتمعت على عجل وقررت فض الإضراب إذا رأت أن كل عضو يعمل لنفسه ولغيره ، وأن غيره يعمل لنفسه ولغيره ، فالغرم بالغنم والربح على قدر الخسارة .

ولحظ هذا المعنى شعراء العرب فقال أبو العلاء المعرى فيه :

المرء كالنار تبدو عند مسقطها صغيرة ثم تخبو حين تحتدم
والناس للناس من بدوٍ وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم
وكل عضو لأمرٍ ما يمارسه لا مشى للكف بل تمشى بك القدم

أما هذه الأغنية التى أشرت إليها فتمثل هذا المعنى من ناحية أخرى ظريفة ، وهى ارتباط الصناع وأرباب الأموال برباط وثيق ، لا يمكن أن يستغنى أحد عن أحد . وهاهى بعد حذف ديباجتها :

« وحصانى فى الخزانة ، والخزانة «عاوزة» سلم ، والسلم عند النجار ، والنجار عاوز مسمار ، والمسمار عند الحداد ، والحداد عاوز بيضة ، والبيضة فى بطن الفرخة ، والفرخة عاوزة قمحة ، والقمحة عند القماح ، والقماح عاوز فلوس ، والفلوس عند الصريف ، والصريف عاوز عصافير ، والعصافير فى الجنة ، والجنة عاوزة حنّا » الخ ...

أغنية لطيفة حقاً ، لا يزال أطفالنا إلى الآن يتغنون بها بتوقيعهم الظريف ، وصوتهم الشجى ، وهم إذ ينشدونها لم يدروا أنهم يتغنون بفلسفة عالية ، وفكرة سامية .

قد يلاحظ عليها أن الربط فى بعضها محكم كحاجة السلم إلى النجار والنجار إلى المسمار ، وبعضها غير محكم كحاجة الحداد إلى البيضة وحاجة الصريف إلى العصافير ، ولكن أظن أن تحكيم المنطق الدقيق الحاد فى الأدب كالشعر والأغانى وسائر الفنون مجاوزة للحد ، فالأغنية ظريفة لطيفة رغم المنطق .

ومن أسباب جمالها هذا النوع البديع الذى يصح أن أسميه « جمال الدوران » أو جمال التسلسل ، مثل قولهم « لا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل » .

وقولهم : « الحجر يكسر الزجاج والحديد يكسر الحجر ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفى النار ، والريح تلعب بالماء ، والإنسان يتقى الريح ، والخوف يغلب الإنسان ، والخمر تزيل الخوف ، والنوم يغلب الخمر ، والموت يغلب النوم » .

ومثل قولهم : « العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً » الخ .

* * *

و بعد فما تاريخ هذه الأغنية ومن واضعها ؟ لا بد أن يكون فيلسوفاً أو حكيما بعيد النظر . وما يؤسف له أن هذه الأغانى والأزجال والمواويل لم يعن بها عناية الأدب الأرستقراطى ، فبينما يعنى العلماء والأدباء بنسبة بيت الشعر إلى قائله ، والقصيدة إلى منشئها ، ويحتدم بينهم القتال على ذلك ، إذا بنا لا نجد هذه العناية ولا بعضها فى الأغانى والأزجال الشعبية ، وهذا نوع مما أصاب الأدب الشعبى من الظلم . وكم أصابه من أنواع ! وها هى الأغانى التى تخترع فى عصرنا نجدها على الأفواه ونستعذبها ، وتهش لها نفوسنا ، ولا نكلف أنفسنا مئونة البحث عن منشئها .

ولكن من حسن حظ هذه الأغنية ، أو من حسن حظنا نحن ، أننا نجد ظلا لتاريخها ، فقد ذكرها الجبرتى فى تاريخه فى حوادث سنة ١١٤٣ هجرية ، فيكون عمرها أكثر من قرنين وظلت الأجيال تتعاقبها إلى يومنا .

ويظهر من كلام الجبرتى أن واضعها عالم كبير جليل من أكابر علماء الأزهر فى القرن الثانى عشر ، هو الشيخ الحفناوى أو الحفنى ، كان سيد الأزهر فى أيامه ، له حلقات الدروس الحافلة بنوابغ الطلبة ، يقرأ فيها أعوص الكتب وأصعبها ، كجمع الجوامع والأشمونى وحاشية السعد ، وله التآليف الكثيرة فى البلاغة والميراث

والجبر والمقابلة ، كما كان بيته ساحة كرم يغشاه أعيان مصر وعلماؤها وأدباؤها ، ويلجأ إليه الفقراء وذوو الحاجات ، وكان راتب بيته من الخبز كل يوم نحو الأردب ، وطاحون بيته دائرة ليل نهار ، ويجتمع على مائدته الأربعون والخمسون والستون ، إلى هيبة ووقار ، حتى يهاب العلماء سؤاله لجلاله .

وهو مع هذا كله ظريف أديب ، سمع تلميذاً له يوما يقول :

قالو تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار والعيش الأبيض تحبه ؟ قلت والكشكار

فضحك الشيخ وقال : أنا لا أحبه بالزيت الحار ، وإنما أحبه بالسمن ، ثم قال :

قالوا تحب المدمس قلت بالمسلى والبيض مشوى تحبه ؟ قلت والمقلى

وله المواويل الظريفة كقوله :

بحياة يا ليل قوامك وصوم الحر تحجز لنا الفجر دا فوت الرفاقه حر
لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجر أزداد لوعة ولا عمرى بقيت أنسر

إلى غير ذلك . فيحدث تلميذه أن الشيخ الحفنى قال له يوما « أحدتك حدوته بالزيت ملتوته ، حلفت ما آكلها ، حتى يجى التاجر ، والتاجر فوق السطوح ، والسطوح عاوز سلم الخ » فحكاية التلميذ ، ولم يكن سمعها من قبل وروايته لها عن شيخه ، ترجح الظن أنها من عمل الشيخ الحفنى .

وقد زاد الشيخ على ذلك فشرح الأغنية على طريقة الصوفية ، ففسر التاجر بالمرشد الكامل والمربى الواصل ، والتاجر فوق السطوح فى مستو عال ، والسطوح لا يمكن صعوده إلا بمعراج ، الخ . . . وقد كان للشيخ جانب آخر صوفى عظيم .

فالأشمونى وجمع الجوامع ، والحواشى والتقارير ، كلها لم تمنع الشيخ العالم الأزهرى الجليل من أن يكون أديبا وزجالا ظريفاً يضع الأغانى والمواويل يتغنى بها الشعب . وهذا يذكرنى بما سمعت عن فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن قراعه

المفتى الأسبق — مد الله فى عمره — من أنه واضع الدور المشهور : « الله يصون دولة حسنك » .

فمن لنا بعلمائنا الأزهريين اليوم يشرفون على الأدب كما يشرفون على الدين ويتعرفون حياة الناس الاجتماعية ، ومناحيهم الأدبية ، ويضعون الأناشيد الظريفة ، والأغانى اللطيفة ، ويكونون عنوان الدين وعنوان الظرف ، يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ؟

تراثنا القديم

خبران أثرا فى النفس أبلغ التأثير ، وأثارا فى القلب كوامن الأسى والأسف أولهما أن أديبا كبيراً ، وخطيبا خطيراً طلب من إحدى المكاتب القاموس المحيط للفيروزابادى ، فأرسلته إليه ، فاستبقاه أياما ثم رده شاكرا لأنه لم يستطع أن يعرف طريقة الكشف فيه ، و إذا استطاع فلا يفهم ما يقول ، ولا يتبين ما يشرح . لذلك يعتذر عن شرائه ويطلب بدلا منه معجما من المعاجم الحديثة ، كأقرب الموارد ومحيط المحيط والبستان لسهولة الكشف فيها ، ووضوح القصد من معانيها .

والثانى أن مجلساً من مجالس المديريات قرر إنشاء مكتبة يتردد إليها طلبة المديرية ومثقفوها وعهد إلى بعض رجاله اختيار الكتب الصالحة ، فلم يختر فيما اختار كتابا قديما كالقاموس المحيط ولسان العرب وتاريخ ابن الأثير والأغانى والعقد الفريد ونفح الطيب ، و إنما قصر اختياره على ما أنتجه الأدباء المحدثون من روايات وقصص وتاريخ حديث وأدب من الوزن الخفيف .

راعنى ما فى هذين الخبرين من دلائل مؤلمة ، وما يحملان من نتائج خطيرة ! دلالة الخبرين أن تيار الفكر إنما يسير نحو الثقافة العصرية ، وأن المثقفين إنما يعتمدون على ما تخرجه المطابع من آثار للثقافات الأجنبية ، فأما تراثنا القديم وما فيه من ثراء ضخم فتنبو عنه أذواق الناشئة ومن يقودهم و يختار لهم ، ولا يقبل عليه إلا المستشرقون وأمثالهم من علماء قليلين يسيرون نحو الفناء دون أن يخلف من بعدهم خلف يقوم على هذا التراث فيحفظه و يستثمره .

ولهذه الظاهرة أسباب أهمها :

أن هـذه الـكتب جارت عصرها ولم تجار عصرنا ، فالتعبير معقد ، والمعنى غامض ، والتأليف مشتت ، والمصطلحات جامدة ، والأمثلة واحدة فقطع هذا كل الصلة بين القديم والحديث ، ولم يستطع أن يتفهم هذه الـكتب القديمة إلا من نشأ عليها ، وأنفق أكثر العمر فى فهم عباراتها ، وحل معمياتها . وكثير منهم وقف عند ألفاظها ومصطلحاتها ، ولم يسعفه الزمان بالتغلغل فى أعماقها ، واكتناه أسرارها واستخراج كنوزها ، فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره فى رياض الأطفال ، وأسلمته هذه إلى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا ، ويقرأ تلاميذها فى كتب ألفت على غرار الـكتب الأوروبية فى الشكل والموضوع ، أصبح الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم آبائهم ، وصارت الـكتب الأوروبية أشهى إلى نفوسهم وأقرب إلى عقولهم من كتب الأدب العربى والفلسفة الإسلامية ، وكتب القانون الفرنسى أحب إليهم من كتب الفقه الإسلامى وهكذا . وهم إذا نظروا فى هذه الـكتب العربية هزئوا بها وضحكوا منها ! فإذا وقع نظرهم فى الفقه على تحديد ماء الطهارة بأنه عشر فى عشر بذراع الـكرباس ، قالوا مالنا ولذراع الـكرباس ؟ إنما نعرف الذراع البلدى والذراع المعمارى ، وإذا رأوا نظام أخذ العشر قالوا ماذا يقابل ذلك من نظام الضرائب والجمارك ؟ وإذا نظر الأطباء فى كتاب القانون لابن سينا وقفوا أمام أحاجى لا طاقة لهم بها . وإذا نظر الأدباء فى الأغانى والعقد وأمثالها رأوا شرا كثيراً وخيراً قليلا ! وكان ما فهموا أندر مما لم يفهموا .

الحق أن هذه مشكلة كبيرة تحتاج فى علاجها إلى مهرة الحـكماء ، وأن ما فى كتب أسلافنا من ثروة يحتاج إلى عقول كبيرة تضـع منهجا قويماً للاستفادة منها .

ونحن بين اثنين : إما أن تتخصص منا طائفة صالحة لترجمة ثروتنا القديمة

إلى لغة العصر وروح العصر وأسلوب العصر ، فيستطيع ناشئتنا أن يضعوا أيديهم على تراث آبائهم ، و إما أن يتثقف أكبر عدد ممكن بنوع من الثقافة الشرقية القديمة ، فضلا عما عندهم من الثقافة الحديثة ، فيجمعوا إلى مواردهم الأجنبية الموارد العربية ، و يخرج نتاجهم متشبعاً بالروحين مستمدا من الثقافتين .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك خشيت بعد قليل أن تصبح كتبنا القديمة غير صالحة إلا للأرضة تعيث فيها ، والعنكبوت ينسج عليها و يكون شأننا معها كما قال أبو العلاء .

سيسأل قوم ما الحجيج ومكة   كما قال قوم ما جديس وما طسم

الأدب والعلم

مرت كلمة الأدب والعلم فى اللغة العربية فى أدوار عدة . استعملوا كلمة الأدب أحيانا فيما يرقى الخلق ويهذب النفس واستعملوها أحيانا بمعنى أوسع حتى عدوا أفحش شعر لجرير والفرزدق والأخطل أدبا . وعدوا خمريات أبى نواس وغلمانياته أدبا كما يعد الفنان بعض الصور فنا وإن كانت صورة لوضع مستهجن أو فعل فاضح .

وكذلك الشأن فى كلمة العلم ، كانوا أحيانا لا يستعملونها إلا فى العلم الدينى ، ثم توسعوا فى معناها حتى شمل كل ما ينتجه العقل والفن .

وفى العصور الحديثة فرقوا بين الأدب والعلم ورسموا لكل دائرة ، ومن ثم كانت الصحيفة أو المجلة أحيانا أدبية ، وأحيانا علمية ، وأحيانا أدبية علمية ، وأصبح من المضحك أن نقول علم الأدب لأن العلم غير الأدب ، وأصبح لدينا من يسمى « أديبا » فلا يكون عالما ، وعالما فلا يكون أديبا ، وقد يكون أديبا عالما ، ولكن كلمة « عالم » الأزهرية إنما اشتقت من العلم بالمعنى الواسع الذى يشمل الأدب والعلم معاً .

وبعد فما الفرق بين العلم والأدب ، وما الذى يجعل الأدب أدبا والعلم علماً ؟

الحق أن كلمة الأدب والعلم من الألفاظ الغامضة التى نفهمها نوعا من الفهم فإذا أردنا تحديدها حرنا فى أمرها ، كالجمال والعدل والخيال والحرية والعبودية ، وإذا سألنا — حتى الخاصة — فى معناها أجاب كل حسب ميوله وأغراضه وحسب طبيعة فهمه للكلمة .

هناك أشياء لا نشك فى أنها علم أو أدب . فلو سئلت عن نظريات الهندسة وقانون اللوغاريتمات وقوانين الحساب والطبيعة والكيمياء فذلك علم بالبداهة ،

وإذا سئلت عن قصائد بشار وأبي نواس والمتنبي ومقامات الحريري فذلك أدب ، ولكن ما حدود الأدب وما حدود العلم ؟

قد عودتنا الطبيعة أن الأضداد تفهم ما تباعدت ، فإذا ما تقاربت حدودها صعب فهمها ، ما أسهل ما تقول أن هذا ظل وهذا شمس ، ولكن عند تقارب الظل من الشمس تجد خطوطا يصعب أن تقول أهي ظل أم شمس ، وما أسهل ما تقول إن هذا الماء حار أو بارد إذا اشتدت حرارته وبرودته ولكن ما أصعب ذلك إذا أخذ الحار يبرد والبارد يسخن فإنك تصل لا محالة إلى درجة يعسر عليك الحكم فيها بالحرارة أو البرودة .

أكبر ظاهرة في التفريق بين الأدب والعلم أن الأدب يخاطب العاطفة ، والعلم يخاطب العقل ، فإذا قلت إن زوايا المثلث تساوي قائمتين فإنك تخاطب العقل ولا تمس العاطفة وإذا قال المتنبي :

خلقت ألوفا لو رحلت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

فهو يمس العاطفة أولا ، ومن أجل هذا كانت الجملة الأولى علماً وبيت المتنبي أدباً .

العالم يلاحظ الأشياء يستكشف ظواهرها وقوانينها وعلاقتها بأمثالها وما يحيط بها ، على حين أن الأديب لا ينظر إليها إلا من حيث أثرها في عواطفه وعواطف الناس ، ينظر النباتي إلى شجرة الورد فيدرس كل جزء منها والتغيرات التي تطرأ عليها من وقت بذرها إلى وقت فنائها ، ومن أية فصيلة هي ، وما علاقتها بالفصائل التي تقرب منها ، أما الأديب فينظر إلى أجزاء الشجرة منسقة متناسبة ويرى أنها لم تخلق إلا لزهرتها الجميلة ، وأن بين الزهرة وقلبه نسباً . يعجب بحمرة لونها على خضرة أوراقها ويذهب خياله في ذلك كل مذهب أما النباتي فيبحث لم كانت الزهرة حمراء وأوراقها خضراء .

عالم الحياة لا يرى فى الفتاة المحبوبة إلا إنسانا خاضعا لكل أبحاث البيولوجيا أما الأديب فيرى فى محبوبته شيئا وراء كل ما يبحث عنه العالم ، هى الحياة وهى الدنيا ، وهى النعيم إذا وصلت والبؤس إذا صدت . أو يقول مع القائل .

ويلاه إن نظرت وإن هى أعرضت وقع السهام ونزعهن

فالكلام إذا لم يثر عاطفة لم يكن أدبا فإذا هو خاطب العقل وحده كان علما ، وإذا أمعن فى إثارة العاطفة كان أمعن فى الأدب .

وليس الأدب وحده هو لغة العاطفة فقد تفوقه فى هذا الموسيقى ، فهى قادرة على أن تضحك وتبكى ، وتسر وتحزن ، وتسر سروراً حزيناً وتحزن حزناً ساراً وتؤلم ألماً لذيذاً ، وتلذ لذة أليمة ، وتثير الشجاعة حتى لتدفع إلى الموت ، وتنفث الخمول حتى لتدعو إلى النوم ، تقدر الموسيقى أن تفعل كل ذلك فى العاطفة ، وهى أقدر من الأدب لأن الأدب يخاطب العاطفة بواسطة الكلام ومن طريقه أما الموسيقى فتخاطب العاطفة وجهاً لوجه من غير وسيط ، تؤثر فيك أدوار العود والقانون والبيانو ولو لم تصحب بكلام ولو لم تفهم أى معنى منها ، بل قد تكره أن تفهم إلا النغم وحلاوته والتوقيع وعذوبته .

أما الأدب فلما اعتمد على الكلام ، والكلام إنما يفهم بالعقل ، كان لا بد للقطعة الأدبية من قدر من العقل ومن المعانى تستثار بها العاطفة وتهيج منها المشاعر .

وارتباط العاطفة بالأدب هو الذى منح الأدب — لا العلم — الخلود فالنتاج الأدبى خالد أبدى لا النتاج العلمى . فقصائد امرئ القيس والنابغة وجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى كلها خالدة تقرؤها فتلتذ منها كما يلتذ منها من كان فى عصرهم ، فإن احتاج إلى شىء فتفسير ما غمض من الألفاظ والمعانى ، وهو بعد يشعر بشعورهم ويسر كسرورهم . ثم القطعة الأدبية لا تمل ، تقرؤها ثم تقرؤها فتسر منها فى الثانية سرورك منها فى الأولى ، بل تحفظها ثم تتعشق تلاوتها

وتكرارها ، وليس ذلك هو الشأن فى العلم فحقائق العلوم خالدة ولكن منتجات العلوم غير خالدة ، فما فى كتاب إقليدس من نظريات هندسية خالدة ، ولكن الكتاب لا يقرؤه الآن إلا من أراد أن يرجع إلى تاريخ الهندسة ، وكل كتاب فى الهندسة يموت بمرور سنين عليه ولا تعود له قيمة إلا القيمة التاريخية مهما حوى من نظريات جديدة وترتيب جديد ، وكذلك كتب الحساب والجبر والطبيعة والكيمياء والفلك ليست خالدة وإن كانت الحقائق التى فيها خالدة ، بل الطبعة الثانية من هذه الكتب تقضى على الطبعة الأولى بالفناء إذا دخلها تغيير ، وليس طالب علم الآن يرجع إلى ما ألف من خمسين عاما إلا إذا أراد أن يؤرخ العلم ولكن طالب الأدب يرجع إلى ديوان المتنبى الآن ليتذوق أدبه ويلذ مشاعره كما كان ذلك منذ ألف عام ، وقد حفظت بعض قصائده ولا أزال أستمتع بترديدها ولكن إن أنت قرأت كتاباً فى الرياضة وفهمت ما فيه لا تستطيع بحال أن تعيد قراءته إلا على مضض .

والسبب فى هذا — على ما يظهر — أن عواطف الناس لم تتقدم كما تقدمت عقولهم ، قد ترقى العواطف شكلا فترى أن الإحسان إلى الفقير بإعطائه درهماً ليس خيراً ولكن خيراً منه بناء مستشفى وإنشاء ملجأ ونحو ذلك ، ولكن العاطفة هى هى فى أساسها . وقد ترقى عاطفة الحنو الأبوى فلا ترى مانعاً من دفع الأولاد إلى حرب الحياة وجوب الأقطار ولكن العاطفة فى أساسها واحدة ، أما العقل فوثاب دائماً راق أبداً ، فى الشكل وفى الأساس ، يرى حلالا اليوم ما كان حراماً بالأمس ، ويرى حقاً الآن ما كان باطلا من قبل ، ويخترع كل يوم جديداً ويصوغ حياته وفق الجديد ، ومن أجل ذلك لا يلذ له أن يقرأ عقل السابقين إلا كما يقرأ تاريخهم ، ولكن عواطفه هى هى ركزت وثبتت فتلذ اليوم بما يمثل عواطف الأقدمين وإن كرت عليها الدهور وتوالت العصور .

وليس الأمر بهذا القدر من السهولة فى الفصل بين الأدب والعلم ، فهناك

أنواع يصعب الفصل فيها حتى على الخاصة ، أأدب هى أم علم ، هناك أدب « معلم » وهناك علم « مؤدب » هناك تاريخ صيغ صياغة أدبية فلا يكتفى بسرد الحقائق وتعيين زمن وقوعها ، وإنما يضع ذلك فى قالب يثير شعورك للاحتذاء والقدوة أو للحب أو الكراهة . وهناك فلسفة صيغت فى قالب قصة ، وهناك طبيعة وكيمياء صاغتها يد صناع ماهرة فى الفن تحمل قلم أديب فأخرجت منها موضوعات شيقة تثير عاطفة الجمال وتستخرج الإعجاب بما فى هذا العالم من إبداع وفن .

هــذه الموضوعات وأمثالها ليست أدبا خالصا ولا علما خالصا وإنما هى علم أدبى أو أدب علمى ، هى أدب بمقدار ما تثير من عاطفة ، وهى علم بمقدار ما فيها من حقائق .

العلم لغة العقل ، والأدب لغة العاطفة ، ولـكن لا بد فى هذه الحياة أن يلطف العلم بالأدب ، والأدب بالعلم ، فالعقل إذا جمح استخف بالشعور وجعل الحياة ثمنا للعلم ، وهو إذا مزج بشىء من الأدب مس الحياة ورفه على الناس ، والعاطفة إذا شردت كانت ثورانا وهياجا . ألا ترى التعجب يزيد فيكون نباحا ، والعشق يهيم فيكون جنونا .

جواب عن سؤال (١)

لك الحق — كل الحق — يا أخى أن تصرخ ونصرخ معك فى وجه زعماء الأدب العربى طالبين أن يلتفتوا إلى الأدب القومى ، ويكثروا القول فيه ، ~~فالعالم العربى كله يجيش صدره بآلام ، ويكثروا القول فيه~~ ، فالعالم العربى كله يجيش صدره بآلام وآمال ، والأدب يجب أن يعبر عن هذه الآلام والآمال ، بأسلوبه الرشيق ، وعواطفه القوية ، وخياله الرائع ، وإذ ذاك يجد الناس غذاءهم فيما يقرءون ، ولذتهم ومتعتهم فيما يسمعون وينشدون ، والناس فى كل عصر يتطلبون من الأديب أن يكون موسيقاهم التى تناسب عاطفتهم ، فإن كانوا فرحين مرحين كانت الموسيقى فرحة مرحة ، وإن كانوا باكين محزونين كانت الموسيقى حزينة باكية ، ومن السماجة أن توقع الموسيقى نغمة فرحة فى مأتم ، أو نغمة باكية فى عرس ، وقد كان الناس يقصدون إلى الشعراء يشرحون إليهم عواطفهم ويطلبون منهم شعراً يناسبها ويرويها .

كان بيت بشار فى البصرة مقصداً لهذا النوع من الناس يذهب إليه الغزل الذى تجيش فى صدره عاطفة الحب ولا يستطيع أن يعبر عنها ليجد بشار من فنه ما يعبر عما فى نفسه ، وتذهب إليه النائحات لينشدهن شعراً يستنزف الدمع ويبعث الشجا والشجن .

ولكل عصر له مطالبه ، ولكل أمة لها مواقفها وعواطفها ، ولا خير فى الأدب

---

(١) نشرت هـذه المقالة بمجلة الرسالة مصدرة بالعبارة الآتية : (وجه الأستاذ على الطنطاوى فى العدد الماضى إلينا وإلى أدباء الرسالة سؤالا ملخصه : أنعمل وغايتنا الأدب للأدب ، أم نعمل وغايتنا الأدب للحياة ؟ ثم سأل لماذا ينصرف أدباؤنا عن الأدب القومى الذى يعالج « القضية الكبرى » إلى ذلك الأدب الغزلى الضعيف ؟ وقد أجبنا إجمالا فى ذلك العدد عن بعض هذا السؤال ، وتفضل صديقنا الأستاذ أحمد أمين فأجاب تفصيلا عن البعض الآخر) .

إذا لم يصف الحياة ، و يغذ العواطف ، ويجد الناس فى كل موقف يقفونه قولا أدبياً قوياً يشرحه ، وشعراً جميلا يعبر عنه .

والعالم العربى الآن له عواطف قومية جديدة لم تكن لديه قبل سنين ، هى نتاج التيار الحديث الذى غمر أوربا وسار منها إلى الشرق ، فملأ مشاعرها ألماً مما هى فيه ، كما ملأها أملا فى حياة خير من الحياة التافهة التى يحيونها ، ثم التفتوا إلى الأدب القديم فلم يجدوا فيه غذاءهم كافياً ، ليس فيه شعر يتغنى بالحرية كما نود ، ولا بالقومية كما نحب ، وإنما هى أبيات مبعثرة مجملة ، قيلت لوصف مشاعر غير مشاعرنا وفى مواقف غير مواقفنا — وتلفتنا إلى الأدب العربى الحديث فوجدناه ناقصاً كأخيه ، لم يسد الفراغ ، ولم يكمل النقص ، قد أفرط القدماء فى الغزل فأفرط المحدثون فيه ، وقصر القدماء فى وصف المناحى الاجتماعية والنزعات القومية فقصر المحدثون فيه ، وأصبح ناشئنا لا يجد الغذاء الكافى فى القديم ولا فى الجديد ، فلك الحق أن تطلب من الزعماء وأن تطلب من الرسالة أن تدعو الكتاب والشعراء أن يلتفتوا إلى وجوه النقص فيكملوها ، حتى إذا احتاج الشباب إلى نشيد أو أناشيد وجدها ، وإذا وقف موقفاً يتطلب قصيدة فى معنى من معانى القومية أو الحرية انطلق بها لسانه ، وإذا طرب لمنظر طبيعى فى بلاده وجد القصائد قد قيلت فيه واستوفت محاسنه وهكذا ، ولك أن تطلب من كتاب الروايات أن يبحثوا عن نواحى الضعف فى الحياة الاجتماعية الشرقية ، فيجلوها ويعالجوها ، وأن يكون لهم نظر صادق فى تعرف نفسيات الأفراد والجماعات فيحللوها ، وأن يتجه الكتاب الاجتماعيون فيدرسوا أمراض قومهم ، ويستخدموا الأدب فى الخطب والمقالات تثير مشاعر الناس وتهيجهم ليتخلوا عن رذيلة ، ويستكملوا فضيلة ، ويعالجوا نقصاً وينشدوا كمالا .

لك الحق أن تنعى على الأدباء أن أكثرهم فى الشرق لم يتجه هذا الاتجاه إلا قليلا ، وأنهم بين أن ينظموا فى الأغراض القديمة ولا يحسنوها إحسان القدماء

هو بين أن ينقلوا من الأدب الغربي ما فقد روحه ، أو لم يتناسب وروحنا ، وإلا فأين أدبنا القومي ؟ وأين التغني بمناظر طبيعتنا ؟ وأين الروايات الاجتماعية تصفنا ؟ لا شيء من ذلك إلا القليل الذي لا يتناسب ونهضتنا الحديثة .

أنا معك في هذا كله — ولكن لست معك في إنكارك : أن يكون الفن للفن ، والأدب للأدب ، ولست معك في أن تطلب أن يكون الأدب للحياة — فليس من شك في أن القطعة متى استوفت عناصرها الأدبية كانت أدباً ، مهما كان موضوعها الأخلاق ، وليس أحد ينكر أن قصائد أبي نواس الفاجرة الداعرة أدب ، كما لا ينكر أحد أن الصورة العارية إذا أجيد تصويرها فن جميل ، وإن لم ترض عنها الأخلاق ، فالأدب للأدب والفن للفن ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون سلطة المصلحين فوق سلطة الأدباء ، فإذا رأى المصلحون أن ضرباً من الأدب يحل الأخلاق ويفك عرى المجتمع ، حاربوه بكل ما استطاعوا من قوة ، وإذا رأوا أن ضربا من الأدب في الأمة ضعيف ويجب أن يقوى ، طلبوا الإكثار منه بشتى الوسائل وشجعوا عليه ومهدوا له السبل ، وهذا هو موقفنا بالضبط ، فقد كثر فينا ما نسميه بالأدب المائع ، وهو من غير شك أدب ، وقد يكون أدباً راقياً ، ولكن يصح أن نخضعه لنظر المصلح ، فإذا كان المصلح الاجتماعي قوياً ضرب على هذا النمط من الأدب ، ولو إلى زمن محدود ، حتى تستكمل الأمة قوتها ورجولتها ، ومثل الأدب في ذلك مثل العلم ، فالأدب للأدب كالعلم للعلم ، فالعلم يبحث كما يشاء ، فإذا أردت أن تستخدم العلم في أشياء عملية كصنع أسلحة وغازات وما إلى ذلك ، خضعت للمصلحة والإنسانية وسن لها قوانين ، وهذا لم يطعن في أن يكون العلم للعلم — فإن أردت بقولك أن الأدب لا يكون أدباً إلا إذا خدم الحياة فأنا مخالفك ، وإن أردت أن المصلحين والدعاة يجب أن يخضعوا الأدب لأغراض الحياة الصحيحة فإني موافقك .

و بعد — فقد غلوت يا أخى فى رأيك ، فلم ترد أن يكون فى الأدب حب إلا من نوع خاص ، وأردت من الأدب أن يكون قوياً وقوياً فقط ، و بعبارة أخرى تريد أن تكون حياة الأدباء حياة حربية ليس فيها إلا القوة وما يبعث على القوة ، ليس فيها زهرة جميلة ولا غزل ظريف ، وأنا أخشى أن الأدب باقتصاره على القوة يفقد القوة ، فإن للنفوس سآمة ، ويحسن أن يكون بجانب صوت المدفع والقنابل صوت العود والقانون .

ولقد كنت أكتب فى هذا الموضوع حتى إذا وصلت إلى هذا الموضع شعرت بملل ، فما هو إلا أن سمعت نغمة رقيقة من بيانو فأصغيت إليها حتى استكملتها فعادت نفسى إلى نشاطها — ألا يكون فى هذا مثل صالح للحياة الأدبية ؟ جد وهزل ، وتغن بالحرية ، ونعى على الاستبداد ، وتغزل فى زهرة وفكاهة حلوة . هذا — يا أخى — أصلح حتى من الناحيه الجدية ، فمن لم يله أبداً قصرت حياة جده وتقبضت نفسه ، ولم يتحمل طويلا مرارة العمل ، وإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . أحب أن تكون الحياة الأدبية كفرقة الموسيقى ؛ لا طبلا فقط ، ولا نايا فقط بل هما وغيرهما ، وعيب حياتنا الأدبية الحاضرة أنها رخوة فقط ، فيجب أن يضاف إليها نغمات القوة ، لا أن تحل النغمات القوية وحدها محل النغمات الرقيقة ، فإنا إن فعلنا ذلك كان الأدب أبعث على الحياة ، وأحفظ للقوة ، فطمئن نفسك ، ولا تأس على شاعر طال ليله ، وأرق جفنه حبيب أعرض عنه وابتسامة احتجب عنه نورها ، فمن يدرينا لعل الحب كله من واد واحد ، فمن أحب فتاته كان أسرع استعداداً لأن يحب أمته ، ويحب ربه ، ومن تحجر قلبه لم يبك على شىء .

و بعد فموقف « الرسالة » كما أفهم من مبادئها يجب أن يكون الدعوة إلى تكميل النقص فى الأدب العربى وحث قادته على أن يطرقوا من الأبواب ما نحن فى أمس الحاجة إليه حتى يكون أدبنا صورة تامة لنا ، وحتى يكون غذاء

كافياً لمختلف عواطفنا ، يجب أن يكون موقفها — فوق الموقف الأدبى ، موقف المصلح ، فترفض أن تنشر الأدب الساقط المرذول ، المضعف للخلق والمفسد للرجولة ولكن يجب كذلك أن تفسح صدرها لنوع من الأدب لا هو بالقوى الذى تتطلب الاقتصار عليه ، ولا هو بالضعيف المائع ، هو أدب الحب العف ، والفكاهة الحلوة البريئة ، والهزل يشف عن جد ، والمزح مبطناً بعظة ، ونحو ذلك ، ففى التزام الجد خروج إلى الجفاء ، وانحدار إلى الجمود .

هذا إلى أن الرسالة يجب أن تكون بجانب دعوتها إلى الإصلاح سجلا للنزعات الأدبية على اختلاف أنواعها ما لم تكن النزعة مستهترة ، تميط قناع الحياء ، وتخرق حجاب الحشمة .

وأخيراً لك الشكر — يا أخى — على ما حوى كتابك من غيرة صادقة ، وعاطفة نبيلة وما أثرت من موضوع يستحق العناية ويدعو إلى طول التفكير .

الأدب العربى

منذ أول عصوره حتى اليوم

لو نظرنا نظرة عامة إلى الآداب المختلفة فى العالم قديمها وحديثها وجدناها كلها تخضع لبعض قوانين عامة يشترك فيها كل أدب ، وقوانين خاصة ينفرد بها أدب كل أمة . فمثلا من القوانين العامة أن الآداب تكاد تشترك فى أنها نظم ونثر وقصص ، وأن النظم يتميز بالموسيقى التى يعبر عنها بالأوزان وإن اختلفت هذه الأوزان ، وأن النثر فى كل أدب يأتى عقب الشعر لأن الشعر تعبير عن العاطفة والخيال والنثر مصبوغ بصبغة عقلية إلى حد ما ، والعاطفة والخيال أقدم فى تاريخ الإنسانية من العقل . كما أن قوانين رقى الشعر والنثر والقصص فى الأمم تكاد تكون واحدة . كذلك تكاد تشترك الآداب كلها فى تاريخها وتطورها ومرورها فى مراحل ثلاث : فالمرحلة الأولى مرحلة القبائل ويكون الأدب فيها مصبوغاً بالصبغة القبلية فيخضع للنظام القبلى ويكاد الشاعر فيها يشعر بقبليته أكثر مما يشعر بفرديته ويتغنى بالقبيلة وأعمالها أكثر مما يتغنى بشخصيته وفرديته وعمله . حتى إذا تطورت القبائل إلى أمة وتطور شيخ القبيلة إلى حاكم رأينا الأدب يصل إلى المرحلة الثانية فتكون الآداب فى خدمة القصور والحكام ، والأغنياء والولاة وأمثالهم ، ويكون الأدب إذ ذاك أشبه ما يكون بالتحفة الفنية البديعة تهدى أو تباع للسادة المترفين ، ويكثر إذ ذاك شعر المديح والقصص حول القصور ، وتكثر فى الأدب المحسنات اللفظية كأنها نقوش فى التحفة الفنية ولا ينظر فى هذا الطور إلى الشعوب كثيراً .

ثم تأتى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الديمقراطية فيعنى فيها بوصف الشعوب

و يتجه الأدباء نحوها ، وتؤلف الروايات حول الحياة فى الـكوخ الحقير كما تؤلف حول الحياة فى القصر الـكبير ، و يتجه الأدب نحو الظلم والعدل و يبين حقوق الراعى وحقوق الرعية ، وتكثر فى الأدب على العموم المظاهر التى تعبر عن آمال الشعوب وآلامها .

فإذا نحن نظرنا إلى الأدب العربى فى ضوء ذلك وجدناه أدبا طويل العمر له من العمر أكثر مما للآداب الأخرى كالأدب الإنجليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى ، فكلها حديثة العهد إذا قيست بالأدب العربى ، وعمر الأدب العربى فى العصور التاريخية نحو خمسة عشر قرنا خضع فيها لمؤثرات مختلفة وأحداث متباينة كان فيها أدب قبائل فى العصر الجاهلى يخضع لـكل الظواهر القبلية ، ويستجيب لها فيعبر فيه الشعراء عن عواطفهم و يسجلون ما يحدث لهم ولقبيلتهم ، و يصفون مشاعرهم نحو نسائهم بالحب والذكرى ومشاعرهم نحو خصومهم وأعدائهم — وهم خصوم قبيلتهم — بالهجاء ، ويحرضون على القتال والأخذ بالثأر و يصفون فيه الطبيعة حولهم من الصحراء ونباتها وحيوانها ، و إذا سار الشاعر فى طريق وصفه وعرض لما رأى فيه من جبل ووهد وسهل وحزن وهكذا ، كان الشاعر بدويا فى موضوعه وصيغته و بساطة وصفه و بساطة فنه ، ومن كان من الشعراء الجاهليين فى مدينة أو على حواشى مدينة تأثر بذلك كما نرى فى شعراء الحيرة والعراق والغساسنة فقد تأثروا بالمدنية الفارسية والرومانية فى ألفاظهم وتشبيهاتهم .

وشعراء الجاهلية على وجه العموم متأثرون ببيئتهم الطبيعية والاجتماعية يشتقون منها تشبيهاتهم ، فيشبهون الليل بالجمل يتمطى بصلبه والبرق بمصباح راهب أمال السليط ونحو ذلك . وأوزانهم وموسيقاهم متأثرة بوقع أقدام الإبل فى الصحراء وما يناسب ذلك من حداء إلى غير هـذه من مظاهر التأثر والتجاوب فـكانت هذه هى المرحلة الأولى للأدب العربى .

ولما جاء الإسلام غير الحياة الاجتماعية فدعا إلى الفخر بالعمل الصالح دون الفخر بالأنساب ، ودعا إلى أن الظالم يقتص منه شريفا كان أو وضيعا وقال « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهدم نظام القبائل بالتدريج إلى حد كبير ، وغزا المدنية الفارسية والرومانية وأخضعهما واطلع عليهما واستفاد منهما وأصبحت الجزيرة العربية وما تبعها من فتوح دولة واحدة حكمها خليفة واحد ، وانقلبت الخلافة بعد ذلك إلى ملك عضوض ، فجاء الدور الثانى وهو الدور الأستقراطى فى الأدب الذى يتجه نحو الخلفاء والولاة والحكام والأغنياء وإن تغنى فيه الفرد لنفسه أحيانا بغزل أو شكوى أو تعبير عن عاطفة . وتأثر الأدب الإسلامى وخاصة النثر الفنى والقصص بما نقل إليهما عن الهند والفرس واليونان ، وتطور بتطور الحضارة فى موضوعاته فى حديث يطول شرحه .

وفى العصور الأخيرة انتقل الأدب العربى إلى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الديمقراطية ، فاتجه إلى الشعوب فى شعره ونثره وقصصه وفى موضوعاته وأساليبه .

فإذا نحن نظرنا إلى الأدب العربى بجانب الآداب الأخرى وجدنا أنه كسكل الآداب فيه جوانب ضعف وجوانب قوة ، فمثلا نجد أن الأدبين اليونانى والرومانى وما تفرع عنهما من الآداب الحديثة كالإنجليزية والفرنسية أكثر تنوعاً وأكثر تفنناً فى نقد الحياة والنظر إليها فى أشكالها المختلفة الخاصة منها والعامة : أدب للملاحم وسع خيالهم — وأدب للتمثيل وسع نقدهم فى السياسة العامة للحكومة والقادة والزعماء وللحياة العامة وحياة الأفراد الشعبية — وغنًى فى القصص لم يبلغه الأدب العربى — ولكن الأدب العربى غنى من نواح أخرى ، فقد جرت عادة الأوربيين أن يقسموا الشعر إلى شعر غنائى ويقصدون به ما يعبر به الشاعر عن عواطفه — وشعر ملاحم ويقصدون به ما يصف به الشاعر

أو الشعراء وقائع الحروب فى قصائد طويلة ، وشعر تمثيلى وهو ما يكون فى الروايات التمثيلية — فالشعر العربى غنى بالنوع الأول غنًى كبيراً ، والكنوز التى تركها فى وصف المشاعر من فخر وحماسة وغزل وهجاء ورثاء ومديح كنوز وافرة ، وخاصة فى الحب ، فقد برع الأدب العربى فيه ونوعه من حب عذرى إلى حب شهوانى ومن حب مادى إلى حب فلسفى — ومن وصف للجمال الحسّى إلى وصف للجمال المعنوى — فهذا النوع قد تفوق فيه الأدب العربى تفوقاً كبيراً وسبق غيره من الآداب الأخرى ، حتى أن هذا النوع من الأدب لما ظهر فى أوروبا فى القرون الوسطى فى أسبانيا وفرنسا أخذ النقاد يبحثون عن مصدره فى الأدب العربى كيف أخذوه عنه ، شعوراً منهم بأن مبنع هذا النوع من الأدب هو الأدب العربى ، وكذلك لما ظهرت فى أوربا حركة الأدب الرومانطى رأى كثيرون أن لهذه الحركة بالشعر العربى علاقة وثيقة .

كذلك نرى الأدب العربى غنيا غنى تاما فى ناحية الحِكَم ، فقلّ أن نرى أدبا يدانيه فى ذلك ، قد صبت فيه تجارب الأمم المختلفة من عرب وفرس وهند وروم ، وصيغت هذه التجارب فى شكل أمثال وحكم فى الشعر والنثر على ألسنة الطيور والحيوانات .

على أنه ما تم احتكاك الشرق والغرب فى العصور الحديثة أخذ الأدب العربى يستعرض مواضع قوته وضعفه فلما أحس بحاجته إلى القصص سواء منه ما كان تمثيليا أو غير تمثيلى أخذ يستكمل نقصه بما يترجم أولا وألف ثانيا ، وهو فى سبيل استكمال نواحيه كلها مع احتفاظه بميزاته القديمة ، كما أخذ يساير الأمم العربية فى التعبير عن آلامها وآمالها ويدعو إلى الإصلاح الاجتماعى فى أشكاله المختلفة ، ولكن أمامه عقبة كبيرة يجب أن يتغلب عليها وهو أنه لا يغذى إلا طبقة

المثقفين ، أما السواد الأعظم من الشعوب فيعيش على قليل من الأزجال وتافه من الغناء و بقايا من « الحواديت » ، ولا بد للأدب الكامل أن يغذى الشعب كله خاصته وعامته بحسب عقليته البسيطة أو الراقية حتى لا تفلت من يده أى طبقة من طبقاته . أما إن هو اقتصر على المثقفين وحدهم لم يكن قد قام إلا ببعض واجبه ، وحاجة الأمة إلى الغذاء الأدبى كما أسفلنا فى مثل حاجتها إلى الغذاء المادى لا يصح أن يستغنى عنه أحد ولا يعيش بدونه .

ملوك الاسلام والأدب العربى

ظاهرة واضحة — من ظواهر الأدب العربى — أنه أكثر ما نما كان فى ظل الملوك والأمراء ، وكان هذا شأنه من أول عهد النابغة الذبيانى فى الجاهلية إلى شوقى فى عصرنا .

لقد كان العرب فى أول عهدهم يعيشون عيشة قبائل ، وكان للقبيلة شيخها وكان المعنى القبلى متغلباً عليهم ، وكان الفرد يعيش لقبيلته و يموت لقبيلته ، أما شعوره بشخصيته فضعيف فاتر . من أجل هذا كان شعر الشاعر إنما هو فى الإشادة بقبيلته والتشهير بأعدائها . فلما ظهر للعرب ملوك رأينا الشعر بدأ يتحول نحوهم ، فقصد النابغة الذبيانى النعمان بن المنذر ومدحه وقبل الصلة منه ، واستطعم الترف والنعيم ، فكان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة مما كان يناله من الملوك .

وفاقه الأعشى فى ذلك فكان رحالة إلى الملوك يمدحهم وينال عطاءهم ، فقصد المناذرة على تخوم العراق والغساسنة على تخوم الشام ، بل وقصد ملوك العجم يمدحهم فيجزلون عطاءه و يملؤون يده .

فلما جاء ملوك بنى أمية عرفوا قيمة الشعر وأثره فى الدعوة لهم ومكافحة خصومهم ، فقربوا الشعراء وأجزلوا لهم العطاء ، فكان من شعرائهم الأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم من مشهورى الشعراء . وكان كل من طمع فى الملك من مناوئيهم يتخذ الشعراء أداة له فى الخصومة والنزال ، فللخوارج شعراؤهم وللشيعة شعراؤهم ، ولعبد الله بن الزبير شعراؤه .

ولا يستثنى من مشاهير شعراء بنى أمية إلا عدد قليل لم يتصل بملك ولم يقبل عطاء مثل عمر بن أبى ربيعة . فقد كان يغنى لنفسه وللنساء ، واكتفى بجاهه وغناه ، وأنف من المدح والهجاء . ولكن هذا وأمثاله قليلون إذا قيسوا بمن نبغوا فى ظل الملوك والأمراء .

فلما جاءت الدولة العباسية أكثر الملوك من عطاياهم فقصدهم الشعراء من كل فج ، فكانت بغداد موطن الخلفاء ، وموطن الشعراء معاً . ومن نبغ فى مصر أو الشام أو الحجاز لم ينفق شعره ولم يشتهر أمره إلا إذا قصد الملوك والأمراء ببغداد ، فإذا عددت نوابغ الشعراء فى ذلك العصر أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبى العتاهية وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن الجهم ، رأيتهم نبغوا فى ظل القصور ، ورأيت تاريخهم وتاريخ شعرهم جزءاً من تاريخ الخلفاء والأمراء ، هؤلاء يقصدون الخلفاء ، وهؤلاء يقصدون البرامكة وهؤلاء يقصدون الأمير أبا دلف إلى غير ذلك .

وقلّ أن ترى فى هذا العصر شاعراً لا صلة له بملك أو أمير ، حتى العباس ابن الأحنف فإنه أنف عن المدح ، وقصر شعره على الغزل ، ومع هذا أخذ صلة الرشيد وغيره على حسن تغزله ولطف مقصده فى التشبيب بالنساء .

ومن هؤلاء الشعراء من كان يقنع بمدح أى أمير وأى غنى ، ومنهم من كان يأنف أن يمدح إلا الملوك ، فسلم الخاسر يعير مروان بن أبى حفصة بتكففه من هذا ومن ذلك ويفخر هو بأنه لا يمدح إلا الملوك فيقول :

من مبلغ مروان عنى رسالة ... مغلغلة لا تنثنى عن لقائكا
حبانى أمير المؤمنين بنفحة ... ثمانين ألفا طأطأت من حبائكا
ثمانين ألفا نلت من صلب ماله ... ولم تك قسما من أولى وأولائكا

ويفتخر بشار بن برد فيقول :

وإنى لنهاض اليدين إلى العلا ... قروع لأبواب الهمام المتوج

إلى كثير من أمثال ذلك .

وفى بلاط سيف الدولة بن حمدان فى حلب اجتمع عشرات الشعراء وعلى

رأسهم المتنبي وأبو فراس يشيدون بفضله ويسجلون وقائعه وهو يغدق عليهم من ماله حتى قال فيه أبو الطيب :

* وانعلت أفراسى بنعماك عسجدا *

ولما ضعفت الخلافة ببغداد وعلا شأن مصر تحول غرض الشعراء من بغداد إلى مصر ، فكانت مصر مقصد المغاربة والشاميين والعراقيين ، وكان من شعراء صلاح الدين الأيوبى القاضى الفاضل البيسانى والعماد الأصفهانى وابن سناء الملك ، وكان من شعراء الملك الصالح الأيوبى ابن مطروح والبهاء زهير .

فلما جاءت دولة المماليك ارتفع شأن مصر بقدر ماضعف شأن بغداد ، فأصبحت مركز الثقافة للعالم الإسلامى ، ومجمع العلماء والأدباء والشعراء . ولكن لم يكن حظ الشعراء فى عصر المماليك كحظ العلماء ، لأن ملوك المماليك لم يكونوا يحسنون فهم العربية ولم يكونوا يتذوقون الشعر ، فضعف من أجل ذلك الشعر وخمل الشعراء ، وعلى العكس من ذلك قوى العلم وعظم شأن رجال الدين .

حتى جاءت نهضة مصر الحديثة فأخذ الشعر يستعيد رونقه ، وكان أكثر النابغين من الشعراء فى ظل الملوك والأمراء أيضاً ، فالسيد على أبو النصر كان فى رعاية البيت العلوى من عهد محمد على (باشا) إلى عهد توفيق (باشا) ، والشيخ على الليثى كان شاعر الخديو إسماعيل والخديو توفيق ونديمهما ، وولد شوقى — كما يقول هو — بباب إسماعيل ، وأزهر شعره فى ظل الخديو عباس الثانى .

* * *

وعلى الجملة فلو أحصينا شعراء العرب وعددنا النابغين منهم وقرأنا تاريخ حياتهم لوجدنا الجمهرة العظمى منهم قد نبغوا فى ظل الملوك والأمراء .

وسبب هذا أن الشعر فن جميل والفنون الجميلة إنما تنمو وتزهر فى القصور ، كالغناء والموسيقى والنحت والتصوير والخطوط ، لأنها تعد من الأمور الكمالية

ومن الزينة والترف ، وأحسن أنواع الزينة إنما مكانه اللائق به القصور ، كاللؤلؤة الكبيرة والحجر الكريم النادر والصورة الرائعة والمصحف المخطوط خطاً بديعاً ، فكل هذه وأمثالها لا يقومها حق تقويمها إلا الملوك والأمراء ، فإليهم تهدى وفى قصورهم تزداد روعة وجمالا .

ثم كان أن اتجه الشعر العربى أكثر ما اتجه إلى المديح ، فلو أحصينا الشعر العربى ووزعناه على أبوابه لوجدنا نحو ثلثيه مديحاً والثلث الآخر تتقسمه الأبواب المختلفة الأخرى ، ومن أليق بالمديح من الخلفاء والملوك والأمراء ؟ إنهم أقدر على المكافأة وأسخى فى العطاء ، فالشاعر يبدأ يتعلم فى مدح متوسطى الحال ، فإذا نبغ لم يجد موضعاً لشعره لائقاً إلا الملوك ، فقصدهم وقصر مديحه عليهم . ومن أجل هذا نرى أنواع الشعر الأخرى تنمو خارج القصور بعيدة عنها كاللزوميات لأبى العلاء المعرى ، وشعر التصوف مثل شعر عمر بن الفارض ، وشعر الغزل الصرف كشعر جميل والعباس بن الأحنف ، وأمثال ذلك ، لأن الشاعر فيها يغنى لنفسه ، ويرضى عاطفة تجيش بصدره لا يتطلب من أجل ذلك جزاءاً ولا شكوراً .

* * *

هذه ناحية واحدة من نواحى الأدب العربى وهى ناحية الشعر ، وهناك نواح أخرى كان للملوك كبير أثر فيها أيضاً ، فالكتابة الديوانية إنما ازدهرت كذلك فى حماية الملوك والأمراء ، فعبد الحميد الكاتب أثمرت كتابته فى ظل مروان بن محمد ، وابن المقفع فى ظل الأمير عيسى بن على ، وعمرو بن مسعدة فى ظل المأمون ، وابن العميد فى ظل بنى بويه ، والقاضى الفاضل فى عهد صلاح الدين ، والعماد فى عهد نور الدين الخ .

وذلك أن الكتابة الإنشائية كانت وظيفة حكومية ، فكان فى العهد الأول لكل أمير كاتب يجيد الكتابة عنه ، ويجتهد فى تنميق أسلوبه وحسن

بيانه ، و بطبيعة الحال كان خير الكتاب كتاب الملوك ، فهم يتخيرون أدق تخير وعنهم تصدر أروع الكتب وأبلغ المقالات .

وحظ التأليف من الملوك ليس أقل من حظ الشعر والنثر ، فالجاحظ يهدى بعض كتبه المأمون و بعضها للفتح بن خاقان . وأبو الفرج الأصفهانى يهدى كتابه الأغانى لسيف الدولة الحمدانى ، وكثير من التآليف الأدبية والعلمية والدينية نراها قد أهديت فى تاريخها أو فى ديباجتها إلى ملك أو أمير ، ذلك لأن كثيراً من هؤلاء الملوك والأمراء كانت لهم مشاركة علمية أو أدبية ، فكانوا يقترحون على العلماء والأدباء موضوعات يؤلفون فيها ، وكثير منهم كان يرى أن تقديم الكتاب إليه يخلد ذكره و يبقى على الدهر اسمه ، فكتاب علمى أو أدبى يؤلف باسمه ورسمه بمثابة مسجد يقيمه أو مدرسة ينشئها أو « سبيل » يتقرب به إلى الله .

يضاف إلى ذلك سبب آخر هام ، وهو أن الثروة لم تكن موزعة على حسب المنهج الذى نراه الآن ، بل كانت أغلب الثروة فى يد الملوك والأمراء ، والعلماء ليس لهم إلا قليل من الأوقاف ونحوها ، فلم تكن هناك وزارة معارف تجرى مرتبات على المدرسين ونحو ذلك ، إنما كان العلماء يعيشون على القليل من مال الوقف وعلى الكثير من عطايا الخلفاء والأمراء ، فكان ارتباط العلماء بالأمراء أقوى ، وحاجتهم إليهم أشد ، فالعالم مخير بين أن يعتزل الأمراء و يعيش عيشة كفاف أو يتطلب عيشة الغنى فعليه أن يتصل بالملوك والأمراء يسامرهم و يحدثهم و يؤلف لهم . وحاجة الأدباء فى ذلك أشد لأن طبيعة أدبهم وحياتهم لا تتفق والزهد ، ولأن الأوقاف لا تشملهم ، فليسوا رجال علم ولا رجال دين . فمنهجهم الوحيد الذى يتطلبونه و يقصدونه هو قصور الخلفاء والملوك والأمراء والأغنياء ، ففيها عيشة الترف التى تناسب الأدب وتغذيه ، وفيها يجد سلعته رائجة وعمله مكافأ . ومن أجل هذا الفرق قد نرى علماً خارج القصور ولكن قل أن نرى أدباً ازدهر خارج القصور .

و بعد فاتصال العلم العربى والأدب العربى بالملوك والأمراء اتصال وثيق ، وشرح أسبابه ونتائجه لا يمكن أن يتسع له مقال ، فلنجتزئ الآن بهذا القدر .

أدبنا الحديث أدب ديمقراطى

الأدب ظاهرة اجتماعية كاللغة والحكومة ونظم التربية — كلها تخضع للحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للأمة . فالجماعة من الناس الذين يعيشون على الصيد ، أدبهم من قصص وأمثال وشعر مشتق من نوع حياتهم ، والذين يعيشون فى مدينة ممدنة منظمة ، ينتج أدبهم صورة صادقة من حياتهم . فمحال أن يكون ابن المعتز بدويا أو أن يكون شعره بدويا ، ومحال أن يكون طرفة بن العبد حضريا أو أن يكون شعره حضريا . فالأدب يشتق مظاهره وموضوعاته وأساليبه من الحياة التى يحياها الأديب . وأدب كل جماعة يعتمد على درجتها فى النظام الاجتماعى والاقتصادى .

فلنقصر نظرنا على الأدب العربى من هذه الناحية ، فنرى أنه قد مر بأدوار ثلاثة :

١ — أدب قبلى فى العصر الجاهلى وصدر العصر الإسلامى .

٢ — وأدب أرستقراطى فى القرون الوسطى .

٣ — وأدب ديمقراطى فى العصر الحديث .

فالأدب الجاهلى صورة صادقة لحياة العرب القبلية ، فهو يمثل لنا حياتهم الواقعية من غير أن يكون فيها كبير عناية بتجميل ، أو تلوين بلون زاه براق ، يمثل لنا حياة لا تستند على ثقافة واسعة ولا علم غزير ، يمثل حياة حسية لا يتجاوزها إلى الروح والعناية بها ، فالمرأة الجميلة هى الجميلة جسما ، والمنظر الجميل هو ما يدركه البصر جميلا ، قد اشتق أدبه من حروبه وعلاقته بالإبل وبالخيل ورحلته عليهما من مكان إلى مكان ورعيه لهما ونحو ذلك .

لا يمكننا أن نسمى هذا الأدب أدبا ديمقراطيا لأن أساس الديمقراطية شعور المرء بنفسه ، وتقديرها لشخصية كل فرد ، عظيما كان أو وضيعا ، والشاعر الجاهلى كان يشعر بقبيلته ، وأن إغارة أحد من العرب على أحد ليست إغارة فرد بل قبيلة على قبيلة ، وأن العار الذى يلحق الفرد يلحق القبيلة ، والمفخرة التى يأتيها الفرد مفخرة القبيلة — وعلى الجملة كان شعور الفرد بقبيلته أكثر من شعوره بشخصه — و إذا استعرضنا الأدب الجاهلى اتضح لنا هـذا المعنى ، فنرى قبيلة الشاعر فى المقام الأول ، وشخصيته مستترة وراء قبيلته ، فهو قلما يعبر « بأنا » و إنما يعبر « بنحن » وقلما يشيد بذكر أفعال قام بها و إنما أغلب ما يفخر بأعمال قومه وآبائه ، فالشخصية الفردية تكاد تكون معدومة والشخصية القبلية طاغية عليها ، ولذلك لا يمكننا أن نسمى الأدب الجاهلى أدبا ديمقراطيا بل أدبا قبليا .

* * *

تحضرت الأمة العربية وفتحت أعظم الممالك وتدفق المال عليها من البلاد المفتوحة ، وكان أكثر المال والغنى فى أيدى الخلفاء والأمراء ، و إذا كان عطاء للأفراد (مرتب أو ماهية) فللجند وأمثالهم لا للشعراء وأمثالهم ، وضاع الشعور القبلى أو على الأقل أصبحت قبيلة الشاعر لا تعوله كما كانت تعوله فى الجاهلية ، فوجد الشاعر نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يشعر لنفســه و يرضى بالفقر ، أو يشعر للخليفة والأمير فيغنى لهما ، ففضل الثانية . والخلفاء والأمراء من ناحيتهم رأوا أن الفن — ومنه الشعر والأدب — أداة من الأدوات الجميلة ، كالتحف تعلق فى القصور ، وكالدرة الجميلة والعقد الثمين والحجر الـكريم ، فرحبوا بأهل الفن يزينون بهم قصورهم . كان الشاعر يرضى من قبيلته بالقليل فأصبح وقد كثر المال يطمع فى الـكثير ، وكان يغنى لقبيلته فأصبحت قبيلته لا تجزيه ، وكان شيخ القبيلة فقيرا فأصبح الخليفة وعنده القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ،

وكانت حاجات الفنان قليلة فأصبحت بفضل الحضارة كثيرة مركبة ، والشعب لا يلتفت كثيراً إلى الفنان لأن فنه نوع من الترف ، والترف إنما هو فى قصور الخلفاء والأمراء .

كل هذا وأمثاله قلب الأدب إلى أدب أرستقراطى ، وأعنى به الأدب الذى قيل فى الخلفاء والأمراء مديحا أو رثاء ، أو إجابة لمطلب لهم من وصف مائدة ووصف طرفة ووصف روضة ونحو ذلك ، أو قيل تحريضا من الخلفاء والأمراء للشعراء على هجاء أعدائهم ، أو كتابا أدبيا ألفه الأديب لخليفة أو أمير ، وعلى الجملة كل ما قصد به أمير أو بعث على الإتيان به أمير .

وهذه هى الخاصة الواضحة فى الأدب العربى فى القرون الوسطى ، فلو نظرت إلى الأدب الذى قيل فى هـذه الأغراض ولهذه الأسباب ، لوجدته طاغيا على غيره من الآداب ، أى أن الشاعر القدير قل أن يغنى لنفسه فى شرح عاطفة تملكته ، أو مناظر أعجبته ، أو يشعر للشعب فى وصف آماله وآلامه ، أو للإنسانية فى وصف سرائها وضرائها ، وإنما همه إذا أجاد أن يحتمى فى حمى خليفة أو أمير أو وزير يغنى له ويقول ما يعجبه .

لنضرب لذلك مثلا مختارات البارودى . فقد اختار لثلاثين شاعراً من شعراء الدولة العباسية فبلغ ما اختاره لهم من المديح ٢٤١٨٥ بيتا من الشعر ، على حين أن ما اختار لهم من الأدب ١٦٩٧ بيتا ، ومن الغزل ٤٦١٦ ، فإذا أضفت ما اختاره لهم من الرثاء والهجاء إلى المديح — لأنها كلها أرستقراطية — بلغت ٣٢٤٠٧ وهى نسبة كبيرة جداً لبيان طغيان الأدب الأرستقراطى على النزعات الأخرى ، وخاصة إذا علمت أن كثيراً من الغزل كان ليس إلا تمهيداً للمديح ، وأن كثيراً من أبيات الأدب ليست إلا تعليلا للمديح — ثم تبحث فى كل هذا عن نصيب الشاعر من شعره أو نصيب الشعب منه فلا تجد إلا القليل .

وهذه ظاهرة طبيعية اجتماعية أيضاً ، فالخلفاء والأمراء كانوا كل شيء ، والشعب مهمل إلا فى النادر ، فانصرف الفن إليهم ، ومثل الأدب فى ذلك التاريخ ، فالتاريخ فى هذه العصور لم يؤرخ إلا الملوك والأمراء وحروبهم ونزاعهم وموتهم وولادتهم ، ويجهد المؤرخ الصادق الآن نفسه ليعثر على ما يستنتج منه حالة الشعب ، فقلّ أن يجد كلمة فى صفحات عدة .

* * *

سادت بعد ذلك الديمقراطية أوروبا فى العصر الحديث ، وبنيت على أساسين : كل إنسان يجب أن يكون حرا ، وكل إنسان يجب أن يشعر بالمسئولية . فالقوانين إنما توضع لحماية حرية الأفراد لا لتنفيذ إرادة الملوك . والفرد إذا أطاع القانون فإنما يطيعه لأنه يشعر بفائدته ولمواطنيه لا لأن سلطة أخرى ينبغى أن تطاع ، وعلى الجملة فقد أحس الفرد أنه يسيّر نفسه لا يسيره غيره ، وأنه سيد فى نفسه لا عبد لغيره ولو كان هذا الغير ملكا أو أميرا .

سادت هذه النزعة أوروبا فصبغت كل شيء بلونها ، فنظمت الحكومات على هذا الأساس الذى يضمن للفرد حريته ويشعره بمسئوليته ، وأثرت فى التعليم فشعر كل فرد أن له الحق أن يتعلم وعلى الحكومات أن تهيىء له وسائل التعلم ، بل أثرت هذه النزعة فى الانقلاب الصناعى والتجارى والزراعى ، وأنتجت نتائج خطيرة ليس هنا موضع شرحها ، وإنما الذى يهمنا هنا أنها أثرت كذلك فى الأدب فحولته من أدب أرستقراطى إلى أدب ديمقراطى ، فأخذ عظماء الأدباء يصورون هذه النزعة الجديدة ، فملتن — مثلا — يكتب ويلح فى الكتابة أن حقوق الناس أقدم من حقوق الملوك ، وأن الناس ليسوا ملزمين بإطاعة الملك الظالم ، وأن الناس ولدوا أحراراً ، وليس الملوك إلا أجراءها . وكذلك فعل روسو فى فرنسا وجفرسن فى أمريكا ، وأمثالهم كثير .

وتلون الأدب فأصبحت الأغانى الشعبية تتغنى بالحرية ، وانتشر نوع من الأدب وهو « اليوتوبيا » أو « الطوبى » أو « المدينة الفاضلة » وهى الكتب التى ترسم صوراً لمعيشة الناس عيشة أسعد مما يحياها الناس فى الواقع — وتعددت موضوعات الأدب التى تؤيد الديمقراطية ، فهذا أديب يشيد بالإنسانية ، وهذا شاعر يؤيد أمة تجاهد فى سبيل استقلالها ، وهذا يشهر بظلم القوانين وهكذا .

وصلت هذه الموجة فى سيرها إلى الشرق فأخذ يحارب الاستعمار ويجاهد فى نيل الحرية وينشد الديمقراطية وأخذ يقلد أوروبا فى حركاته وأعماله ، وتشبع القادة بحب الديمقراطية وتغنوا بها ونشروا مبادئها بين الناس فآمنوا بها ورسموا خططا لنيلها ، فهذه خطب فى المجالس النيابية وهذه مظاهرات تعرقل أعمال المستعمر ، وهذه احتجاجات ومؤتمرات وتشهير بالدول الأوروبية وعسفها ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وأخيراً رأينا الأدب العربى يتبع هذه النزعة ، ويبعد قليلا قليلا عن الاستظلال بالأمراء ، ويقرب قليلا قليلا من الاستظلال بالشعب . فلئن كان شوقى فى حياته الأولى شاعر الأمير ، فهو فى حياته الأخيرة شاعر الشعب ، وأخذ شعراء العراق والشام ومصر يتغنون بالحرية ويعلنون ألمهم من الظلم وأملهم فى تحقيق العدل ، وطرق كتابهم وشعراؤهم موضوعات شعبية صرفة بعد أن كانوا يقفون أدبهم وشعرهم على مديح الأمراء والخلفاء ؛ فقاسم أمين يكتب فى تحرير المرأة وشوقى يشعر فى بنك مصر ويرثى مصطفى كامل وسعد زغلول ويلتفت إلى موضوعات شعبية بحتة كانتحار الطلبة والعمال ونهضة مصر — هذا شوقى الأرستقراطى فما بالك بحافظ الذى أخذ يتابع الحركة الديمقراطية ويصوغ فيها شعره . وكان من أكبر مظاهر الديمقراطية فى الغرب والشرق نضج « فن الروايات » فهى تعنى أكبر عناية بتحليل حياة العامة والجماهير ، وقلما تعنى بحياة البلاط ، فالديمقراطية — لما كان أثرها الشعور بالذاتية — وجهت الأدب إلى

تحليل الشخصيات وتحليل أنواعها وضروبها ، وما كان يمكن أن يرقى هذا وذاك فى أحضان السلطة الأرستقراطية .

وتبع شعور الفرد بنفسه وشخصيته أن رأينا كثيراً من الأدباء يتحولون من مدح غيرهم إلى تحليل نفوسهم . فطه حسين يكتب « الأيام » يشرح فيها طوراً من أطوار حياته و يصور فيها مشاعره . وهيكل يشرح ما يشعر به فى رحلاته إلى السودان والحجاز ، والعقاد يحلل فى بعض مقالاته نفسه بل يحلل نفسية كلبه وخادمه الخ . .

وعلى الجملة ظهرت أعراض الديمقراطية فى الأدب العربى بأشكالها المختلفة وهى سائرة فى طريق كمالها ، فكما أن النزعة الأرستقراطية تعد الفرد للدولة ، والنزعة الديمقراطية تعد الدولة للفرد ، كذلك الشأن فى الأدب ، ففى العهد الأرستقراطى يعد الفنان ليكون طرفة للقصور ، وفى العهد الديمقراطى تعد القصور لتكون طرفة للفنان .

و بعد أن كانت ساحة الأدب والشعر هى القصور لأنها حصن الأرستقراطية أصبحنا نرى ساحة الأدب هى الكتب و الجرائد والمجلات لأنها مظهر الديمقراطية . و بعد أن كان الأديب يعيش على موائد الأمراء ومن عطائهم وهباتهم أصبح الأديب والشاعر يعيش على موائد الشعب ومن عطائه وهباته ، و إن كانت الشعوب أحيانا — وخاصة فى الشرق — تهمل من يغنى لها ، فيلذها غناؤه ولا يؤلمها بؤسه وشقاؤه .

تعاون العرب

فى وضع دائرة معارف عربية

كل الأمم الحية اجتهدت فى أن تضع لها دائرة معارف تشتمل كل الفروع ، وهى تجددها كلما مرّ زمن تغيرت فيه معالم العلوم ، حتى أننا نرى (الانسيكيليوبديا) الإنجليزية جددت أربع عشرة مرة . وسارت الأمم الأخرى سير انجلترا فى دائرة معارفها . وكل أمة تعتز بذلك لأنه يدل على تقدمها ونهوضها . ومن المؤسف أن الدول العربية لم تضع لها دائرة معارف كاملة إلى اليوم . لقد فكّر فى ذلك فى عهد إسماعيل المعلِّم بطرس البستانى ، وأمده إسماعيل بجزء من المال . ولكن كان عيبها : أولا ، أنه لم يكن قد وصل فى تأليفها إلا إلى حرف العين ولم يتمها ، واختارته المنية هو وابنه قبل إتمامها ؛ وثانيا ، أن العلوم والآداب والفنون تقدمت منذ عهده ، ولم تعد دائرته صالحة كل الصلاحية . وقام بمثل هـذا العمل أيضاً الأستاذ محمد فريد وجدى ولـكن عيبها أيضاً أنها غير وافية ، وثانيا أنه اعتمد فيها على نفسه فقط ، ولم يستعن بالإخصائيين ، مع أن دائرة المعارف عادة تشمل الجغرافيا والتاريخ والأدب والطبيعة والـكيمياء والحساب والهندسة والفلك وما إلى ذلك . ومحال أن يلم إنسانا كائنا من كان بهـذه الفروع كلها ، فضلا عن التبحر فيها ، فما أحوجنا اليوم إلى دائرة معارف تناسب العصر . نعم ، قام بعض كبار المستشرقين بدائرة معارف إسلامية ، ولـكنها مقصورة على المواد الإسلامية من جهة ، وغير مشبعة بالروح الإسلامية من جهة أخرى . وهـذه الدائرة التى نطمح إليها ، لابد أن يسبقها الفراغ من وضع المصطلحات الحديثة فى الأدب والعلم والفن ليستعين بها كتّاب دائرة المعارف . وهذه وظيفة المجامع اللغوية ، يضعون

المصطلحات لهذه الأمور كلها ، يفرغون منها و يتفقون عليها . والطريقة المثلى فى ذلك أن يمسكوا بدائرة من دوائر المعارف الأجنبية الفنية ويفرغون من وضع مصطلحات لها ، ثم يأتى دور كتاب دائرة المعارف . ولا بد أن يتفرغ لها المتخصصون بجميع الأقطار العربية كل فى فرعه الخاص ، من فلسفة وعلم وأدب وفلك ورياضة إلى غير ذلك ، وهذا عمل ضخم يحتاج أولا إلى مال كثير ، لأن الأيام عودتنا أنّ من لم يؤجر لا يعمل ، ثانيا ، يحتاج إلى إنشاء مكتب فنى يكون من اختصاصه وضع الفيشات لكل المواد على حسب التسمية العربية ، وتوزيع كل مادة أو طائفة من المواد على الفروع المختلفة . وهذا لا بد له من مهارة فنية خاصة . و بعد ذلك يطبع طبعا أنيقا محلى بالصور والخرائط وتساهم فيه جميع الأقطار العربية . وعندئذ فقط يمكن أن نقول إننا وضعنا الحجر الأساسى للنهضة الشرقية ، فدائرة المعارف هذه كفيلة بأن تذيع الثقافة العالية بين المتنورين من المتكلمين بالعربية . ولا نكون إذ ذاك عالة على الغربيين فى دوائر معارفهم . و يمكن بعد ذلك أن نقوم باختصار لهذه الدائرة لتكون قرب اليد ونهزة المستنجد . وربما كان لا بد أن يسبق هذا تنسيق وتوسيع المعاجم المختلفة . هذا معجم للغة يوافق حاجات العصر ، وهذا معجم للطب كذلك ، وهذا معجم للجغرافيا ، ونحو ذلك بحيث تكون مواد أولية لدائرة المعارف . وإذا كان الغربيون يولون أكبر عنايتهم لعلماء الغرب ونوابغهم وشعرائهم وأدبائهم وفلاسفتهم ، فلنول نحن عنايتنا برجالنا ونوابغنا وعلمائنا وفلاسفتنا وأدبائنا وشعرائنا ، سواء منهم الأقدمون أو المحدثون . وإذا كان الغربيون يولون اهتمامهم لجغرافية بلادهم فلنول نحن اهتمامنا بجغرافيتنا . ولنا من التراث القديم والتراث الحديث ما يملأ أجزاء عدة . وعندنا من المختصين فى كل علم وفن من يستطيع أن يملأ مادته بحمد الله ، مستعينين على ذلك بما سبقنا به الغربيون فى تدوين دوائر معارفهم . وعندنا أيضاً من الموسوعات اللغوية أمثال لسان العرب والمخصص والموسوعات الأدبية

والتاريخية والجغرافية ، أمثال نهاية الأرب وصبح الأعشى ونحو ذلك ، ولم تبق أمة حية على وجه الأرض من غير أن يكون لها دائرة معارف بلغتها ، تسايرها مع الزمن ، وكلما تقدم العلم والفن طبعتها طبعة جديدة تساير العلم والفن ، إلا الشعوب العربية لأنها وقفت ولم تقم بهذا العمل ، وربما كان أكبر سبب فى ذلك أن الشعوب العربية لم تضع مصطلحات حديثة للعلوم والفنون الحديثة ، وإذا وضعت شيئاً لم تتفق كل البلاد على مصطلح واحد . هذه بلد تقول الطبيعة ، وأخرى تعرب الكلمة الأفرنجية وتسميها فيزيقيا ، وهكذا يجب أن توحد هذه المصطلحات أولا ، وتتم ثانياً ، ثم تستغل فى دائرة المعارف ثالثا ، فما لا شك فيه أن دائرة المعارف هذه ، من أول مظاهر المدنية الحديثة .

وقد كان المسلمون الأولون يؤلفون دوائر معارف مثل إخوان الصفا فى الفلسفة ، وكتب الجاحظ فى الاجتماعيات والأدبيات ونهاية الأرب ومسالك الأبصار فى العلوم المختلفة . ولكنها لم تكن شاملة من جهة ، ولم تكن مرتبة على حسب حروف المعجم من جهة أخرى ، فجاءت المدنية الحديثة فنظمت هذا العمل ووسعته ، وجعلته وفق حاجات العصر الحديث . فما بالنا لا نعمل عملهم ولا نسير سيرهم ، والحاجة شديدة إلى مثل عملهم .

إن كثيراً من الشبان يهرعون إلى دوائر المعارف الأجنبية ، فيأخذون منها بغيتهم ، ولكن المثقفين باللغة الأجنبية فى كل أمة عدد قليل . بجانب الكثرة البالغة ممن لا يعرفون غير لغتهم . ولقد سئل السيد أحمد خان رحمه الله ، عن أيهما خير : أنعلّم طائفة من الهنود لغة أجنبية أم ننقل العلوم والمعارف الأجنبية إلى لغة البلاد ؟ فنصح بالطريقة الثانية ، لأنها تثقف عدداً أكبر ، وقال : لوددت أن أكتب بحروف من نور على جبال الهملايا مطالبا بنقل العلوم والمعارف الأجنبية إلى لغة البلاد .

لقد مرّ على الأمم العربية زمان طويل يزيد على مائة سنة ، وكان هـذا يكفى لتعريب المصطلحات الأجنبية ، واستخدامها فى دائرة المعارف العربية ، ولـكن شيئاً من هـذا لم يحدث إلى اليوم فتراكمت المصطلحات والمعلومات ، وأصبح العمل شاقا عسيراً ، لأن العلم لم يقف عند حد ، وكلما مر الزمن تضاعفت المواد ، فما لم تبادر الأمم العربية ، غرقت فى هذا التيار الغزير قبل أن تتغلب عليه ، ومن غير شك تأليف دائرة المعارف العربية ومساهمة الشـعوب العربية فى وضعها ، يوثق الصلات بينها . ويقلل من الاختلافات اللغوية والعلمية والأدبية ويجعلها تسير سيراً واحداً ، وفى طريق واحد .

قد تسألنى . . إن هذا العمل الضخم يحتاج إلى مال كثير ، فمن أين نأتى بهذا ؟ فأقول إن هذا المـال يسهل على الشعوب العربية المختلفة أن تتحمله ، فهى قادرة على تخصيص مليون من الجنيهات أو مليونين أو أكثر متى صدقت النية ، ومثل هـذه المبالغ أنفقت فيما يقل عنها فائدة . ولـكن العلم والأدب ضائعان دائما ، وتبذر الأموال فيما لا يبقى ولا يفيد ، وتحجز الأموال عما يبقى ويفيد . واستنارة مائة واحدة من كل أمة من هذا العمل الضخم يساوى هذا المبلغ أو أكثر منه . فقتل الجهل لايقل شأنا عن إحياء نفوس الأفراد . والشرقيون على العموم لا تنقصهم الفكرة الصالحة ، فعندهم آلاف من الآراء النافعة ، ولـكن ينقصهم ربط الفكرة بالعمل . والتنظيم الإدارى للتنفيذ ، والأمم تختلف فى ذلك اختلافاً كبيراً . فالأوروبيون على العموم أكثر تنفيذا للفكرة من الشرقيين ، وربما كان الأمريكيون أكثر من الأوروبيين فى ذلك فقد عد من أكبر فضائلهم ربط الفكرة بالعمل ، ولو كانت الفـكرة غريبة . أما الشرقيون ، فلا يخلو مجلس من مجالسهم من اقتراحات ، ومن تعداد للعيوب ، ومن ذكر وسائل لإصلاحها ،

ولكن كل هذه المجالس تنتهى بعد الأخذ والرد بقولهم . . أصلح الله الحال . . لأن الله لا ينزل الإصلاح من السماء ، من غير مباشرة عمل منهم . وقد عهدنا كما قال عمر أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ونقول نحن ، ولا تمطر دوائر معارف ولا تمطر أنواع الإصـــــلاح المختلفة ، ما لم يبدأ الزعماء بالعمل والله الموفق .

أبو نواس

الشاعر المجدد

شهد العصر العباسى الأول زعيمين من زعماء التجديد فى الشعر : أولهما بشار ابن برد وثانيهما أبو نواس .

فأما بشار فأكبر ميزة له — استحق من أجلها أن يلقب بزعيم المحدثين — أنه كان فناناً بارعاً ، استطاع أن يصور بفنه الحياة الاجتماعية الجديدة فى العصر العباسى تصويراً دقيقاً — فقد تغير نظام الحياة الاجتماعية عما كان عليه فى الدولة الأموية فى جميع مناحى الحياة : فى اللهو وفى الجد ، وفى السياسة وفى العلم ، وفى النزعات المختلفة من عصبية غريبة وميل إلى الشعوبية وغير ذلك ، فكانت كل هذه النواحى تتطلب شاعراً ماهراً ينغمس فيها ويصورها ، ويغترف منها ويعرضها ، لا يكون مقلداً فى شعره جاهلياً ولا أموياً ، لأن الحياة العباسية ليست جاهلية ولا أموية ، فوجدت فى بشار لسانها الناطق وريشتها الماهرة ويدها الفنانة . فغزله لم يكن بدوياً متعففاً إنما كان حضرياً — متهتكا ، وفخره لم يكن بقبيلته إنما كان بفارسيته ، وهجاؤه لم يكن كهجاء جرير والفرزدق والأخطل يعير بعضهم بعضاً بفعال القبائل ، إنما كان يهجو بالرمى بالكفر والزندقة والقدح فى الأعراض فى فحش وشناعة ، وعلى الجملة فكان يجيد صياغة ما يتحدث به الناس وما يحبون وما يكرهون وما يعرفون وما ينكرون ، وكما أصبحت حياة الناس ناعمة رخوة أصبح شعر بشار فى الكثير الغالب ناعماً رخواً يفهمه الرجال والنساء ، والأحرار والإماء ، ويتمثلون به فى مواقفهم ، ويتغنون به فى مجالسهم ، ويشعرون أنه المعبر عن عواطفهم ، المغذى لمشاعرهم — إن أغرم الأصمعى

وأبو عمرو بن العلاء وأمثالهما من العلماء بشعر الجاهلية و بشعر جرير والفرزدق والأخطل من الأمويين ، للغته وغريبه ، فإن الشعب أغرم بشعر بشار لأنه صورة صادقة له ، يمثل حياته و يرسم آلامه .

من أجل هذا كله كان بشار زعيم المجددين .

المجدد الثانى

وجاء بعده أبو نواس فسار على أثره وجدد ما فاته ، فإن كان بشار يستحق لقب « المجدد الأول » فإن أبا نواس يستحق لقب « المجدد الثانى » .

ولنعرض الآن فى إيجاز لضروب التجديد التى أتى بها أبو نواس .

رأى أبو نواس طائفة كثيرة من الشعراء لا يزالون يتبعون منهج الجاهلية فى الشعر ، فيبدأون بالوقوف على الأطلال ، و بكاء النؤى والأحجار ، ولا أطلال فى العراق ولا نؤى ولا أحجار ، و يشمون الشيح والقيصوم ولا شيح ولا قيصوم ، و يشعرون شعراً بدوياً ، وهم يعيشون عيشاً حضرياً ، فيصفون الإبل وسيرها والصحراء وأرضها ونبتها ، والصيد وضباعه وذئابه ، والجزور وما فعلوا به ، والخيام وطنبها وأوتادها ، و يعددون أسماء القبائل وفعالها — ولا شىء لهم فى الحقيقة من ذلك ، لا يصفون واقعاً و إنما يصفون خيالا ، ولا يعبرون تعبيراً صادقاً ولكن تقليداً وادعاء — فصرخ فيهم أبو نواس صرخة قوية ، يريد أن يردهم عن باطلهم ، ويصدهم عن تصنعهم ، و يطلب إليهم أن يصفوا أنفسهم ، و يشعروا فى واقعهم ، فإذا لم يشموا عراراً فيجب ألا يذكروا العرار و إنما يذكرون الورد والنرجس ، و إذا كانوا يشربون الخمر ، فلا يصفون شرب الألبان ، و إذا كانوا يأكلون لحوم الضأن ، فلا يذكرون أكل الضب ، و إذا كانوا لا ينتسبون إلى قبائل فما معنى ذكر أسد وطىء وتميم وقيس — وقد أكثر من ذلك فى قصائده ولا سيما الخمريات فقل أن تخلو قصيدة فيها من التنبيه على هذا المعنى .

دع الأطلال تسفيها الجنوب   وتبكى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضاً   تخب بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ من الأعراب لهواً   ولا عيشاً فعيشهم جديب
ذر الألبان يشربها أناس   رقيق العيش عندهم غريب
بأرض نبتها عشر وطلح   وأكثر صيدها ضبع وذيب
إذا راب الحليب فبل عليه   ولا تحرج فما فى ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول   يطوف بكأسها ساق أريب

* * *

عاج الشقى على رسم يسائله   وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد   لا درّ درك قل لى : من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما   ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر   ولا صفا قلب من يصفو إلى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها   وبين باك على نؤى ومنتضد

والديوان مملوء بالشواهد على هذا المعنى ، فهو يريد أن يكون الشعراء واقعيين ، يصفون حياتهم ، ويذكرن لذاتهم . ولا لذة عنده خير من الخمر . ولا ذكر أحلى عنده من ذكر الخمر — وهو فى هذا أسبق الشعراء إلى هذه الدعوة ، فيما أعلم ، وأصرحهم . وإن كانت دعوته لم تلق نجاحاً كبيراً ، فظل الشعراء بعده إلى يومنا يصفون الأطلال ويقطعون الفيافى على ظهور الإبل ويستعذبون ذكر الجمل والهودج . وإن ركبوا القطار والطيارة ، حتى أن أبا نواس لم يلتزم مذهبه دائماً ووقع فيما حذر منه أحياناً فكان يقول مثلا :

أربع البلى إن الخشوع لباد   عليك وإنى لم أخنك ودادى

ويقول :

لمن دمن تزداد حسن رســوم　　على طول ما أقوت وطيب نسيم

ويقول :

ألا حى أطلال الرسوم الطواسما　　عفت غير سفع كالحمام جواثما

أبرز نواحيه فى التجديد

وعلى العموم فقد كان مجدداً يدعو إلى الحياة الواقعية فى باب اللذائذ ، ويسير فى كثير من الأحيان على نمط السابقين فى باب المديح — وشأنه فى ذلك شأنه فى اللغة والأســلوب أيضاً . فهو فى باب اللذائذ يذوب رقة ، وينفر من الغريب ، ويترك على سجيتها لا تــكلف ولا تصنع ، وهو فى باب المديح جزل الأسلوب ، جار على نمط القدماء مستعمل للغريب من الألفاظ والرصين من الأسلوب ، كما ترى فى قصيدته « أيها المنتاب من عفره » .

ومن أهم ما أتى به أبو نواس أنه فلسف اللذة كما فلسف أبو العتاهية الزهد ، لقد أوتى أبو نواس حسًّا مرهفا لإدراك اللذة ، وشعوراً حساسا دقيقا للاستمتاع بها ، ولساناً فنانا فى التعبير عنها ، يلذ الخمر والغلمان ، ويلذ أن يسمع اسميهما . ويلذ أن يقول فيهما فأفاض فى الحديث عنهما كما أفاض فى الاستمتاع بهما . وأخذ يولد المعانى فيهما حتى كاد لا يدع معنى لقائل .

قد شعر بشار فى الخمر قبله ولــكن ما وصل إلينا من شعره فيها قليل . وهو فيه لا يكاد يخرج عما استنه قبله الأعشى والأخطل . وقال فيها مسلم بن الوليد فأبدع بعض الإبداع ولــكن أحدا منهما لم يدان ما قال فيها أبو نواس . ولقــد أبدع فى تصويرها وتشبيهها وفعلها فى النفس ، كما أبدع فى كل ما يتصل بها من نديم

وساق وكأس وخمار ، وكما أبدع فى وصف مجلسها وما فيــه من ريحان وأزهار وطرب وغناء وجوار وغلمان .

يشربها صرفا وممزوجة ، وفى السر والجهر ، وشربا متواصلا ومتقطعا ، ومطبوخة بالشمس وبالنار ، وفى الدور وفى البساتين ، وساقيه جارية أو غلام ، أو جارية فى زى غلام . ويشرب فى الأرطال وفى الكؤوس العسجدية قد صورت عليها التصاوير . وهو فى كل هـذه يصف فيجيد الوصف ويظل وراء المعنى يولده ويقلبه على أشكاله المختلفة حتى يستنفده ، وما يفوته فى قصيدة يتممه فى أخرى حتى أوفى فى ذلك على الغاية ، وخلف للشعراء بعده ثروة ظلوا ينفقون منها إلى اليوم . ويطول بنا القول لو عددنا المعانى التى ابتكرها والمعانى التى أخذها من غيره فجملها وزينها ، وأخذها — كما يقولون — عباءة وأخرجها ديباجا .

كذلك كان شأنه فى الغزل بالمذكر هل هو منشئ هـذا الباب وفاتحه على مصراعيه . فقد فشا حب الغلمان والحديث عن الغلمان فى عصر أبى نواس أكثر مما كان فى عصر بشار . وأفرط الناس فيه وتسرب إلى قصور بعض الخلفاء حتى أن زبيدة رأت هذا الميل فى الأمين فاتخذت له سربا من الجوارى فى زى الغلمان وأطلق عليهن « الغلاميات » فكان أبو نواس أصدق معبر عن هـذا المرض الاجتماعى لتهتكه وفجوره . ولنشأته منذ صباه هذه النشأة . فتفنن ما شاء فى وصف الغلمان وقدودهم وخدودهم . وكل ما يتصل بهم وكون من ذلك كله بابا فى غزل المذكر على نمط ما قال الشعراء قبله فى غزل المؤنث . وأضاف إلى أبواب الأدب بابا جديداً لا يزال مفتوحا إلى اليوم .

فكاهته الحلوة

وشىء آخر كان لأبى نواس فيه الحظ الأوفر والقدح المعلّى . وهو فكاهته الحلوة ونادرته العذبة ومجونه الفكه . فقد كان ينغمس — كما قلنا — فى الملاهى

والملذات و يعل منها و ينهل ، وقد كان مع هذا صريحا إلى أقصى حدود الصراحة ، لا يهاب أحدا ، ولا يرعى دينا . فيرسل نفسه على سجيتها و يصوغ من مجالسه وحياته وخلانه و ندمانه شعراً لطيفا يستخرج العجب و يثير الضحك ، و يعمد إلى من يعيبون عليه استهتاره و إلى المتزمتين من رجال الدين ورجال اللغة و إلى الثقلاء من أى صنف ، فيهجوهم ويتنادر عليهم و يلذعهم لذعا فاحشا مؤلما فى لغة سهلة سلسلة يفهمها كل من سمعها ، وفى دعابة قاسية مضحكة .

ومن أجل ذلك اشتهر أبو نواس بالفكاهة والمجون . وجرى أهل زمانه على مثاله فداعبوا مداعبته ومزحوا مزاحه . وأرادوا ذيوع نوادرهم وأن تقع من الناس موقعا حسنا فنسبوها إليه كما نسبوا إلى « جحا » كل ما صنع بعده من جنس قصصه وملحه .

أما بعد فقد وضع أبو نواس فى الأدب العربى أسسا إن لم ترض الأخلاق . فقد أرضت فن الأدب . و إن كرهها رجال الدين ، فقد أحبها رجال الفن . على أن رجال الدين ورجال الأخلاق و إن كرهوها من أبى نواس وشددوا النكير عليها فلم يمنعوا أنفسهم من الانتفاع بها والاستفادة منها ، فقال الصوفية فى الغزل الإلهى ما قال أبو نواس فى الغزل المادى ، ووصفوا خمرهم الروحية بما وصف به أبو نواس خمره الحسية ، وما قاله أبو نواس صراحة ، قالوه هم كناية ، فكان هو المشرع لهم ، وسالك الطريق قبلهم .

صفحة من سير البطولة العربية

١ — أبو عبيدة بن الجراح

بطل من أبطال قريش اشتهر فى قومه قبل إسلامه بالرأى والدهاء . فكان يقال : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح . وكان من أسبق الناس إلى الإسلام ، وكان مخلصاً لدينه ، مخلصا لعقيدته ، مخلصاً لرسول الله منذ أسلم ، حتى لقبه رسول الله بأمين هذه الأمة علما بصدق إيمانه وقوة يقينه : استخلفت أمين الله وأمين رسوله .

ظهرت بطولته حين صحب رسول الله فى غزواته ، ثم ولاه أبو بكر قيادة جيش من الجيوش التى وجهها لفتح الشام ، فلما تولى عمر قيادة الجيوش كلها التى أرسلت لفتح الشام ، بعد أن عزل عن الإمارة خالد بن الوليد ، ففتح دمشق بعد أن حاصرها سبعين ليلة ، ثم سار إلى أرض الأردن وهزم جيوش الروم ، ثم سار إلى بيسان ففتحها ، ثم إلى حمص وحماة وحلب وأنطاكية ، ففتحها كلها إما عنوة وإما صلحاً .

وكل بلدة يفتحها يرتب فيها الجيوش المحافظة عليها وينظم شؤونها ، فيبسط العدل فيها ، حتى إذا رأى أهل البلاد حكم المسلمين لهم ، ووازنوه بحكم الروم ، فضلوا حكم المسلمين ، ومكنوا لهم من البلاد ، وعاونوهم فى الفتح — لقد جمع أبو عبيدة بين مهارته الحربية ومهارته السياسية — فإذا حارب عرف كيف يقاتل وكيف يحاصر وكيف يفتح — فإذا تم له الغلب عرف كيف يسوس الناس وكيف يحكمهم بالعدل حتى يستخرج رضاهم .

متواضع لا يرى لنفسه ميزة على أى رجل من جنده . لقد كان يأبى أن يقدم

إليه شيء أكثر مما يقدم لجندى من جنوده ، ومات ولم يملك من حطام الدنيا إلا سيفه وترسه ، ولم يكن فى بيته ما يأكل إلا كسيرات من الخبز .

من أجل هذا كان أبو عبيدة من أحب الناس إلى جنده ، ومن أحبهم إلى من يتولى عليهم ، ومن أحبهم إلى خليفته ، فيروون أن عمر بن الخطاب قال يوما لجلسائه : « تمنوا » فأخذ كل جليس يتمنى ، فقال عمر : « أما أنا فإنى أتمنى بيتاً ممتلئا رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح » وقال فيه عبد الله بن عمر : « ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنهم أحلاما وأثبتهم جنانا ، إن حدثوك لم يكذبوك ، و إن حدثتهم لم يكذّبوك : أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح » .

فلو قلنا إن فتح الشام وفلسطين فى العهد الأول من عهد الإسلام كان أكبر الفضل فيه لأبى عبيدة بن الجراح لكان قولا صادقا . لقد تم الفتح بحسن قيادته ، وما وضعه من خطط ، وما بث فى نفوس الجنود من حماسة ، حتى يروى أنه فى واقعة من وقائع الشام استعظم الناس جند الروم واستعدادهم وكثرتهم ، فقام أبو عبيدة فى جنده خطيباً يقول : «أيها الناس ! إن هذا اليوم له مابعده ، أما من حى منكم فإنه يصفو له ملكه وقراره ، وأما من مات فإنها الشهادة ، فأحسنوا بالله الظن ، ولا يكرهن إليكم الموت أمر قد اقترفه أحدكم دون الشرك ، توبوا إلى الله وتعرضوا للشهادة ، فإنى أشهد وليس الأوان أوان كذب أنى سمعت رسول الله يقول : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » .

فلما سمعها الجند كانوا كأنما فكوا من عقال ، ونشطوا نشاطاً لم ير مثله ، وخرج بهم إلى القتال وخالد بن الوليد على الميمنة وعباس على الميسرة وأبو عبيدة فى القلب ، فقاتلوا قتالا عنيفا حتى انهزم هرقل بجنوده وظفر المسلمون ظفراً عظيما .

وتم فتح الشام وفلسطين والأردن كلها على يده وعلى يد أعوانه من القواد العظام ، أمثال خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية وحبيب بن مسلمة الفهرى .

وقد عاش ما عاش لدينه وعقيدته ، ولم ينل شيئاً من الدنيا ، حتى إن عمر حين قدم إلى الشام واستقبله أبو عبيدة قال له عمر : « اذهب بنا إلى بيتك » . ولعله كان يريد استطلاع ما ادخره أبو عبيدة ، وهل يعيش عيشة ترف ونعيم ، فقال له أبو عبيدة : « وما تصنع عندى ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك على . » ، ثم دخل منزله فلم ير شيئاً فقال : «أين متاعك وأنت أمير ؟» ثم سأله : « أعندك طعام » ؟ ، فقام أبو عبيدة إلى جونه فأخرج منه كسيرات ، فبكى عمر وقال : « غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة » .

حتى لقد كان عظيما فى موته . فقد أصيب فى الشام بطاعون فى سنة ثمانى عشرة من الهجرة ، سمى طاعون عمواس ، وانتشر فى البلاد ، وكان أبو عبيدة قائد الجند ، ومات من جنده كثير ، فاستدعاه عمر أن يذهب إلى المدينة ، خوفا من عمر أن يصيب أبا عبيدة ما أصاب الجند من الطاعون ، فأبى أبو عبيدة وكتب إليه :

« إنى فى جند من المسلمين ، لن أرغب بنفسى عنهم ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فحللنى من عزمتك ، وائذن لى فى الجلوس » .

وبقى فى الجند يتعذب عذابهم ويتحمل العناء معهم حتى أصابه الطاعون فمات عظيما كما عاش عظيما .

٢ — صلاح الدين الأيوبى

أحدثكم عن بطل آخر عظيم من أبطال العرب وهو صلاح الدين الأيوبى .

وهو لا شك بطل عربى مهما قيل إن أصله كردى و إن مولده فى آذربيجان ، ففى اعتقادنا أن كل من نشأ فى البلاد العربية وتثقف الثقافة العربية عربى ، وهذا هو الشأن فى جميع العالم . فمن نشأ فى انجلترا وتثقف الثقافة الإنجليزية فهو انجليزى ، سواء كان أجداده فرنسيين أو ألمانا ، وهكذا الفرنسيين والألمان ، وإلا ما عد نابليون فرنسيا ، ولا بعض ملوك انجلترا انجليزيا وهكذا ، فصلاح الدين عربى بهذا المعنى من غير شك .

ما أصدق قولهم — إن التاريخ يعيد نفسه فيما يلقاه العرب اليوم فى فلسطين ، واضطهاد العالم الغربى لهم ، وعدم مراعاة أبسط قواعد العدل معهم ليس جديداً وإنما هى رواية مثلت من قبل مراراً بالشكل الذى تمثل به اليوم ، ولأقص عليكم كيف مثلت هذه الرواية فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

فقد تألب على المسلمين فى العصور الوسطى رجال الدين والأمراء ، وكان لرجال الدين المسيحى السلطة والكلمة المسموعة ، لا يستطيع ملك أو أمير أن يخالف كلمة البابا وإشارته ، ففى سنة ١٠٩٥ م أعلن البابا فى مجمع رجال الكنيسة الحرب على المسلمين ، واكتساح أرضهم ، وأخذ بيت المقدس منهم ، فأطاعت الأمر ولبت الدعوة الأمراء والشعوب المسيحية ، فكانت الحروب الصليبية وقادها أربعة من كبار أمراء أوربا ، فساروا بجموعهم واكتسحوا الأناضول ، وما زالوا فى انتصاراتهم وتقدمهم حتى دخلوا الشام وأقاموا به أربع دول ، عليها أربعة أمراء منهم وهى « الرها » و « أنطاكية » و « طرابلس » و « بيت المقدس » .

ارتاع العالم العربي الإسلامى لهـذه الأحداث العظيمة ، وهو المعتز بدينه ، الفخور بقوميته ، الذى يرى بحق أن مدنيته وعزته خير وأعظم من مدنية أوربا إذ ذاك ، ولـكنه كان مفرقا مبعثراً لا تجمعه جامعة ، فدولة الفاطميين فى مصر تعالج سكرات الموت ، والبلاد التى كانت تـكون الدولة العباسية مقسمة موزعة بين أمراء مختلفين ، والعداء مستحكم بين الفاطميين فى مصر والعباسيين فى العراق وما إليه ، فجاءت صـدمة الحروب الصليبية فنبهتهم من رقدتهم ، وأرتهم عاقبة تفرقهم ، وكانت نفسية الشعوب خيراً من نفسية أمرائهم — فصرخت الشعوب تنبه على الخطر ، وتدعو إلى ترك الخلاف بين الأمراء وتضحية شهواتهم للمصلحة العامة ، وإبعاد من لم يلب الدعوة منهم ، وعلى هـذا الوجه تمت إرادة الشعوب وظهر فى العالم العربي إذ ذاك بطلان عظيمان يقودان هـذه الحركة ، ويخصصان أنفسهما لدفع العدو المغير على البلاد ، وهما نور الدين محمود زنكى وكان والى حلب ودمشق وما حولها ، وقد أبلى بلاء حسنا فى رد الصليبيين ، وأخذ بعض البلاد الإسلامية منهم ، والثانى بطلنا صلاح الدين الأيوبى الذى بدأ فوحد البلاد المصرية والشامية وغيرها وجعلها كلها فى قبضة يده حتى كانت مملـكته تمتد إلى آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غربا ، وبلاد الأرمن شمـالا ، وبلاد الجزيرة والموصل شرقا ، وبعد ما تم له ذلك وجه كل قوى هذه البلاد لطرد الصليبيين إلى بلادهم ، فـكان له ولشعوبه العربية ما أرادوا .

لقد كان صلاح الدين يفـكر أيضاً هل يحارب فى ميادين متعددة أو يحارب فى ميدان واحد ؟ ثم هداه طول التفـكير إلى الرأى الثـانى وهو الحرب فى ميدان واحد ، فـكان من ذلك واقعة « حطين » العظيمة .

لقد استدرج صلاح الدين خصومه حتى تجمعوا له فنازلهم بمجموعة فى حطين بالقرب من طبرية ، وتحمس الفريقان حماسة هائلة ، وكان فى الصليبيين

فرقتان مشهورتان بالبسالة والاستماتة فى القتال ، وهما فرقتا الداوية والاسبتارية أشبه شيء اليوم بفرقتي الهاجانا واشترن ، و بيعت الأرواح فى هذا اليوم بيع السماح ، وحرض صلاح الدين المؤمنين على القتال ، وكان الزمن زمن قيظ ، فكانوا مع ذلك يأتون بالعجائب من أعمال البطولة ، وأخيراً هزمت جيوش الصليبيين ، وأسر الملك واستسلم من بقى من الفرسان ، ووصف واصف ماحدث فى تلك الموقعة فقال : « وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى ، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى » ولما شاهد صلاح الدين ذلك سجد لله شكراً و بكى من السرور .

وأثر انتصاره فى موقعة حطين على موقف القتال جميعه ، فكان ينتصر بالرعب ، فإذا توجه لحصار بلد انخلعت قلوب الصليبيين لمقدمه ، فسلمت له قلعة طبرية سريعاً ، ثم سار إلى عكا ففتحها فى زمن قليل ، ثم طهر الساحل من يافا إلى ما بعد بيروت ، ولم يضع الزمن فانقضّ على الصليبين فى بيت المقدس وحاصرها حصاراً شديداً ؛ وعرض على أهلها الصلح ، وأن يعوضهم أرضا زراعية فأبوا ، فاستعد لقتالهم ، وتلمس نقط الضعف فى سور المدينة ، فوجد أضعف نقطة عند الباب المعروف بباب كنيسة صهيون فنصب المجانيق ، ونظم الرماة و بعث بالجنود تنقب الثغرات ، فلما يئس الصليبيون من أمرهم بعد حصار وقتال داما أسبوعا استسلموا ، و بعثوا إلى صلاح الدين يطلبون الصلح ، فأبى صلاح الدين أولا وطلب أخذ المدينة عنوة ليفعل بالفرنج مثل ما فعلوه بالمسلمين يوم دخلوا المدينة ، ولكنه قبل أخيراً الصلح على أن يدفع كل رجل يريد الخروج عشرة دنانير ، وكل امرأة ثلاثة ، وكل طفل اثنين ، و بدأ تسليم المدينة وخروج الصليبيين منها فى أكتوبر سنة ١١٨٧ ، ودخل صلاح الدين بيت المقدس بجيشه الظافر بعد خروج الصليبيين منها ، وهكذا تمت هذه الصفحة البيضاء من أعمال

صلاح الدين وقومه ، وخرج الصليبيون مخذولين مهزومين من بيت المقدس بعد أن استولوا عليه نحو قرن .

هذه رواية مثلت قديما فى هذه البلاد كما تمثل اليوم ، ولم يتغير فى الرواية إلا أن أوربا كانت تبعث بجنودها الصليبيين وتقذف بهم لفتح فلسطين ، واليوم تؤيد أوربا وأمريكا هؤلاء الصهيونيين لفتح فلسطين ، ونرجو أن تتم الرواية أخيراً كما تمت أولا ، فالله يهب نصره لمن أخلص له ، وصدق عهده ، وبذل الأرواح والأموال لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الكافرين السفلى .

هذه صفحة من صفحات بطلنا صلاح الدين وما أكثر صفحاته المجيدة ، والسلام عليكم ورحمة الله .

٣ — أسامة بن منقذ

أحدثكم عن بطل آخر من أبطال العرب ، دوى اسمه فى أيام الحروب الصليبية ، وكان له من أعمال البطولة فى الحروب ما يستحق العجب والإعجاب ، وحفظ لنا التاريخ سيرته بطلا عظيما وأديباً كبيراً ، يسجل بطولته بفعاله ، و يسجل نواحى عظمته فى شعره — ذلك البطل هو أسامة بن منقذ .

لقد كان عربياً من كنانة ، وكان قومه يسكنون مدينة وحصناً على بعد خمسة عشر ميلا شمالى حماة ، بالشام ، تسمى المدينة شيزر ، والحصن حصن شيزر . وقد اشتهرت هذه المدينة والحصون بأعمال البطولة من جانب العرب ومن جانب الصليبيين ، لأنها كانت مركزاً هاماً ، تشرف بارتفاعها على المسالك حولها ، و يتحكم من فيها على الجنود الغادين والرائحين .

وكان من سوء الحظ أن سقطت هذه المدينة وهذا الحصن فى أيدى الصليبيين ، فآذوا العرب به إيذاء كبيراً ، حتى قيض الله للعرب رجلا من كنانة شجاعا مقداماً ، قوى النفس كريماً ، جمع قومه فى هدوء ، وتحين الفرصة ، حتى وجدها ، فطوق الحصن ، وحاصره حصاراً شديداً ، فلم يجد الصليبيون بدا من الاستسلام وطلب الأمان ، وكان هذا البطل الكنانى جد بطلنا أسامة بن منقذ .

وكان أهل حصن شيزر ومدينة شيزر يعيشون عيشة حربية بطبيعة مركزهم إذ كانوا إما أن يغيروا على الأعداء أو يغير عليهم الأعداء . فهم إما فى حرب أو استعداد لحرب . على هذا كانت رجالهم وشبانهم وشيوخهم وفتياتهم ونساؤهم ، كل شجاع لا يهاب الموت ، وكل له وظيفته فى الحرب . فقد يبلغ الشيخ الستين بل والسبعين ، فإذا دعا داعى القتال أمسك سيفه وخرج للغزو أو للدفاع . والفتاة تختار زوجها لإتيانه بعمل من أعمال البطولة ، والأم تترك بنتها حارسة للدار وتخرج

مع الجيش للقيام بواجبها فى القتال ، والموت فى نظرهم أمر عادى ، لا بأس به إذا نزل ، وتربيتهم لأبنائهم و بناتهم تربية حربية عمادها الفروسية .

هذا أسامة يعوّد من صغره أن يخرج مع أبيه وأعمامه لصيد الوحوش ، وكان بالشام إذ ذاك غابات تسكن فيها السباع والضباع ، فلما شب ، كان يخرج لصيدها ، وقد حدّث أسامة عن نفسه بما لقيه من تجارب فى صيد الأسود ، وأبوه يعرضه للموت من غير خوف . رأى أبوه حية عظيمة فى قاعة من قاعات داره ، و بجانبه أسامة فقفز أسامة ، وأخرج سكيناً من وسطه ، ووضعها على رقبة الحية ، وهى نائمة ، فلما انتبهت التفّت حول يده وما زال بها حتى قتلها ، وما جزع أبوه وما فزع بل تبسم واغتبط — وهكذا تعلم النزال فى الصيد — مقدمة لنزال الرجال فى الحرب . و بدأ حياته الحربية ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، إذ خرج مع عمه ونفر من قومه ، فخرج عليهم جماعة من الصليبيين أكثر منهم عدداً وقاتلوهم قتالا تشيب من هوله الأطفال ، وأخذ الموت يحصد رجال أسامة ، وكان تحته فرس مثل الطير فى سرعة العدو وخفة الحركة ، فأخذ يطعن هذا ويدور على آخر ، ويحمى ما استطاع من قومه ، فإذا أصيبت فرسه ركب أخرى ، حتى انتصر على أعدائه ورجع هو ومن بقى من أصحابه إلى شيزر سالمين . وفى المساء وصل إلى الحصن رأس الفرقة الصليبية ليهنئ عم أسامة بما رأى من أسامة من شجاعة ومهارة وإقدام فى القتال على عادة الفرسان إذ ذاك .

وظل على هذا الحال طول حياته ، كل يوم غارة منه يغيرها ، وغارة على قومه يردها ، وهو فى قتاله موفق كل التوفيق ، شجاع كل الشجاعة ، لا يعبأ بما يصيبه من جراح ، حتى كاد كل موضع فى جسمه أن يكون موضعاً لطعان . ودعته الظروف أن يخرج إلى دمشق ويتصل بأميرها ويقاتل معه ، ويأتى من أعمال البطولة فى دمشق ما أتاه فى شيزر ، ثم يرحل إلى مصر فى آخر عهد الفاطميين ،

فى خلافة الحافظ لدين الله ، فيقربه الخليفة إليه ، ولكن يرى أسامة فى دور الخلافة العيشة الناعمة والغرق فى الترف والنعيم والإفراط فى حياة الدعة ، فيكره ذلك كله ، ويحن إلى حياة الجهاد ، ويتسلى بالصيد ، ولكن لاتقنعه هذه التسلية ، ويرى فى آخر الدولة الفاطمية تعفن الحياة الاجتماعية ، والإسراف فى ملذات الحياة ، ودسائس الولاة والحكام ، فخرج من مصر والتحق بجيش نور الدين ، وهو فى الرابعة والستين من عمره ، وما زال يقاتل فى كل جيش يحارب الصليبيين حتى بلغ الخامسة والسبعين ، فشكا ضعفه وعجزه عن القتال ، فلما بلغ الثمانين زاد ضعفه فانقطع للأدب يؤلف فيه ما يدعو إلى الحماسة والجهاد — ويعد النفوس بقلمه ، كما كان يقدم لها المثل بسيفه ، ثم كان لما رأى فى حياته الطويلة العريضة مستودع تجارب قيمة ، وخاصة فى القتال ومكايد الحروب ، فاتصل بصلاح يعينه فى الرأى ويمده بالخطط التى تضمن له الظفر والنصر ، وظل على هذه الحال يؤلف فى أدب الحرب ويعين صلاح الدين على الحرب حتى بلغ السادسة والتسعين ، فعجز عن حمل القلم وعن الإمداد بالرأى ، كما عجز من قبل عن حمل السيف ، وفى ليلة من ليالى رمضان سنة ٥٨٤ أسلم روحه لخالقه ، وهو يدعو الله لصلاح الدين أن يتم نصره على الصليبيين ويسأله لنفسه الرحمة والغفران .

هذه ناحيته الحربية ، ولم يكن فى ناحيته الأدبية بأقل منه شأنا فى ناحيته الحربية . فهو يسجل فى شعره أعمال بطولته ، ويسجل دور حبه وغرامه ، ويسجل مواقفه فى القتال ، ويسجل مشاعره فى مراحل حياته تسجيلا صادقاً قوياً ممتعاً .

يقول فى مستهل حياته :

لأرمين بنفسى كل مهلكة ... مخوفة يتحاماها ذوو الباس
حتى أصادف حتفى ، فهو أجمل بى ... من الخمول وأستغنى عن الناس

ويقول :

تجهل فى الإقدام رأى معاشر أراهم إذا فروا من الموت أجهلا
أترجو الفتى عند انقضاء حياته وإن فر ، من ورد المنية مزحلا
إذا أنا هبت الموت فى حومة الوغى فلا وجدتْ نفسى من الموت موئلا
وإنى إذا نازلت كبش كتيبة فلست أبالى أينا مات أولا

ويقول :

سأنفق مالى فى اكتساب مكارم أعيش بها بعد الممات مخلدا
وأسعى إلى الهيجاء لا أرهب الردى ولا أتخشى فارساً ومهندا
فإن نلت ما أرجو فللمجد ثم لى وإن مت خلفت الثناء المؤبدا

فلما تقدمت به السن ووضع السيف وحمل العصا قال :

أصبح كفى مالكا للعصا من بعد حمل الأسمر الذابل
كأننى لم أمش يوم الوغى إلى نزال البطل الباسل
ولم أشق الجيش لا أختشى من الردى ، كالقدر النازل
فانظر إلى ما فعل العمر بى من طوله لم أحظ بالنائل
يا حسرتا ، إنى غداً ميت على فراشى ميْتَة الخامل
هلا أتانى الموت يوم الوغى بين القنا والأسل والناهل

شوقى أمير الشعراء

فى رأيى أن عرش الشعر العربى كان قد استوى عليه المتنبى عن جدارة واستحقاق ، فلما نزل عنه بموته ظل شاغراً حتى تبوأه شوقى فلما قضى نحبه لم يستو عليه أحد إلى اليوم .

وللاستواء على عرش الشعر شروط دقيقة قاسية قد تكون أشد وأصعب من عروش السياسة ، وقد تكون أشد وأصعب من عرش النثر وعرش سائر الفنون ، لأن الشعر تلتقى فيه المعانى بالخيال بالعواطف بالموسيقى بالأسلوب ، ولا بد أن تكون كلها جميلة رائعة وإلا كان عدمها خيراً من وجودها ، كالزهرة لا بد أن تكون جميلة ناضرة ليستمتع بها ، فمتى أدركها شىء من الذبول فاختفاؤها خير من ظهورها .

ولعل أهم ما يرشح الشاعر للإمارة أن يكون لسان الناس فى عصره وبعد عصره ، يعبر أحسن تعبير حيث لا يحسنون التعبير ، ويصوغ الأفكار والمشاعر والآمال والآلام أحسن صياغة حيث لا يجيدون الصياغة ، فيجد كل مثقف فى شعره الجميل ما يعبر عن نفسه أصدق تعبير ، إن تألم ففى شعره ترديد لألمه وتحليل له وعزاء لنفسه ، وإن سر ففى شعره استجابة لسروره مضاعفة له ، وإن جبن ففى شعره القضاء على جبنه وتعييره بالإحجام ودعوته إلى الإقدام وهكذا .

ثم ليس أمير الشعراء يعبر عن ذلك كله كما يعبر سائر الناس ولا سائر الشعراء ، بل يعبر التعبير كأنما يأتيه من السماء ، ويشعر السامع أو القارئ كأن هذا التعبير هو الذى كان يتلمسه فلا يجده ، وكأن الفراغ الذى لم يكن أحد يملؤه بالضبط قد ملأه وكأنه بلغ من الجودة ما ليس لأحد بعده قول .

كذلك كان المتنبى يعبر عن كل نفس فى كل موقف أصدق تعبير وأقواه وأجمله ، حتى لم يتمثل بشعر أحد منذ وجد المتنبى ما يتمثل بشعره ، فى الشجاعة ،

فى الحزن ، فى السرور ، فى مصائب العالم ، فى طبيعته ، فى آلام العرب ، فى آمالهم ، إلى ما لا يحصى .

كذلك كان شوقى ، مكنه تاريخ حياته من أن يرى أفلام الحياة على اختلاف أنواعها ، رأى فلم الحياة المصرية فى أسرته وفى مدرسته وفى الشوارع وفى الأحياء الوطنية والأحياء الأرستقراطية ، ورأى فلم القصر ، وهو فلم عجيب كيف يتصل الشعب بالقصر فى أعيانه وموظفيه وأغنيائه وفقرائه وسياسييه وممثليه ، ورأى فلم أوربا وخاصة فرنسا و باريس وتموج الحياة فيها ، ورأى فلم المنفى فى أسبانيا وعذابه ، ورأى فلم القصر وقد أعرض عنه فاتصل بالناس والجماهير والأدباء يذمونه ويمدحونه و يعجبون به و ينتقدونه .

فلما اطلع على كل ذلك وصادفت منه هذه الأفلام قدرة بارعة على الصياغة والفن والإخراج خرج على الناس بشعره رائعاً يعبر عن مجالى الحياة فى شتى أنواعها فشغل الناس وملأ قلوبهم .

لقد كان للناس فى عصره نزعات تشغل بالهم فأرواها كلها بخير ما يقال ، كان المصريون يتعطشون إلى التغنى بمجدهم القديم وأملهم فى المستقبل ، فقدم إليهم تاريخهم من عهد الفراعنة إلى العصر الحديث فى قصيدته الرائعة :

همت الفلك واحتواها المـــاء　　　وحواها بمن تقل الرجاء

مشبها متأسفا فخوراً ناعيا ، مستفزا حافزا ، وكذلك شأنه فى قصيدة :

قف ناج أهرام الجلال وناد　　　هل من بناتك مجلس أو ناد

وقصيدة :

أبا الهول طال عليك العصر　　　وبلغت فى الأرض أقصى العمر

وقصيدة :

قفى يا أخت « يوشع » خبرينا　　　أحاديث القرون الغابرينا

ولا تأتى حادثة تهيج لها عواطف المصريين نحو استقلالهم إلا غذاها وعبر عنها وتجاوب معها ، كمشروع ملنر وتصريح ٢٨ فبراير ووداع اللورد كرومر وذكرى دنشواى ، ورثاء عظماء النهضة أمثال محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد وقاسم أمين وعبده الحامولى والشيخ سلامة حجازى الخ الخ .

وهناك بجانب النزعة القومية المصرية — كانت النزعة إلى العروبة ، وكانت فى مستهل عهدها ، فغذاها أحسن غذاء بما قدم لها فى المناسبات ، فإذا نكبت بيروت بضرب الأسطول الإنجليزى لها قال قصيدته :

يا رب أمرك فى الممالك نافذ　　　والحكم حكمك فى الدم المسفوك

يقول فيها :

لك فى ربى النيل المبارك جيرة　　　لو يقدرون بدمعهم غسلوك

و إذا نكبت دمشق بضرب الفرنسيين لها قال قصيدته التى يتغنى فيها :

سلام من صبا بردى أرق　　　ودمع لا يكفكف يا دمشق

يقول فيها :

نصحت ونحن مختلفون دارا　　　ولكن كلنا فى الهم شرق

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد　　　بيان غير مختلف ونطق

وقفتم بين موت أو حياة　　　فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا

وللأوطان فى دم كل حر　　　يد سلفت ودين مستحق

وتقيم سوريا ذكرى استقلالها فيقول قصيدته :

حياة ما نريد لهـــا زيالا   ودنيـــا لا نود لها انتقالا

الخ ... الخ .

ثم كانت نزعة إسلامية تدعو إلى الارتباط بالخلافة والأتراك ، فأفاض فى الشعر فيها إلهاب العواطف نحوها ، فقال فيها أكثر من عشرين قصيدة من أروع قصائده .

وكما كان لسان الناس فى هذه النزعات كان لسانهم فى كل ما يعرض لهم من شؤون اجتماعية ، فى العلم والتعليم ، فى الحجاب والسفور ، فى انتحار الطلبة ، فى بنك مصر ، فى نشأة الطيران ، فى تأسيس الجامعة ، حتى فى كوليرا سنة ١٩٠٢ قال فيها ما لم يقله أحد حتى سنة ١٩٤٧ فيقول :

لهفى على مهج غوال غالها   خافى الدبيب محجب الأظفار

خمسون ألفا فى المدائن صادهم   شرك الردى فى ليلة ونهار

وهكذا كلما يجد من أمر حتى يتلفت الناس إلى شوقى ينتظرون ما يقول .

وحسبك دليلا على أنه كان ملجأ الناس ومفزعهم أنهم حتى بعد موته لم يجدوا فى مواقفهم الحرجة ومواقفهم البهيجة غير شعره يتغنون به ويرتوون منه فإذا التهبت عاطفتهم الحماسية وطلبوا نجدتها بالشعر لم يجدوا إلا أمثال قصيدته الرائعة :

سلوا قلبى غداة ســلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا

* * *

وإذا تفرق الزعماء ونكبت البلاد بفرقتهم فلم يجدوا خيراً من أن يتغنوا بقوله :

إلام الخلف بينكم إلاما وهذى الضجة الكبرى علاما

* * *

وفى مجال الفرح والسرور لم يجدوا خيراً من أغانيه : يا جارة الوادى — وأو بريت مجنون ليلى وأمثالها .

لهذا كله ولهذا المعنى الذى ذكرت من أنه شغل الناس وملأ حياتهم بأجمل فن وأروع تعبير استحق أن يكون أمير الشعراء من غير منازع .

قد يقول شاعر فى هذه الموضوعات كلها وأمثالها الشىء الكثير ، ولكن لا يكون له فضله ولا تكون له روعته ، وإذا تلهف الناس فإنما يتلهفون إلى شوقى وشعره لأنه أكثر تجاوبا مع نفوسهم وألطف تناغما مع عواطفهم .

هذه ناحية واحدة من نواحى عظمة الشاعر التى لا بد منها لإمارة الشعر ، وقد كانت فى شوقى متوفرة واضحة جلية .

رحم الله شوقى وعوض العالم العربى عنه أحسن تعويض .

بطـــولة الفاروق

تتمثل فى أخلاقه وعقليته

لعمر بن الخطاب نوعان من البطولة كان كل واحد منهما يكفى ليكون بطلا عظيما ، وفى التاريخ أمثلة كثيرة من الأبطال كانت بطولتهم من ناحية واحدة ، أما بقية نواحيهم فعادية أو أقل من العادية .

فى الناس مَن بطولته من ناحية عقله ، فهو يرى أبعد مما يرى الناس ، ثم هو فى غير هذه الناحية كسائر الناس . وفيهم مَن بطولته من ناحية شجاعته ، فإذا جاوزت الشجاعة وجدته كأوساط الناس أو أقل من أوساطهم . وفيهم مَن بطولته من ناحية مهارته السياسية ثم هو لا شيء بعد ذلك .

ولـكن عمر كان بطلا فى أخلاقه وليس فى خلق واحد منها ، وكان بطلا فى عقليته وليس فى ناحية واحدة منها أيضاً .

أما ناحية الأخلاق فـكان رجلا بكل ما تحتمله كلمة الرجل من المعانى ، كان رجلا فى كفره ورجلا فى إسلامه ، لا يميل إلى الدنية ولا ينظر إلى الصغائر . كان كافراً فـكان الـكفر يعتز به ، ثم كان مسلماً فـكان الإسلام يعتز به ، وكان رسول الله فى أول دعوته يقول : «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام » فاستجيب دعاؤه فى عمر ، فلما أسلم رن إسلامه فى الأوساط الوثنية وأحدث حسرة وأسفاً وانخذالاً ، ورن فى الأوساط الإسلامية فأحدث فرحاً وسروراً واغتباطاً ، لأن كفر عمر وإسلامه ليس كسائر الناس ، ففى الناس من إذا وضع فى كفة أو فى أخرى لم تتأثر الأولى ولا الثانية ، وفيهم من إذا وضع فى كفة رجحت ورجحت حتى النهاية ، ومنهم عمر . ومن أجل ذلك

قال ابن عباس : « لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم منا » وأنزل الله : « يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

أسلم عمر فغير حياة المسلمين الاجتماعية ، كانوا لا يجرءون على الجهر بشعائر دينهم فجهروا بها منذ أسلم عمر ، وكانوا يتسترون فى الدعوة فأعلنوها ، وخرج المسلمون على أعين المشركين فى صفين ، فى أحدهما حمزة وفى الآخر عمر حتى دخلوا المسجد . فلو أن آلافاً من عامة الناس أسلموا ما عدلوا عمر . وصدق ابن مسعود إذ يقول : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » .

كان الحق متقنعاً فأبى عمر لما أسلم إلا أن ينبلج ، وكانت الدعوة إلى الإسلام من وراء حجاب فأبى عمر إلا أن تكون علانية ، وعلى سمع الناس و بصرهم ، فكان ما أراد .

وهكذا كان بطلا فى صراحته ، بطلا فى شجاعته ، حمل نفسه على كفه دفاعاً عن عقيدته فلم يخش بأساً ولم يخش قتلا ، وصمم أن يموت أو تعلو كلمة الإسلام ، فكانت الثانية .

هاجر الصحابة مستخفين من أذى قريش واضطهادهم ، أما عمر فلما أراد أن يهاجر إلى المدينة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً ومضى نحو الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم طاف على جماعات قريش واحدة واحدة يعلمهم بهجرته ، ثم قال : « من أراد أن تثكله أمه و ييتم ولده و يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » فما تبعه أحد منهم .

لم تكن المسألة مسألة قوة فى بدنه واستكمال لآلات قتاله ، فقد كان فى قريش من هو أعلم منه بالقتال ، وأشد منه فى النضال ، ولكن نفس عمر كانت دونها كل نفس من هؤلاء المحيطين بفناء الكعبة ، وكانت هذه النفس القوية الكبيرة

تشع رهبة ، وتبعث إجلالا ، حتى تستخذى أمامها النفوس . كذلك كانت نفسه فى جاهليته ، ثم زادت قوة فى إسلامه «والناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » .

ثم تتجلى بطولة عمر الأخلاقية فى العدل التام أيام خلافته .

لقد كان يتصور العدل تصوراً دقيقاً بديعاً ، ثم منح من الإرادة القوية ما استطاع به أن ينفذ هذا العدل الذى يتصوره فى دقة وقوة وحزم قل أن يكون لها نظير .

طبق العدل فى كل شىء ، ومع الجميع ، إلا مع نفسه وأهله ، فقد تحامل عليهم ، وحرمهم حتى مما أحله الله ، وضحى بنفسه وبهم ليرد طمع العمال والولاة ، ويقيم سيرته مثلا لمحاربة الأنانية وتضحية الشهوات والملذات فى سبيل الله والمصلحة العامة .

يعدل مع العمال فى كل صغيرة وكبيرة ، ولا يرحم من تبدر منه بادرة أو يزل زلة ، وينصف الرعية من العمال ويبعث المفتشين يستقصون أخبار الرعية وأخبار العمال .

ويعدل فى أهل الذمة من يهود ونصارى فيوصى العمال والرعية بهم خيرا .

ويعدل مع الجنود فيوفر عليهم رزقهم ولا يطيل مدة غربتهم .

وهكذا يقدر المسئولية تقديراً فى منتهى الدقة ، ويخشى أن يقع ظلم ما على امرأة نائية فى أقصى الأرض فيحاسبه الله عليها ، يضاف إلى ذلك ما منح من فراسة صادقة فى اختيار الولاة والعمال ، ينظر النظرة فى وجه الرجل فإذا هو كأنه صحيفة مكتوبة يقرأ فيها كل ما يخفيه الرجل فى نفسه — يعرف مواضع القوة فى رجاله ومواضع الضعف فيهم ، ثم يعرف كيف يستغل ضعف هذا وقوة ذاك فى خير الناس .

صراحة فى القول والعمل إلى أقصى حد ، وشجاعة تستهين بالموت فى سبيل العقيدة ، وعدل دقيق فى كل أمر ، ومهابة تملأ صدر كل من رآه أو سمع به ، وفراسة صادقة تخترق الحجب لترى ما وراءها ، وسهر على مصالح الرعية ، وعظم تقدير ما عليه من مسئولية — كل هذه بعض خصال عمر التى تكونت منها بطولته وجعلته موضع الإعجاب على اختلاف الأجيال ، ممن كان من أهل دينه وممن خالفه فى دينه .

* * *

وليست تقل بطولته العقلية عن بطولته الخلقية ، فما نشأة عمر هذا ؟ لقد كان فى صباه يرعى غنم أبيه أحياناً ويحتطب أحياناً ، فلما شب كان يتاجر فى ماله القليل ، ولكنه مع هذا منح عقلية فى منتهى الغرابة فى الصفاء و بعد النظر و إدراك الحقائق : تجلى هذا فى أول إسلامه فكان رأيه موفقاً ، وكثيراً ما يرى الرأى فينزل فيه القرآن موافقاً له ، حتى بلغ هذا أكثر من عشرين موقفاً . من ذلك رأيه فى الخمر وتحريمها ، وقد روى فى هذا الباب أن رسول الله قال : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (أى ملهمون) فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر » .

أغرب من هذا كله أن هذا الراعى الصغير والتاجر الصغير ومن لم يجلس فى حياته فى مدرسة ولم يتعلم درساً فى الجغرافيا والاقتصاد والسياسة والحرب ينظم الجيوش لفتح أعظم مملكتين فى العالم وهما فارس والروم ، و يعرف مواقع البلاد ومن أين تؤتى ، ويبعث بالأوامر تلو الأوامر للقواد كيف يقاتلون وأين يتوجهون ، ويرسم لهم الخطط كيف ينتصرون ، حتى يتم له القضاء على هاتين المملكتين العظيمتين .

وكان يكون الأمر سهلا لو كانت المسألة مسألة فتح وغزو كما تفعل الأمم

المتبربرة فى غزو الأمم المتحضرة ، ولكن ليس الأمر كذلك فهو فتح منظم وإدارة للأمم المفتوحة ، وحكم لهم بأساليب خير مما كانوا يحكمون . هذه العقلية الجبارة العجيبة هى التى نظمت الدواوين فى بلاد فارس والروم ، ووضعت نظم زرع الأرض وريها وخراجها ، ووضعت التعاليم التى تنظم علاقة الفاتح بالمفتوح ، حتى كانت تعاليم عمر فى الجهاد وفى الفتح وفى الخراج وفى نظام الكنائس والأديرة وفى معاملة أهل الذمة هى المصدر الذى يعتمد عليه الخلفاء والفقهاء والقضاة فى شئون الدولة على مر العصور .

هذا العقل الذى يعلم فارس والروم نظام الحياة الاجتماعية وهم هم أبناء المدارس النظامية ، والنظريات القانونية ، والتعاليم الحربية ، والمبادئ الاقتصادية ، هو ولا شك عقل جبار خارق للعادة ، خارج عن مألوف ما نرى ونسمع فى تاريخ الأمم .

تدفقت الأموال على جزيرة العرب فعرف كيف يضبطها وينظمها ويوزعها فى مصالح المسلمين وأنشأ لذلك الدواوين .

وفتحت الفتوح الواسعة فعرف كيف يقسمها إلى إمارات حربية وإمارات سياسية وكيف يوزع الاختصاص حتى لا تتعارض المصالح .

ويسافر إلى الشام فيرتب الجند التى تغزو فى الصيف والتى تغزو فى الشتاء ، وينظم المصالح ويأمر بإقامة الحصون وترتيب المقاتلة .

ويرتب البريد حتى تصل إليه الأخبار عن البلاد النائية فى أسرع ما يمكن ويمصر البلدان كما فعل فى البصرة والكوفة ، ويستفتى فى كل ما يعرض من مشاكل الفتح الحربية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية فيأمر فيها بالرأى الصادق والنظر البعيد .

يضاف إلى ذلك معرفة دقيقة بطبيعة الأمة الفاتحة وأخلاقها ، وما يصلح لها

وما لا يصلح ، والأمم المفتوحة وكيف تساس على اختلاف نزعاتها وعقلياتها .

* * *

إن أخلاقاً كالتى وصفنا ، وعقلية تتسع لكل ما عددنا ، تبتكر فى النظم وتعدل — مع نشأتها البدوية — مناهج السياسة الفارسية والرومية وترقيها إلى مستوى أعلى كثيراً مما كانت عليه ، لهى جديرة حقاً بكل إعجاب ، وخليقة أن تذكر فى أوائل سجل الأبطال ، على مر الأجيال .

محمد عاطف بركات

١٨٦١ — ١٩٢٤

من الأقوال المأثورة أن كل إنسان إما أن يكون أفلاطون أو أرسطو ، يعنون بذلك أنه إن غلب عقله عواطفه كانت نزعته أرسططالية ، وإن غلبت مشاعره عقله فنزعته أفلاطونية .

ونستطيع قياساً على هذا — أن نقول : إن كل متصدٍّ للإصلاح وقيادة أمور الناس إما أن يكون عليًّا أو معاوية ، فإن غلب عليه تحريه للعدل المطلق فى كل صغيرة وكبيرة وعدم رضاه عن أى ظلم مهما كانت نتيجته فهو أقرب إلى نزعة علىّ ، فعنده أن الخط إما أن يكون مستقيما أو أعوج ولا شيء بينهما ، ويجب على السير فى الخط المستقيم دائما من غير نظر إلى العواقب . أما معاوية فشيء آخر ، يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو يعلن عن سياسته بقوله : « إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض فى كثير من الباطل » فمن سار على هذا النهج وارتكب الظلم أحيانا بغية الوصول إلى نفع كبير فهو أميل إلى خطة معاوية .

والسياسيون — عادة — من قبيل معاوية ، ينحرفون عن الحق أحيانا بحجة أنهم يقصدون إلى منفعة كبرى ، وينظرون إلى المسائل السياسية نظرة البائع والمشترى يدفع الثمن ظنا فى الربح ، فهم يضحون بالحق أحيانا أملا فى تحقيق حق أكبر ، وقد يخدعون بذلك أنفسهم .

وقادة مصر وساستها كغيرهم من القادة والساسة أكثرهم من هذا القبيل . لأنهم رأوا أن السياسى والقائد لا بد أن يأخذ ويعطى ويتنازل عن شيء ليستمسك

بشيء ، وإلا كان كالشجرة الصلبة أمام الريح العاصفة لا بد أن تنكسر لأنها لم تلن .

وهذا لم يمنع أن يهب الله مصر كما يهب العالم رجالاً صلب عودهم واشتد خلقهم فوهبوا أنفسهم للحق لا شيء غير الحق .

كان من هذا القبيل في عصرنا الحديث « حسن (باشا) عاصم » . كان رئيساً للديوان الخديوى ، وطلب الخديو عباس من الأوقاف أن تعطيه تفتيشاً من تفاتيشها فى الجيزة من الأراضى المعدة للبناء فى نظير أن يعطيها مزرعة من مزارع الخاصة الخديوية وأن تعطيه الأوقاف ثلاثين ألف جنيه فرق بدل ، وعرض الأمر على المجلس الأعلى للأوقاف ، فوقف فى ذلك حسن (باشا) عاصم ومعه الشيخ محمد عبده وعينا لجنة تقدير رأت الغبن فى ذلك على الأوقاف وأن الخاصة الخديوية إذا أرادت البدل وجب عليها أن تدفع عشرين ألفاً ، لا أن تأخذ ثلاثين ألفاً . فغضب عليه الخديو وأحاله على المعاش .

وكان من أغرب تمسك حسن عاصم بالمبدأ والعدل المطلق : أن تبرع غنى من أغنياء المحلة الكبرى للجمعية الخيرية الإسلامية بإنشاء مدرسة وقف عليها أطياناً ، فلما تم فتح المدرسة قدم هذا الغنى طلباً لابنه لدخول المدرسة ، وكان يتجاوز السن المحددة بأشهر فرفض حسن عاصم قبوله ، وكان إذ ذاك مدير مدارس الجمعية ، وقال : إن هذا الغنى تبرع بالمدرسة فنشكره ، وأراد أن يكسر قوانيننا فلا نقبل ذلك منه . وترتب على ذلك أزمة بينه وبين الشيخ محمد عبده وحسن (باشا) عبد الرازق وغيرهما من كبار رجال الجمعية ، ولكنه أصر على رأيه وأخيراً اضطروا إلى موافقته .

وجاء عاطف بركات يمثل هذا الطراز ، ويتخذ من حسن عاصم أستاذاً ، إذ كان يعاشره ويعجب به ، كما كان يتخذ من « كنت » مثله الأعلى ، وكثيراً

ما كان يحدثنا عنه ويستثير إعجابنا به فى دقته ونظامه فى حياته ، وأنه كان إذا خرج من بيته ضبط الناس ساعاتهم على موعد خروجه وهكذا .

هذه أكبر ميزة لشخصيته : حبه للنظام الدقيق ، وتحريه للعدل المطلق ، والتمسك به مهما جلب عليه من متاعب .

تولى نظارة مدرسة القضاء الشرعى وظل فيها أربعة عشر عاماً ، فأشع فيها روحه ، وكان طلبتها وأساتذتها وزائروها يلمسون العدل ودقة النظام ، ويتنفسون كل ذلك من جوها ، فالمدرسة سائرة كالساعة ، كل عضو يعرف عمله ويؤديه فى وقته . وهم يرونه دائباً لا يملّ ، فيخجلهم بجده ونشاطه فيقلدونه فى سيرته . فإذا جد الجد تجلى عدله فى أكبر مظاهره . أراد الخديو عباس أن يعطى أحد المدرسين بالمدرسة درجة مالية أعلى من درجته . وأوفد إلى أعضاء مجلس إدارة المدرسة بذلك ، فكلهم قبل نزولا على إرادة الخديو ورغبة فى المسالمة ، ولكن « عاطفاً » رأى أن غير هذا الأستاذ أحق منه ، وأن فى إعطائه ظلماً على الآخرين ، فأبى وأصر على الإباء ، ووضع نفسه والمدرسة فى أزمة مع ناظر المعارف ومع السراى ، فلم يعبأ بهذا كله .

ومثل الدور نفسه مع سعد (باشا) زغلول ، إذ كان « عاطف » وكيل وزارة المعارف ، ولسعد زعيم الأمة كل السيطرة على شئون البلاد ومصالح الحكومة ، فطلب سعد منه أن يقبل ابن حمد (باشا) الباسل فى مدرسة ثانوية ، وكانت سنه تتجاوز السن القانونية بأشهر ، فأبى « عاطف » وقال : إما أن نغير القانون ونقبله ونقبل كل أمثاله ، وإما أن نرفض الجميع . وغضب سعد من ذلك أشد الغضب فلم يبال بذلك .

لا فرق عنده فى تحقيق العدالة بين قريبه وغير قريبه ومن يعرفه ومن لا يعرفه ، بل ولا بين من يحبه ومن يكرهه . أمام عينيه قوانين العدالة وكفى ، وهو ليس إلا قاضياً يطبقها معصوب العينين عن كل اعتبار وكل عصبية . ومثل

هذا الرجل — وخاصة فى مثل أممنا التى اعتادت الإفراط فى المجاملة والمحسوبية — لا يكون محبوباً إلا من تلاميذه وخاصته ، ولكنه يكون محترماً من الجميع . وكذلك كان ، فكم رجى فرفض الرجاء ، وكم طلب إليه أن يغض طرفه عن القانون فأبى إلا القانون ، وكم نصح أن يرعى الكبراء وخاصة فى المسائل الصغيرة لتجاب مطالبه فى المسائل الكبيرة ، فلم يستسغ عقله هذه المساومة . فكان كل هذا مدعاة لمحاربته وكثرة اصطدامه .

لقد كان من ذلك حادثة طريفة : وهى أن ناظر المعارف كان أحمد حشمت (باشا) وقد اقترح على مدرسة القضاء أن تعين فلاناً مدرس خط ، وكان فلان هذا من أحسن الناس خطاً وأحسنهم خلقاً ، ولكن « عاطفاً » أبى لأن قانون المدرسة يجعل اقتراح التعيين من حق مجلس إدارة المدرسة ، وليس لناظر المعارف حق إلا القبول أو الرفض ، لا حق الترشيح ابتداء . وكانت أزمة طويلة ، و « عاطف » يرى الحق بجانبه وناظر المعارف يرى أنه مُسَّ فى كرامته ، ولقيت المدرسة من ذلك عنتاً واضطهاداً صبر له « عاطف » ، وأخيراً نزل ناظر المعارف عن رأيه وأقر من رشحته المدرسة لا من رشحه هو . وهكذا كانت حياته كلها صراعاً ، فما استمسك أحد بالحق إلا أوذى ، ولكنه فى الوقت عينه أجل وأكبر .

وناحية أخرى كانت ترتكز عليها عظمته : ذلك أنه لم يكن واسع الاطلاع ولا بحّاثة فى الكتب ولا عاكفاً على البحوث العلمية والأدبية ، وإنما يقرأ ما يقرأ فى رفق وهوادة ، ولكنه — مع ذلك — نظيف العقل ، لا يقبل عقله الفكرة إلا إذا كانت واضحة ولا يعبر عنها إلا إذا كانت ناضجة محددة ، وهو — إلى ذلك — حر التفكير ، لا يعبأ بالآراء الموروثة ولا بالتقاليد المرعية فى الأفكار ، ثم هو طويل النفس فى الجدل ، قوى الحجة فى المناظرة ، لا يمل ولا يتعب ، حتى قد يسلم له مجادله لا عن اقتناع ولكن حباً فى الراحة وطلباً للسلامة .

ولوثوقه من نفسه فى ذلك وحبه فى نشر أفكاره اتخذ طريقة « سقراط » فى تعليمه ، فكان ينتهز كل فرصة لإثارة الموضوعات التى تنبعث من الظروف الحاضرة ، فى حجرة المدرسين ، فى مطعم الطلبة ، فى حلقاتهم ، فى الفسح ، فيثير مسألة من المسائل ويبرهن عليها ، ويتلقى الرد عليها من المدرسين أو الطلبة ، وتكون المسألة حديث المدرسة فى الفصول وأوقات الفسح ، وقد تستمر أياماً والعقول متيقظة باحثة فاحصة ، فإذا انتهت أثير غيرها ، وهكذا . فكان هذا مثار نشاط ذهنى عجيب ومدعاة لتحرير الأفكار ، وتعويداً على الاستقلال فى التفكير وعدم الخضوع للتقاليد . هذا فى المجادلة العامة فى المدرسة وحجر المدرسين والفصول ، وكان له مع خاصته وفى بيته جدل فى المسائل الدقيقة ، سياسية كانت أو دينية ، يتحرر فيها العقل من كل القيود إلا قيود الحجج والبراهين .

كانت أخلاقه هذه الصارمة القوية صالحة كل الصلاحية لإصلاح مدرسة عالية ، ولذلك نجح فيها كل النجاح ، وخلق جواً من العدل والنظام وحرية التفكير يستنشق منه كل أستاذ وكل طالب على حسب استعداد رئته ، وطبع كل من فى المدرسة بطابع بيّن الأثر ، وكانت لهم فى حياتهم العامة بعد روح مستمدة من روحه ، وأخلاق هى صدى لأخلاقه .

فلما تقلد منصب وكالة المعارف اصطدم اصطداماً عنيفاً بالرجاوات والدرجات والعلاوات ، ولم تتحمل ميوعة الناس صلابته ، ولا عذوبة مجاملاتهم مرارته ، فلم ينجح فيها نجاحه فى مدرسته .

ولما انغمس فى السياسة العامة للبلد ، وبالحركات السياسية مع سعد وصحبه ، لم تسعفه أخلاقه ، لأن ألف باء السياسة المصانعة والمجاملة والمهارة فى المساومة ، وهو لا يحسن شيئاً من ذلك . ولذلك كله كان نجاح أخيه فتح الله (باشا) بركات فى هذا الباب أكثر من نجاحه هو . وكل ميسر لما خلق له .

الإسلام كعامل فى المدنية (*)

لعل أهم تراث الإسلام وأثره فى المدنية أمران : الأول ، العقيدة الإسلامية ، لأنى أرى أن كل ما نشأ عن الإسلام من فتح وعلم و إدارة وفن وغيرها أثر من آثارها ، فالعربى قبيل الإسلام كان هو العربى بعينه ، فى جسمه وجوهر عقله ومعدنه ، ولم يجعله يتجه إلى الفتح و يرى نفسه جديراً بأن يقف فى المستوى الذى تقف فيه أرقى الأمم فى عصره — وهما الفرس والروم — بل يرى نفسه أرقى منهما ، وأجدر بأن يحكمهما و يوجههما وجهة خيراً من وجهتهما و يدخل التعديل على مدنيتهما — إلا عقيدته ، فهى — وحدها — الشىء الجديد فى حياة العربى المسلم .

لم يأت الإسلام فى أول دعوته بنظريات هندسية ، ولم يخترع آلات حربية ، ولا فنوناً جديدة ، ولا نوعاً من الإدارة جديداً ، لأن هذه كلها أمور ثانوية بجانب العقيدة ، فالعقيدة إذا صلحت أصلحت كل فاسد ، ونشأ عنها كل أسباب التقدم ولو كان صاحبها فقيراً جاهلا ، حتى ولو كان فى بلد جدب وأرض قفر ، ولو لم ينشأ فى مدنية ولو لم يرث حضارة . والعقيدة إذا فسدت أضاعت الثروة الموروثة ولم ينفع معها علم ولم يفد غنى ، كلا ولا تنفع أرض خصبة ولا مدنية فخمة ، ففيلة الفرس لم تثبت أمام بعير البدوى ، ولا الدروع المضاعفة الرومانية استطاعت أن تصمد أمام نبال العربى وقوسه الساذجة ، لأن بعير البدوى كان يحمل على ظهره قلباً مؤمناً ، وفيل الفارسى كان يحمل فؤاداً هواء ، والقوس العربية كانت تصدر عن عقيدة صحيحة قوية ملتهبة ، ودروع الرومانى كانت تتضمن قلباً

(*) محاضرة ألقيت فى جمعية الشبان المسيحيين ببيت المقدس سنة ١٩٣٦ .

لا عقيدة فيه ، كل همه شهوة ينالها ومتاع زائل يأمل أن يلتذ به ، فإن فقد العربي حياته في القتال فلا بأس فإنما يعجل ذلك قربه من الله ، وإذا فقد الفارسي أو الروماني نفسه فيالها من خسارة ، فقد حرم الخمر وحرم النساء وحرم متع الحياة ، فإذا قاتل العربي قدم حياته فحفظت حياته ، وإذا قاتل الآخر قدم عدده وادخر حياته فخسر عدده وحياته . لم يتغير شيء في حياة العربي عند ظهور الإسلام إلا عقيدته ، وكل شيء تغير غيرها فبسببها ، وقد كنت أود أن أقتصر على الكلام فيها لولا أن هناك ناحية أخرى تهمنا كأثر قوي في بناء المدنية وهي « أثر الثقافة الإسلامية في المدنية » ، فهي من جهة أكبر أثر للعقيدة ، ومن جهة أخرى أقوى مركز ترتكز عليه المدنية . لهذا سنحصر قولنا في هاتين الناحيتين وفيهما الغناء .

أولا — العقيدة الإسلامية

كان العرب في جاهليتهم يعبدون الأصنام ، وقد اتخذت كل قبيلة إلهاً من صنم أو وثن ، وقدمت إليه القرابين وجعلته الآمر الناهي ، وهو طور تكاد تكون الأمم كلها قد مرت عليه وإن اختلفت أسماء أصنامها باختلاف بيئاتها ، ذلك لأن في طبيعة الناس الإيمان بقوة فوق قوتهم تدفع عنهم الشر وتجلب لهم الخير ، وتحيي وتميت ، وتخلق وتفني ، وإذا كان العقل قاصراً ركز هذه القوة في شيء من المادة خلع عليه هذه الصفات . فأحياناً يكون صنما ، وأحياناً يكون الشمس والنجوم ، وأحياناً يكون شجراً ، وأحياناً يكون حيواناً ، وأحياناً يكون نهراً أو بحراً ، فكل هذه الكوائن عبدت عند الأمم المختلفة ، لأنها أحست أن في أعماق نفسها عقيدة بقوة فوق قواها . تساوت الأمم في هذا ، ولكنها اختلفت في الشكل الذي تجسد فيه هذه القوة فتعبده ، بحسب قوتها العقلية والخيالية ومواضعها الجغرافية وبيئتها الاجتماعية .

وكانت هذه هى الحالة الساذجة للعبادة عند الأمم ، يعترفون بإله أو آلهة ، ويشكلونها فى شىء محسوس يقدمون لها صنوف التعظيم والتمجيد — فكرة حق ولكنها اتخذت مظاهر خرافية كالطفلة فى غريزتها الأمومة ، وفى طبيعتها الإشراف على تنظيم الحياة البيتية . فهى تتخذ لها لعباً من عرائس تجعلها أبناءها وبناتها وتمنحها عطفها ، وتنفذ عليها أوامرها إجابة لداعى الغريزة الكامنة وإرهاصاً لما يكون منها بعد نموها .

وأحياناً يحاول أن يتخلص من المادة فيعبد أرواحا جنا أو ملائكة أو نحو ذلك ، ولكن سرعان ما ينتكس ثانية فيسبغ عليها أوصاف المادة فيجعلها ذكوراً وإناثاً ، ويجعل لها أجنحة تطير بها ، ويجعل لها قروناً وذيولا لأنه لم يرق حتى يستطيع أن يتحرر من عبادة المادة بتاتاً .

كذلك كان العرب بل كان أكثرهم فى حالة منحطة من عبادة المادة ، يعبدون الحجر لا النجوم ولا الأرواح ، ويأتمرون بأمرها فى زعمهم فى إقامة ورحيل ، وإقدام وإحجام ، وزواج وطلاق .

وعبادة الأصنام كائنة ما كانت — تشل حركة العقل ، وتضعف قوة النفس وتحط الحياة الاجتماعية ، وتجعلها حياة خرافية وضيعة . مثل هذه العقيدة تعوق العلم ، لأن العلم لا يلائمها ، وتعوق التفكير الصحيح لأنه ليس من طبيعتها ، وتعوق التقدم الاجتماعى لأنه أساس إطلاق الفكر من قيوده ، والفكر مشلول بعبادة الأصنام .

ومن أجل هذا كان أهم ما أتت به سلسلة الأنبياء محاربة هذه العقيدة ، وتخليص الفكر من قيوده التى قيدته بها العقيدة ، فى الحجر والشجر ، والنجوم والبحار والأنهار ، وكان نجاحهم فى أول الأمر قليلا قليلا ، لأنه لم يكن يقوى على احتمال تجريد الإله عن المادة إلا القليل من الناس . وحتى فى العصور الحديثة

لا تزال النزعة إلى مادية الإله تتسرب فى أشكال مختلفة ، مع رقى العقل البشرى ونموه ونضوجه .

وقد بدأت هـذه الدعوة إلى التجديد فى الأمم السامية من عهد إبراهيم ، واستمرت بين الظهور والخفاء ، وكلما تقدم الناس كانوا أكثر لها استعداداً وأقرب قبولا ، حتى أتى محمد صلى الله عليه وسلم فدعا دعوته الجريئة الصريحة إلى كسر الأصنام وتحطيم الأوثان وتخليص العقيدة من كل شرك ، وتجريد الله عن كل مادية ، وكان شعار عقيدته « لا إله إلا الله » ومدار عقيدته « ليس كمثله شىء » ، فالأصنام ليست تصلح لشىء إلا للمعاول ، والنجوم هو الذى خلقها ونظم حركاتها ، والبحار والأنهار هو الذى خلقها وأجرى ماءها ، والملائـكة هو الذى خلقهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، لا شىء يشاركه فى ألوهيته من مادة أو روح — هو حقيقة واضحة معقولة لا فى شكل — غيبت عن العقول حقيقته ، وظهرت لهم صفاته ، فهو الخالق لـكل هذه الظواهر ، وهو الذى يسيرها ، وهو غرضها الأسمى ، هو وحدة لا تعدد فيها بأى حال — تنزه عن المـادة وتنزه عن الشريك .

سلك القرآن فى الدعوة إلى الإيمان مسلـكا خاصاً ، فبعد أن أبان للإنسان أن الله خالق كل شىء ، وأنه رب العالمين ، طلب إليه أن ينظر إلى كل شىء فى العالم من صغير وكبير ، فسيرى فيه مظهراً من مظاهر الألوهية ، ودليلا على عظمة الله وقدرته . لم ينهج القرآن منهج الفلاسفة فى دوران العقل حول نفسه ليستخرج منها نظريات مجردة ، ومقدمات ونتائج منطقية ، إنما طلب أن تمتزج النفس بالعالم ، وأن ينفذ العقل إلى رب العالم عن طريق العالم ، لأن هذه الطريقة أكثر إحياء للشعور ، ومبعثاً لحياة القلوب ، والإيمان ليس يعتمد على العقل وحده ، بل هو يعتمد على القلب أكثر من اعتماده على العقل . ومن أجل هـذا طلب

القرآن النظر إلى كل شيء في العالم من الذباب والنحل والعنكبوت ، إلى الفيل والجمل ، إلى البحر والنهر ، إلى السماء والأرض ، إلى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، إلى الشمس والقمر ، إلى الليل والنهار . والقرآن مملوء بالآيات التي تصل الإنسان بالعالم وتصل العالم بالقلب ، وتبعث حرارة الإيمان بالله ، وتملأ القلب حياة وحماسة . وهذا هو الذي ملأ صدر الصدر الأول من المسلمين بالعقيدة ، وجعلهم يبيعون أنفسهم في سبيل الله عن سخاء ، وهـذا بعينه هو الذي شجع المسلمين على البحث العلمي ، فقد اتجهوا إلى العالم يستدلون به على خالقه فدفعهم ذلك إلى العالم يتعرفون طبيعته وقوانينه ، وهذا هو العلم . لم يتطلب إليهم الإسلام أن يعيشوا في صوامع يديرون طاحونة العقل على هواه ، بل طلب إليهم أن يتصلوا بالعالم يدرسونه وينظرون فيه خالقه وخالقهم ، فكان ذلك داعية للعلم والمدنية معاً . لم يتطلب الإسلام من صاحبه أن يعيش عيشة روحية مطلقة مجردة عن المادة ، بل طلب إليه أن يمزج الحياة الروحية بالحياة المادية ، وأن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، وأن يتزوج ويصلي ، وأن ينعم بالحياة فلا يحرم على نفسه زينة الدنيا وطيبات الرزق ، كما ينعم بالنظر وبالتفكير في ملكوت الله ، وبعبارة أخرى لم يتطلب الإسلام من الإنسان أن يكون ملكا ، وإنما طلب إليه أن يكون إنساناً كاملا ، يعيش وفق ما خلق ، فقد خلق جسما وروحا فلجسمه عليه حق ولروحه عليه حق ، فلا عجب بعد أن رأينا المسلم يساهم في بناء المدنية لأنها واجبه وفي بناء الروحية لأنها مطلبه .

لم ينح الإسلام منحى العلم ، يقرر القوانين جافة جامدة كما تفعل علوم الرياضة والطبيعة وكما تفعل الميتافيزيقا اليونانية فهذا هو العلم ، ولكنه سلك مسلكا سماه « الحكمة » وقال : « ومن يُؤْتَ الحِكمةَ فقد أُوتي خيراً كثيراً وما يذَّكَّر إلا أولو الألباب » وما الفرق بين العلم والحكمة ؟ العلم هو هذا النوع من المعرفة التي تأتي من طريق الحواس وما تألف منها ، فإذا نظمت هذه المعارف

ووضعت كل طائفة منها فى مجموعة سميت علماً . أما الحكمة فمزج الروح والنفس بالعالم ، والعلم يغذى العقل وحده ، أما الحكمة فتغذى العقل والمشاعر ، وهذه المشاعر هى التى عبر عنها الدين بالقلب والفؤاد . إذا كان العلم ينظر إلى الإنسان فيقسمه إلى أجناس ، و إلى أمم ، و إلى ذكور و إناث ، فالحكمة تنظر إلى الإنسانية فى الإنسان و إلى الإنسانية التى من ورائها الله يسيرها وينظمها ويمنحها الوجود و يمدها بروح منه . و إذا كان العلم يقسم النبات إلى فصائل ، و يميز اختصاص كل فصيلة ، فالحكمة ترى فى اختلاف أنواع النبات دليلا على القدرة الإلٰهية . وهكذا بينما فى العلم تمد الطبيعة رباطا بينها و بين العقل ، تمد الحكمة رباطين أولهما وأولاهما بينها و بين القلب ، وثانيهما بينها و بين العقل .

ومن أجل هذا عنى القرآن بمظاهر الاختلاف بين القوانين الطبيعية أكثر مما عنى بتقرير القوانين الطبيعية الجزئية ، فهو يلفت النظر إلى الإنسان ، كان نطفة ثم علقة ، ثم مضغة — ، ثم كان من المضغة عظام ، ثم كسا العظام لحما ، ثم كان من ذلك إنسان .

ولفت النظر إلى اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، واسترعى النظر إلى السحاب يسير بإذن الله ، ثم يمطر ماء فتتكون منه زروع وجنات يأكل منها الإنسان والأنعام . و إلى الإنسان واختلاف ألسنته ، و إلى حركة الماء فى البحار والأنهار وتلاقيهما ، وهكذا عنى القرآن بهذه المناظر المتغيرة ، و بهذه الحركة الدائمة لأنها أمس بالشعور وأقرب إلى الحكمة وأدل على المحرك والخالق والمدبر ، فكانت بذلك مبعث إيمان صادق حار لا يفتر .

وقد غفل علماء الكلام من المسلمين عن الفرق بين العلم والحكمة ، و بين الفلسفة والدين ، و بين منهج القرآن ومنهج اليونان ، فحولوا — وعلى رأسهم المعتزلة — الدين من القلب إلى العقل البحت ، وألفوا العقائد فى شكل قضايا

منطقية ، فتحجر الدين وانقلب جسما جامداً لا روح فيه ، فخمدت حرارته ، وضعفت شعلته ، وقل نوره وضياؤه .

بهذه العقيدة التى ألممنا بها نقل الإسلام العرب من أفق خرافى ضيق كسم الخياط ينحصر فى تقديس الحجر والرجوع إليه فى أهم الأحداث ، إلى أفق فسيح لا حد لسعته ، يطالع فيه جميع المخلوقات فى الأرض والسماء ، ويسبح بعقله وشعوره فيها ، ويمتزج بها ، بل هو لا يقف عند ذلك ، وإنما يتعداه إلى إله مجرد عن المادة ، ومنزه عن شبه المادة ، يحكم العالم ، ويسيطر عليه ، وينظمه ويسيره ، وهو وحده لا شريك له رب العالمين .

وضع الإسلام فى يد العرب الذين كانوا يدينون بالأصنام معاول يكسرون بها الأصنام ، وهم إذ كانوا يكسرونها حسيا كانوا يعلنون بعلمهم أنهم تحرروا من رق الخرافة ، وسموا عن تقديس حجر ، وارتفعوا بتفكيرهم وشعورهم إلى ما فوق المادة ، واتصلوا بإله الكون يستمدون منه القوة ، ونظروا من طيارة إلى من حولهم من الناس يرثون لحالهم ، إذ رأوهم بائسين ، كما كانوا هم بالأمس ، من فرس مجوس يعبدون نارا ، وما النار إلا مخلوق ضعيف تشبه فى ضعفها الأحجار التى كانوا يعبدونها أيام جاهليتهم ، ومن رومان تركوا وراءهم دينهم الصحيح وأخذوا يعبدن شهواتهم فعبدوا الخمر وعبدوا النساء وعبدوا المال وعبدوا الجاه ، وما كل ذلك إلا أصنام كأصنامهم التى حطموها بالأمس ، وما هى إلا ضرب آخر من ضروب النار التى يعبدها المجوس تشب بين جوانحهم . هؤلاء الفرس وهؤلاء الرومان الذين كانوا بالأمس القريب ، المثل الأعلى للعرب ، والذين كانوا يرون فى أعماق نفوسهم أنهم عبيد ، وأن الفرس والروم سادتهم ، وأنهم سوقة ، والفرس والروم ملوكهم ، وأنهم أذلة والفرس والروم أعزة ، وأنهم فقراء وأمل الآمل منهم أن ينال من متاجرته مع الفرس والروم شيئاً من فتاتهم ومما تناثر من أيديهم ، هؤلاء الفرس والروم أصبحوا فى نظر العربى المسلم أسرى عقائد فاسدة ، وأسرى

شهوات وضيعة ، وأن مالهم وجاههم وعدتهم وزينتهم لا تساوى شيئاً بجانب صحة عقيدتهم هم ، لقد كانوا ينظرون إليهم من غواصة فيحسدونهم على استنشاق الهواء على ظهر الأرض فأصبحوا ينظرون إليهم من طيارة عالية جداً فيرونهم حشرات حقيرة تتقاتل على متع دنيئة ، ويرونهم المثل الأدنى للإنسانية ، وقد كانوا المثل الأعلى ، وأنهم أحق بالعطف عليهم والأخذ بيدهم ، وقد كانوا من قبل يستجدونهم و يستذلون لهم و يخطبون ودهم . لم يقلب هذا الوضع عند العرب إلا العقيدة ، وكفى بها ثورة : ثورة فى العقل وفى القلب وفى الخلق جعلتهم كأنهم خلق آخر .

هذه العقيدة بما أضاءت و بما بعثت من حكمة جعلتهم فوق العلم . إن شئت فانظر إلى عمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص وأمثالهم — ماذا كانت ثقافتهم العلمية بالمعنى الذى نفهمه الآن ؟ كانت لا شىء ، أو كانت ضعيفة كل الضعف ، فليسوا على علم واسع بقوانين الحساب والهندسة ، ولا بالجغرافية ، ولا بشىء من فروع العلم ، ولكن أضاءت الحكمة أذهانهم وقلوبهم ففاقت العلم ، و إلا فكيف استطاع عمر بن الخطاب — مثلا — أن يدير هو وأعوانه مملكة الفرس والروم ، وقد بلغتا فى الحضارة شأواً بعيداً ، يعرف أهلهما الجغرافية معرفة واسعة ، ويؤسسون المملكة على نظم إدارية وحربية دقيقة ، وعندهم علم وأدب وفن . لو عهد بإقليم من أقاليم الفرس والروم إلى عمر فى الجاهلية لحار فى إدارته وارتبك ، ولساسه كما يرعى الشاة والإبل ولكنه الإسلام وما بعث من حكمة ، غير نظره إلى الأشياء وجعله ينفذ ببصيرته إلى نظم الفرس والروم فيدرك منها الصالح وغير الصالح ، ويعدل فى إدارتها وشئونها الاجتماعية تعديلا لا يستطيعه العالم الماهر الذى تنتجه حتى حضارة اليوم . فهو يغير من نظام الضرائب ، وتوزيع الأراضى وتدوين الدواوين ، ويستطيع وهو فى مكة أن يرسم خطة السير لحكومة تسوس العراق ومدن الفرس ، كما تسوس الشام ومدن الروم ، إنها إحدى العجائب الكبرى أن يصل بدوى إلى ذلك ، وعهدنا بالبدوى الهمجى

يخرب ولا يعمر ، وإذا غزا وانتصر فكل مطمعه في الغنيمة . فما بال عمر وأمثال عمر يدخل التحسينات على الحضارة ، ويقترح فيما يزيد العمران ، ويبث في الحضارة القديمة روح العدل والإحسان ؟ لا شيء غير العقيدة الإسلامية محصت نفسه ، وطهرت قلبه ، وجعلت نظره ينفذ إلى بواطن الأمور ، يعدل على الذين لا يرون إلا الظواهر ، ولا يهمهم إلا بهرجة الدنيا ، والزخرف الظاهرى .

فإن نحن عددنا العقيدة الإسلامية — بالشرح القليل الذى شرحنا — أثمن ما قدمه الإسلام إلى المدنية لم نكن مبالغين .

هذه العقيدة لا تقر بعظمة إلا عظمة الله ، ولا تقر بتقديس ملك ولا بامتياز لرجال دين ، ولا تعترف بوساطة أحد بين الإنسان وربه ، ولا بأى نوع من أنواع الأرستقراطية : لا أرستقراطية المال ولا أرستقراطية العلم ولا أرستقراطية رجال الدين . كل الناس سواء . الناس من تراب وإلى التراب يعودون . ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وخير الناس أنفعهم للناس .

ثانياً — الثقافة الإسلامية

وأريد أن أكرر هنا ما أشرت إليه من أن الثقافة الإسلامية كانت أثراً من آثار العقيدة الإسلامية التى ألممت بها . فالقرآن رفع مستوى العقل إلى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام ، وعبادة أصنام ، وبما حث على النظر فى الكون ومراقبة تغيراته ، واختلاف مظاهره ، ودوام حركاته ، وبتوجيه العقل إلى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة ؛ فالناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يرجعون إلى أصل واحد هو آدم وحواء ، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع إلى ما أنزل من السماء من ماء ، والعالم كله يرجع إلى وحدة الخالق « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . فهذه الوحدة فى العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفى الروحى . فالقرآن من ناحية

فك قيود العقل ، وهذا هو العامل السلبي ، ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليشرف على العالم من مرقب عال ، وهذا هو العامل الإيجابي .

ومن أجل هذا كانت الثقافة الإسلامية نتيجة العقيدة الإسلامية لا نتيجة شيء آخر ، فإن هي اتجهت إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية ، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أي كائن كان .

وقد بذر الإسلام في نفوس أصحابه بذوراً تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليداً صرفاً ، إنما كانوا دائماً يعملون العقل فيما نقلوا ، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرأوا . فإذا نظرنا إلى ما كتب الفارابي وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب ، بل نقدوا وزادوا ووفقوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شيء أخذوه بروح من عندهم ، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بها — حتى هذا المنطق اليوناني الذي دانت له كل الأمم زاد الغزالي في بعض كتبه فصولا عن القرآن ، وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة . وكان شأنهم في كل فرع هذا الشأن تقريباً . فدعوى أن المسلمين في ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانيــة أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة ، دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الإسلامية دراسة وافية .

والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين جميعاً : من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاهم لضاع كثير منها ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا و بثوا من روح في الثقافات القديمة .

وقد بدأ علماء أوربا يبحثون نواحي تأثير الثقافة الإسلامية في الثقافة الأوربية ، وكان من آخر ما أظهروا في هذا الباب كتاب ما خلفه الإسلام (Legacy of Islam) تناولوا فيه أثر الثقافة الإسلامية في الجغرافيا والتجارة ، وفي القانون والاجتماع

والفن والعمارة وفى الأدب ، وفى التصوف وفى الفلسفة واللاهوت ، وفى العلم والطب والرياضيات . وهذا البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما اكتشفوا من طريق يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى ، وأقوى على تحمل مشاق الطريق .

ولعلنا لكى نقرب من موضوعنا نسأل هذا السؤال : هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التى يقف عليها الآن لو لم تكن مدنية الإسلام ؟ هل لو لم يكن فى الوجود مدنية بغداد ومدنية قرطبة والحروب الصليبية ، كانت المدنية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن ؟ هل كانت النهضة الأوروبية الحديثة تحدث فى الزمن الذى حدثت فيه لو لم ترتكز على المدنية الإسلامية ؟

هذا سؤال واحد فى أوضاع مختلفة والإجابة عنه يسيرة وهى إجابة بالنفى القاطع . ولا يعلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية الحديثة لو لم ترتكز على المدنية الإسلامية وتطير على عاتقها ، فالمتتبع لتاريخ المدنيات يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها . وقد كانت المدنية الإسلامية هى التى فى الذروة قبيل المدنية الحديثة . ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدنية أخرى فى العالم فى مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما ، ونظمهما الإدارية والحربية . ولتوضيح ذلك ننظر فى أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الإسلامية .

لقد بنيت النهضة الحديثة فى الثقافة على أساسين وهما الشك والتجربة — كانت الثقافة فى القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان ، وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس . فإذا قال أرسطو قولا فلا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ، وإذا كان الحس يدل على غير ما يقول وجب أن نعتبر الحس خداعا ، والحقيقة ما قال أرسطو . لقد قال أرسطو إن الجسم إذا كان أثقل كان إلى الأرض أسرع ، ولكن صعد بعضهم من مكان عال ورمى فى وقت واحد كتلتين وزن إحداها ضعف الأخرى فوصلا إلى الأرض معا ، ومع هذا قالوا

إن الحق ما قال أرسطو ، ويجب أن يؤول الواقع وهكذا . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقى وحده يؤيدون به المذاهب والآراء ، والقياس المنطقى وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليما أعمى وتعنى فيه بالشكل . فجاءت النهضة الحديثة تشك فى هـذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجرى التجارب عليها ولا تؤمن بشىء حتى تدل التجارب على صحته وكان هذا دعامة النهضة الحديثة . والحق أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولاخفيت عليهم ، فالتاريخ يحدثنا أن النّظام ألف فى نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ فى كتابه الحيوان يطلع اطلاعا واسعا على أقوال أرسطو ثم لا يمنحها هـذا التقديس بل ينقدها نقدا جريئا و يقول قد جربنا قول أرسطو فلم نجده صحيحا . ويقول : « إن قوله هـذا غريب » ، وهو « قول لا يجيزه العقل » إلى كثير من أمثال ذلك ، وربما فضل على قوله قولا آخر قاله عربى جاهلى فى بيت من الشعر ، لأنه أقرب إلى العقل . فهو بهذا قد جعل عقله حكما على أرسطو ؛ على حين أن فلاسفة القرون الوسطى فى أوروبا جعلوا أرسطو حكما على العقل .

والبيرونى يحكم عقله فى الرياضيات ، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، ويفضل هذه حينا وهذه حينا فى كتابه الآثار الباقية ، وحينا لا يقبل هذه ولا تلك ويعتمد على عقله الصرف . ويقف الغزالى فى كتابه « المنقـذ من الضلال » الموقف الذى وقفه بعدُ ديكارت فيقول : « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الإسلام ، وإنه لم يقنع بهذا الدين التقليدى التلقينى ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور ، وأن يبنى دينه على يقين ، وقال إنه بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته » وقال : « كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه فليس بعلم يقينى » ، وابن خلدون نظر إلى المجتمع الإنسانى هذا النظر الحر

الطليق فاستفاد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به ، ونظر فى مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهى القبائل العربية والدول الإسلامية واستنتج من ذلك كله نظرياته التى كانت ولا تزال محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوروبيين و إعجابهم .

وعلى الجملة فهذه الأسس التى بنيت عليها النهضة الحديثة فى أوربا من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، و بعد الشك فيما اتخذه الأقدمون قضايا مسلمة ، كله كان منبثا فى الثقافة الإسلامية فى عصورها الزاهية . وكل ما فى الأمر أن الذين بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوروبيون لا المسلمون ، وأن من سوء حظ المسلمين أن وضعت فى سبيلهم عقبات ، ليس منشؤها دينهم ، حالت بينهم و بين أن يتموا ما بدأوا ، وأن يشيدوا فوق ما أسسوا . ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن نقوّم بناء لا نكون سطحيين فنقوم ظاهره ، ولا نقوم باطنه ، ونقوم أعلاه ولا نقوم أساسه .

ووجه آخر بجانب هذا ، وهو أن ثقافة المسلمين لم تكن جميعها متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية ، فقد كانت لهم مناح فى الثقافة خاصة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم إلا اعتماداً ضعيفاً غير مباشر ، فما أنشأوا من علوم لغتهم كالنحو والصرف والبلاغة ، وأدبهم الذى رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به على منهج خاص بهم ، لا على المنهج اليونانى ، ولا على المنهج الفارسى ، والعلوم الغزيرة التى أنشأوها حول دينهم من تفسير للقرآن والحديث ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم الاجتماعية الخاصة ، وما أسسوا له من أصول الفقه الذى لم يجروا فيه على منوال سبق — كل هذه وأمثالها كانت مظهراً من مظاهر الاختراع العقلى للمسلمين ، وكل هذه كانت عوامل فى بناء المدنية الإسلامية التى بنيت عليها المدنية الحديثة .

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التي ربطت بين المدنية الإسلامية والمدنية الأوربية ، وأبان لنا كيف استمدت الثانية من الأولى ، وكشف لنا عن بعض الجداول التي كانت تتسرب من المدن الإسلامية تصب فى المدن الأوروبية وإن كان بعضها لم يزل مطمورا إلى اليوم ولم يستكشف بعد .

فقد اتصل الأوروبيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقاً ، واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية ، وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى إن كثيراً مما بقى من مؤلفات ابن رشد حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية ، وكان من أشهر من قام بهذه الحركة « ريموند » Raymond الذى كان مطرانا لطليطلة من سنة ١١٣٠ — سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية إلى اللغة اللاتينية ، فنقلوا من العربية أهم كتب الفارابى وابن سينا ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية إلى اللاتينية يقرأ فى باريس بعد ثلاثين سنة من عمل هذه الجمعية ، وقد مرت حركة استفادة الأوروبيين من الثقافة اليونانية فى ثلاثة أدوار ، الدور الأول : نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية ، من العربية إلى اللاتينية ، والدور الثانى : النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية ، والثالث : نقل الشروح العربية إلى اللاتينية .

وجاء فردريك الثانى سنة ١٢١٥ ، واتصل بالمسلمين اتصالا وثيقاً فى صقلية وفى الشام فى حروبه الصليبية ، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان يعجب بفلاسفة المسلمين ، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع أن يقرأ بها الكتب الفلسفية فى مصادرها الأصلية . وأنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً فى نابلى لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى اللاتينية والعبرية

لنشرها فى أوروبا . وبفضل فردريك ذهب « ميكائيل سكوت » إلى طليطلة وترجم شروح ابن رشـد على أرسطو ، وقبل ذلك كانت قد نقلت إلى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا واستعملت فى باريس حول سنة ١٢٠٠ م .

وفى القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتبا قليلة ، منها كتاب تهافت التهافت الذى رد به على تهافت الفلاسفة للغزالى ، فقد ترجمت فى القرن الرابع عشر .

وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشد فى جامعة بولونيا وجامعة بادوا Podua فى إيطاليا ، ومنهما انتشرت هذه الثقافة فى إيطاليا الشمالية الشرقية إلى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب ابن سينا فى الطب سائدة إلى ما بعد هذا العصر .

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسـون على هذه الـكتب ، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، فروجر بيكون الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ، ودرس فلسفة ابن رشد ، والقسم الخامس من كتابه فى البصريات Optics مستمد ومساير لـكتاب ابن الهيثم فى هذا الموضوع نفسه .

وطالما ارتفعت شكوى رجال الدين فى الأندلس من أن المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين ، وعابوا مطران أشبيلية لأنه يدرس فى جد فلسفة الـكافرين، يعنون المسلمين .

وعلى كل فجملة الأمر فى مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ لـكى Lecky خير تلخيص إذ قال :

« لم تبدأ النهضة الفكرية فى أوروبا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة إلى الجامعات ، وإلا بعد أن حطمت العلوم الإسلامية ، والأفكار اليونانية والاستقلال الصناعى ، سلطان الـكنيسة » .

* * *

هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية ، ولابد أن نلقى نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة . ومما يؤسف له حقا أن نقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم فى بناء صرح المدنية اشتراكا كبيراً ، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة ، وقديمهم هو مدنية القرون الوسطى ، فهم فى الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والإدارات ، وفى كتبهم التى تؤلف فى العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما إليهما ، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم ، كل هذا يقلدون فيه المدنية الغربية . وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب إلى الكمال ، وقديمهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة الإسلامية ، ومن مثل قضائهم فى المحاكم الشرعية ، ومن مثل مدارسهم الدينية ، ونحو ذلك ، كلها على نمط مدنية القرون الوسطى . فهم — فى ظاهر الأمر — لا يضعون أحجاراً كبيرة فى بناء المدنية الحديثة ولا يلونونها بلون خاص . ولكن هل الذنب فى ذلك ذنب الإسلام والمسلمين ؟ إذا عرضت نفسك لتبنى فمنعك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من منع لا من مُنع ، وهكذا الشأن فى موقف المسلمين . لقد سبقهم الغربيون باستخدام العلم فى قوة تسلحهم إلى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم ، فوجهوا هذه القوى الهائلة إلى الشرق ، ولم يكن قد صحا بعد من سباته الذى سببه ما فسد من عقيدته ، وما فسد من سياسته ، وما فسد من شئونه الاجتماعية ، فسلط عليه الغرب نظرة استغلال ، فساعده على كل ما يفيد الاستغلال ، ومنعه من عمل كل شىء يفيد الاستقلال ، فهو إذا أراد أن يتثقف كما يشاء ، أو يرقى شئونه الاجتماعية كما يشاء ، أو أن يحكم نفسه كما يشاء ، أو أن يرقى أخلاقه كما يشاء ، منعه الغرب من ذلك حرصا على فائدته فى هذا الاستغلال ، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة ، والقوة محرمة عليه . فهل بعد ذلك هو الذى يتحمل تبعة عدم اشتراكه فى البناء ؟

إنى لأرجو أن الزمن ورقى الأفكار السياسية التى تخطو فى هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربى ينظر إلى الشرق نظرة تعاون ، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من الناحية الاقتصادية ، وأن رقى الشرق والسماح له بالبناء يزيد فى صرح المدنية ويرفع بناءها ، ويسرع فى علو شأنها . وكما تبين للناس أن نظام الإقطاع وتسخير الملاك للعبيد لم يكن فى مصلحة الملاك ولا العبيد ، فحطموا هذا النظام من أساسه وأسسوه من جديد على تحرير العبيد وتعاون الملوك والمستأجرين ، وأرباب الأموال والعمال ، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والمحكومين يتعاونون ولا يتقاتلون ، ويتفاهمون ولا يتنازعون ، ويتحاكمون إلى الرأى والعقل لا إلى القوة والسلاح . وأرجو ألا يكون ذلك بعيداً .

على أن من العدل أن نقول إن التبعة فى ذلك كله لا تقع على الغربيين وحدهم ، فإن هناك عوامل فى المسلمين أنفسهم جعلتهم فى هذا الموقف الحرج . فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل ، وقفوا موقفاً مزرياً فى تاريخ المسلمين وعاقوا رقيهم وتقدمهم ، فكان كلما حاول الإصلاح محاول ثاروا عليه باسم الدين ، إن أراد إصلاح المحاكم ثاروا عليه ورموه بالمروق ، وإن أراد تنظيم الإدارة الحكومية قالوا لا عهد لنا بهذا ، ويجب أن نتتبع آباءنا وإنا على آثارهم مقتدون . وإن أراد تعليم المرأة قالوا ما بهذا أتى الدين ! وهكذا كانوا حجر عثرة فى سبيل كل مصلح حتى عظم الخطب ، واشتد الكرب ، وأولو الأمر فى المسلمين إذ ذاك لم يكن يهمهم إلا شهواتهم وفخفختهم الكاذبة ، ومظاهرهم الخادعة . أما الاتجاه الصحيح إلى ترقية رعيتهم وتثقيفهم ، وتنوير أذهانهم ، ونشر العدل بينهم فكانوا قلما يأبهون له . فهؤلاء وأولئك كانوا السبب فى أن يقف المسلمون هذا الموقف الذى شكونا منه من قبل .

ومع هذا فتنبه المسلمين اليوم وسير حركات الإصلاح بينهم سيراً حثيثاً ،

يدعونا أن نؤمل قرب اليوم الذى يتبوأون فيه مكانتهم اللائقة بهم . فإذا قارنت هذه النهضة الداخلية فى رقى الفكر السياسى عند الغربيين ، وتعديل نظرتهم نحو المسلمين كان من وراء ذلك كله نهضة جدية يبنى فيها المسلمون فى المدنية بناء صالحاً مصبوغاً بعقيدتهم وأفكارهم ، فنرى إذ ذاك فلسفة خاصة وثقافة خاصة ، وروحانية خاصة ، قد تلون المدنية الحديثة عامة بلون خاص غير لونها الحالى .

المسلمون أمس واليوم

في نحو ثلاثة وعشرين عاما استطاع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما منح من قوة العقيدة ، وصدق العزيمة ، وبعد النظر ، وتأييد الله ، أن يحول العرب من جماعات مختلفة اللغة ، مختلفة الدين ، مختلفة الرأى ، مختلفة الأهواء ، تشعر بالضعة إذا قارنت نفسها بمن حولها ، وبالذلة إذا رأت من فى جوارها ، لا يفكر الفرد فيها إلا فى نفسه ، فإن اتسع أفقه ففى قبيلته ، فإن فكر فى قبيلة أخرى ففى الانتقام والأخذ بالثأر ، وشن الغارة للسلب والنهب — إلى أمة واحدة ، متحدة اللغة ، متحدة الدين ، متحدة الرأى ، يشعر الفرد فيها أنه من أمة أعزها الله بالإسلام . وفضلها به على الأنام ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، وليس ذلك بالكثير فى تاريخ الأمم .

فإن مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتعد إصلاحه جزيرة العرب ، فقد أعد أمة لإصلاح غيرها ، ولسيادة الناس خير إعداد — حتى إذا وجهها قادتها نحو الفتح ، أتوا بما حير علماء السياسة والاجتماع والتاريخ إلى اليوم — بسطوا سلطانهم على جزء كبير من العالم فى أقل من عشر سنين ، ولم يكن فتحهم تخريبا وتدميراً ، إنما كان فتحا منظماً أحكمت قواعده وأصوله — واستمروا ينتقلون من فتح إلى فتح ، ومن ظفر إلى ظفر ، مما يجعل الباحث يقتنع بأن نجاحهم لم يكن حظا أتيح لهم ، ولا مصادفة وقعوا عليها — إنما كان نتيجة مبادئ صحيحة اعتنقوها ، ونفوس قوية حتمت صدورهم عليها — ومع ما عرض لهم من خلاف فيما بينهم كان من طبيعته أن يودى بأمثالهم من حروب داخلية ومنازعات سياسية وخلافات دينية ، تغلبوا على كل ذلك ، ولم يمنعهم من الظفر بعدوهم واستمرارهم فى فتوحهم .

ثم هم ساهموا فى كل شأن من شئون المدنية ، إن نظرت إلى الدين فقد دعوا

إلى دينهم فدخل الناس فيه أفواجا فى هدوء من غير عنف ، ولم يمض قرنان على فتحهم حتى كان أكثر البلاد المفتوحة على دينهم ، ثم هو لا يزال ينتشر إلى اليوم مع انعدام الدعاة وعدم حماية الدعوة ، وإن نظرت إلى اللغة رأيتهم هيئوا لغتهم لكل جديد ووسعوها — وهى البدوية الأصل والمنشأ — حتى أحاطت بكل مرافق المدنية إذ ذاك ، وحتى زاحمت الفارسية فى فارس ، والرومانية فى الشام والقبطية فى مصر ، وسارت مع الدين جنباً لجنب ، كلما ظفر الدين ظفرت اللغة ، وكسبت لغتهم قادة الفكر فى كل هذه الأمم المفتوحة ، فأصبحوا يمنحونها خير أفكارهم وأفكار أممهم ، وظلت اللغة العربية تسود حتى نسى كثير من الأمم لغتهم الأصلية ، وأحلوا محلها العربية ، ولو لم يعتنقوا الإسلام .

وإن نظرت إلى النظم والتشريع فكذلك ، قد أقلم المشرفون أنفسهم وكانوا حيث حلوا مرنين يقفون موقف المتفهم للموجود من نظم وقوانين ثم يقرون ما لم يتعارض وأصول دينهم ، ويغيرون أصول ما تعارض ، ووقف الفقهاء فى كل قطر يوسعون مذاهبهم حسب الحاجة وحسب الإقليم الذى حلوه ، وخلفوا من كل ذلك قوانين لا تزال إلى اليوم محل إعجاب المنصفين من المتشرعين .

وإن التفتَّ إلى العلم رأيتَ أنهم فى كل فرع من فروع العلم أخذوا بحظ وافر ، لم يمنعهم دينهم أن يأخذوا عن وثنيي اليونان فلسفتهم ، ولا عن النساطرة طبهم ، ولا عن اليهود ما يروون من أخبار أنبيائهم وعلمائهم ، وأبلوا فى العلم بلاء لا يقل عن بلائهم فى الحرب ، فحيث حلوا رأيت علماً كثيرا وجدا عجيبا ، ثم خلفوا من كل ذلك ثروة فيها غاية ما وصل إليه العلم لعهدهم . فهموا ما كان من علم قبلهم وتداولوه بالشرح والنقد وضموا إليه ما أوحته نظرات دينهم من علوم إسلامية ومذاهب دينية ، وزادوا فى ثروة من قبلهم بما بذلوا من جهد وأنفقوا من مال ونفس .

فلم لم يكونوا سادة العالم فقد كانوا سادة فى العالم ، وإن لم يكونوا رأسه المفكر

فقد كانوا رأسا من الرءوس ، لا عبيداً ولا أذنابا ، ووقفوا فى بعض أيام تاريخهم من العالم موقف المعلم . يرحل من أراد العلم من الأوروبيين إليهم ، و ينقلون إلى اللاتينية كتبهم ويدرسون فى جامعاتهم علمهم — وفى السياسة العالمية وقفوا موقف الموازن ، يسمع لقولهم و يحسب حسابهم ، وتعقد المعاهدات المحترمة معهم .

* * *

ثم دار الزمن دورته وأصبح سادة الأمس عبيد اليوم ورءوس الأمس أذناب اليوم وشباب الأمس هرم اليوم ، وقضى على حضارتهم ما قضى على حضارة اليونان والرومان والآشوريين والبابليين وقدماء المصريين إلا فرقا واحدا وهو أن حامل لواء الحضارة الإسلامية لا يزال حيا وإن كان شيخا فانيا ، و إن الشيخ إن لم يصب بالعقم فقد يلد طفلا يمر بأدوار الحياة ومنها الشباب و إن الأمم إن لم تمت فلها أيام ، فقد يكون للإسلام فجر ، وضحى ، وعصر وغروب ، ولكن لا يلبث الليل حتى ينجلى عن صبح آخر فيه كل صفات الصباح ، من نور وضياء ، و إشراق يدفع للحركة ونسيم يبعث الحياة .

و بالفعل يظهر أن هذا الشيخ الفانى قدمات أو كاد ، وأن الله فالق الإصباح ومخرج الحى من الميت لم يصبه بالعقم ، ووهبه ما وهب زكريا « إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . و إنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا . يرثنى و يرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

ولكن إن ورث « يحيى » من زكريا علما وحكمة فإنى أخشى أن يرث « يحيانا » تركة قد أثقلت بالديون وأفعمت بالمغارم . فهل من سبيل إلى أن يرث من من آبائه الأبعدين لا من آبائه الأقربين ؟ يحدثنا علماء الوراثة بأن ذلك جائز فى

قوانينهم ، وأن بعض الأبناء يرث من جده الأبعد لا من أبيه الأقرب ، وإن كان ذلك كذلك فخير له ، فإن أباه أشعث أغبر ، لوحته الهموم وأحنت ظهره الأحداث ، أما جده البعيد فجميل المحيا ، مشرق الجبين ، صارعه الدهر ، فصرع الدهر ، وأرادت أن تنال منه الأحداث فنال منها ، ولكن أنّى لنا ذلك ، ومربوه من جنس أبيه ، فإن لم تفسده الوراثة أفسدته البيئة وأفسده المربى وأفسده الموالى من ورائه يكيدون له ويضعون الخطط تلو الخطط لاغتياله ، لا يكون ذلك حتى يرزق « يحيى » بالمثل الصالح والمربى الصالح ، يفتح عينيه ليرى ما حوله ، ويضع له البرامج ليعده أن يكون سيدا مع السادة ورأسا بجانب الرءوس ، يبنى صرح المدنية مع بناته ، ويشيد العالم مع مشيديه ، فإن كان العالم لا يسع إلا مدنية واحدة شارك فيها ، وإن كان يسع مدنيتين فأكثر أسس هو مدنية تتفق وروحه ، وعقليته ونفسيته ودينه وخصائصه .

* * *

من نحو خمسة قرون فقد المسلمون مركزهم العالمى ، وأصبحوا حيث حلوا عنوان الذل والعبودية وحلفاء الفقر والمسكنة ، ولم يكن تأخرهم راجعاً إلى بيئتهم كما يذهب بعض الباحثين ، فهم يسكنون بيئات تختلف حرارة وبرودة ، وتختلف خصباً وجدباً ، وتختلف جفافاً ورطوبة ، وهم مع ذلك فى مستوى واحد من الضعة والتأخر ، على أن الأمر لو كان يرجع إلى البيئة ما تداول عز وبؤس ونعيم وشقاء ، وسيادة الأشراف وصعلكة العبيد . ولكانوا على حال واحد أبداً ، لأن البيئة تلازمهم أبداً — كما أن الأمر لا يرجع إلى ما يجرى فى عروقهم من دم ، فدمهم الذى يجرى فيهم اليوم هو من نوع الدم الذى كان يجرى فى عروقهم أمس ، وقد بطلت نظرية أن الله اختار من عباده جميعاً شعباً واحداً عهد إليه تنظيم العالم وسيادته هو الشعب التيوتونى أو الشعب الآرى ، فليس من أمة إلا وهى خليط من دماء مختلفة ولو كان كذلك لما عزوا

وذلوا وعلوا وسفلوا ، وليس أمر المسلمين كذلك يرجع إلى دينهم فدينهم قديماً كان هو سبب سعادتهم وهو الذى انتشلهم من بؤس وأعزهم من ذل — والدين متى كان صالحاً فى أسسه كالإسلام كان باعثاً على الإصلاح لا الفساد ، وعلى النهوض لا الانحطاط إنما هو كـكل دين يختلف باختلاف العين التى تنظر إليه ، فإن صلحت العين صلح ما تنظر إليه ، و إن ساءت ساء ، بل قد رأينا فى تاريخ الأمم عيناً صحيحة وديناً مريضاً استطاعت العين لصحتها أن تصلح منظره وتجمل شكله .

على أنى لا أرى أن المسلمين تأخروا وانحطوا بالمعنى الحرفى الذى يفهم من الكلمة أعنى الرجوع إلى الوراء ، بل كل ما فى الأمر أنهم وقفوا حيث كانوا من خمسة قرون ، وغيرهم سائرون ، وناموا وغيرهم أيقاظ ، فلما بدأوا ينتبهون رأوا الشقة بعيدة واللحاق يتطلب عزماً قوياً وجهداً بالغاً .

مظاهر هذا الوقوف و إن شئت فسمه الركود متجلية فى كل مرفق من مرافق الحياة — ففى اللغة وهى أداة الثقافة ، وآلة العلم ووسيلة الرقى العقلى — وقفنا حيث انتهى الأمر بالدولة العباسية ، ولم نساير الزمن ولم نخط معه خطواته ، تغير وجه الحياة ، واخترعت ألوف الآلات ، ومعاجم لغتنا — كما هى — لا تعترف إلا بما كان ، وتهمل ما هو كائن وما سيكون ، فلا هى توسعت فى مدلول الكلمات العربية ووضعت منها أسماء للجديد ، ولا هى سمحت بالكلمات الأجنبية أن تدخل من غير تعديل أو بتعديل ، والخلاف محتدم ، والنزاع قائم ، ومركزنا كما هو لم نتقدم فيه شبراً — مع أننا واجهنا هذا الأمر منذ احتككنا بالمدنية الحديثة ، وحرنا فى تصرفاتنا فحينا ندرس كثيراً من المواد فى مدارسنا بلغة أجنبية وحينا تأخذنا العزة القومية فنحولها إلى العربية ، والنقص كما هو والموقف كما هو .

وفى التشريع تغير العالم فى معاملاته ، فأنتجت المدنية الحديثة أنواعا من المعاملات عديدة وأنواعا من الجرائم جديدة ونظما فى الحكم والقضاء ، فأبى رجالنا إلا أن يقفوا حيث هم ، أبوا أن يفتحوا أعينهم لأنواع الشركات إلا ما نص عليه فى الكتب القديمة من شركة مفاوضة ووجوه وعنان ، وأبوا أن ينظروا إلى نظام الجمارك الا ما ورد فى كتب الفقه فى باب العاشر ، وأبوا أن ينظروا فى جرائم الكيوف والاختلاس والتزوير إلا ما جاء فى باب التعزير فكان من الزمن أن تركهم فيما هم فيه ، وسلب من يدهم أوسع أبواب التشريع ، وهى ما يتعلق بالمسائل المدنية والعقوبات واستمد من قانون نابليون إذ أبى ، بالعلماء أن يمدوه بالفقه أو لم يترك فى يدهم إلا الأحوال الشخصية إلى حين .

وكان موقفنا فى الأخلاق موقفنا فى اللغة والتشريع ، فالمدنية الحديثة كان لها من الأثر ما غير قيم الأخلاق ، وقلب أوضاعها وطبعها بطابع جديد . ذلك أن أكبر أسس المدنية الحديثة وأهم أركانها الصناعة — ومن أجل هذا قومت الأخلاق من جديد على أساس الصناعة — ورتبت قائمة الأخلاق ترتيبا يتفق والصناعة ، فخير الأخلاق النظام ، والنظافة ، والصدق فى المعاملة ، والمحافظة على الزمن ، والاقتصاد ، وما إلى ذلك ، وجعلت هـذه الصفات فى المنزلة الأولى ، ووضع للعمال نظم لحمايتهم وترقية شئونهم من نقابات وجمعيات ، وقلبت القائمة التى وضعت فى القرون الوسطى رأسا على عقب ، فالحياء والتواضع والسماحة ونحوها قل أن تعد فضائل ، وإذا سمح بعدِّها ففى ذيل القائمة لأنها لا تتناسب مع أخلاق القوة وأخلاق الصناعة ، فليس خير الصناع أشدهم حياء وأكثرهم تواضعاً ، ولكن خيرهم أقواهم وأمهرهم ، وأحفظهم على نظام ، وأشدهم مراعاة لموعد وهكذا — وجاء العلم فخدم هذا النظر لأنه رقى الصناعات رقيا عظيما بفضل ما يقدمه لها كل يوم من مكتشف جديد ، وبجانب هذا تحكم العلم فى تقويم

الأخلاق . فغير الأنظار القديمة وجعل المقياس سعادة الناس ورفاهيتهم فى الحياة الدنيا ، ولم يعبأ بالتقدير المأثور عن السلف ، فنظر من جديد إلى الموسيقى والألعاب وسائر الفنون وحكم بالحسن على ما كان يحكم عليه من قبل بالقبح ، وعد كثيراً مما كان قبل إثماً وحراما وجريمة محمدة وخيرا وفضيلة ، ورأى أن ما فى حياة القرون الوسطى من رهبنة واعتكاف فى الأديرة والتكايا ونحو ذلك ، عيشة كسل وخمول لا تتفق وخير الناس « فمن لم يعمل لا يأكل » جرى كل هـذا والمسلمون حائرون بين تقاليدهم القديمة وما تقدمه المدنية الحديثة من نظر جديد — والزمن لا ينتظرهم فى حل الأشكال واختيار أحد الطريقين . فلما ترددوا جرفهم طوعا أو كرها من غير أن ينظرهم حتى يبتوا فيما يتفق وأخلاق المدنية الحديثة مع تقاليدهم ودينهم وتاريخهم ، وما لا يتفق .

ويطول بنا القول لو عددنا كل مرفق من مرافق الحياة وأبنا ما أصابه من ركود فنجتزئ بما ذكرنا من أمثلة للدلالة على باقيها .

* * *

ثارت أوروبا فى التاريخ الحديث ثورات سياسية وثورات صناعية ، كان من نتائجها تغيرها تغيراً كبيراً فى القرن التاسع عشر فمن الناحية السياسية حلت الديمقراطية محل الارستقراطية بما يتبع ذلك من تغير فى النظم والتشريع ، ومن الناحية الصناعيـة حلت المصانع الكبيرة والشركات والسكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات والكهرباء محل المظاهر الساذجة من صناعات يدوية وحمل على الخيل والبغال ، واستنارة بالشمع والزيوت ، وما إلى ذلك . وهذا التغيير السياسى والصناعى هو ما نسميه بالمدنية الحديثة وتبع هذا التغير الداخلى فى أوروبا ، تغير آخر خارجى ، فقد اتجهت أفكار قادة الرأى فيهم إلى غزو آسيا وإفريقيا وكان الباعث لها على ذلك جملة أمور ، أولها اقتصادى وهى أن تجد لها فى الشرق أسواقا لصناعاتها التى ذكرنا ولتجد لها فى الشرق مواد أولية

التغذية صناعتها ، وثانيها وطنى ، وهو أن كل أمة من أمم أوروبا فشت فيها النزعة الوطنية وامتلأت نفوس أهلها حمية ، ودفعها ذلك لأن تتطلب كل أمة قوة المظهر داخلا وخارجا ، ومن أهم ذلك التوسع فى الاستعمار و بسط النفوذ ، والفخر بلون الخرائط — وثالثها — وهو أقل من الأولين شأنا الدافع الدينى فقد دفع قوما من أوروبا لنشر الدعوة المسيحية فى البلاد الإسلامية واستعانوا بالسلطة على حمايتهم .

على كل حال — حمل الأوروبيون إلى آسيا وأفريقيا مدنيتهم مع فتحهم ، وكان لا بد لهم أن ينظموا الحال فيهما بما يتفق والنظام السائد عندهم ففى التشريع لابد أن تسود المبادئ القانونية السائدة فى أوروبا حتى تسهل التجارة ويأمنوا على معاملتهم للشرقيين ، ولابد من انتشار المدنية الحديثة بآلاتها وأدواتها حتى حتى تروج فى الشرق البضائع الأوروبية ، ولا بد أن يتعلم طائفة من المفتوحين على النمط الأوروبى الحديث ، وأن يكونوا هم المتولين المناصب الكبيرة حتى يمكن التفاهم معهم فى تسيير الشئون وهكذا كان من أثر انتشار هذه المدنية بين المسلمين نتائج كثيرة أهمها فيما يظهر لى أمران — الأول — اختلال التوازن بين الأمم الشرقية عامة والأمم الإسلامية خاصة ، وأكبر ما تمنى به أمة اختلال توازنها ، ذلك أن المدنية الحديثة بما استتبعها من تغير فى مظاهر الحياة الاجتماعية ومن تعديل فى قيم الأخلاق ، كانت نتيجة لثورات داخلية شبت وآمال وآلام جاشت فى صدره وتجارب جربها وأخطأ فيها فأصلح خطأه وهكذا كانت حركاته سلسلة متصلة تسلم حلقة منها إلى حلقة ، وتسير فى التدرج فيها سيراً طبيعياً ، أما فى الشرق فجاءته هذه المدنية لأن داخل نفسه بل من خارجها ، وفرق كبير بين ما دعت إليه الطبيعة وما دعا إليه التقليد — ولاختلال هذا التوازن مظاهر كثيرة فإن نظرت إلى القضاء فقضاء شرعى فى الأحوال الشخصية يطبق نظم المدنية الإسلامية وقضاء أهلى يطبق نظم أوروبا ممصرة وقضاء مختلط يخالفهما ، وفى الحياة الاجتماعية نرى قرى لم يتأثر أهلها بالمدنية الحديثة فى قليل من شئونهم ولا كثير

ومدنا تأثرت إلى حد كبير بها حتى فى أدق أمورها ، ولعل خير ما يمثل مظاهرنا المختلفة المضطربة اختلاف ملابسنا وتعدد أشكالها مما لا يعرف له نظير فى أوروبا .

وفى التعليم أنواع تتبع الأنماط الإسلامية فى عصورها ، وأنماط تتبع المدنية الحديثة فى مظاهرها وأشكالها ، وهكذا فإن أنت نظرت إلى أية أمة أوروبية فى كل مظاهر الحياة من لغة وتعليم وملبس ومظهر اجتماعى رأيت فيها وحدة رغم الاختلافات السطحية وإن أنت نظرت إلى حياة المسلمين فى كل مرفق من هذه المرافق لم تجد هذه الوحدة ووجدت الخلاف فى الصميم ، نرى نزعات تتجه نحو تاريخهم ودينهم ومدنيتهم القديمة ونزعات تتجه نحو المدنية الحديثة ولا رابطة تربط هذه النزعات — وترى ناحية من نواحى المدنية الحديثة تطغى وتكثر ولا يماثلها ما يقابلها فيطغى — مثلا — فى الشرق لهو أوروبا من خمر ورقص وحياة مترفة وهى كثيرة فى أوروبا كثرة تفوق بمراحل ما فى الشرق ولكنها فى أوروبا تتعادل وتتوازن ، فلهو كثير يزنه جد كثير ، وإجرام يوازنه حزم ، وليس كذلك فى الشرق فلهو لا يعد له جد وإجرام لا يوازنه حزم — وعلى هذا النمط يختل التوازن وتفقد الأمة قوتها الحيوية — ولا يمكن أن تصلح هذه الحال الا إذا توافر جماعة من خير الأمة على دراسة الموقف الاجتماعى للمسلمين والشرق دراسة عميقة مسلحة بما وصل إليه علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ ، ثم يضعون بعد هذه الدراسة الأكاديمية خططا للسير فى هذا الظرف العصيب ظرف الانتقال ، يعرفون الداء ويصفون الدواء ، يعلمون مدنيتهم القديمة والمدنية الحديثة ومعايب كل ، ومزايا كل ويعلمون الحالة النفسية لأممهم وما يناسبهم ومما لا يناسبهم ويبينون « خطة الانتخاب » يعرفون مناحى اختلال التوازن وأسبابها ويرسمون طريقة إعادة التوازن .

والأمر الثانى من نتائج انتشار المدنية الحديثة بين المسلمين أمر يناقض الأول

ويكاد يسير سيراً عكسياً معه ، ذلك أن انتشار التعاليم الجديدة المدنيه الحديثة واضطرار الأوروبيين لتأليف فرقة من المسلمين يتكلمون لغتهم ويتعلمون مناهجهم ، ويتشربون مبادئهم ، أمكنت هذه الطائفة من الاطلاع على المبادئ التى تدعو إلى الديمقراطية ، وتبث روح الوطنية فكان من ذلك أن أشربوا روح الثورة — نظروا إلى أممهم بالعين التى نظرت إلى هذه المبادئ فأيقنوا بحقهم فى الحياة ، وحقهم فى الاستقلال ، وحقهم أن يساهموا فى بناء صرح المدنية ، وأن يشاركوا فى تحمل أعباء الإنسانية — وزادهم عقيدة فى ذلك ما رأوا من أن أوروبا تحكم آسيا وإفريقيا على قاعدة مختصرة موجزة واضحة طبيعية ، وهى أنها تتجه فى تسيير آلات الحكم إلى منفعتها هى ، فحيث اتفقت مصلحة آسيا وإفريقيا مع أوروبا نفذت المصلحة المشتركة ، وحيث اختلفت مصلحة آسيا وإفريقيا مع مصلحة أوروبا فطبيعى أن تنفذ مصلحة أوروبا ، وقد ينظر فى تقدير المصلحة النظر الضيق القريب لا النظر الواسع البعيد — كان من جراء هذا وذاك وجود الاصطدام وشعور الشرق بالغبن ، وقيام الطائفة المتعلمة على النمط الحديث ببث روح الوطنية — وعملت هذه الحركة فى النفوس سنين وتكفل الزمن بأن يظهر كل حين وآخر حادثة تفتح عيونهم وتقوى شعورهم ، فكان القلق فى كل مكان فى الشرق ، فى مصر ، فى تونس ، فى الجزائر ، فى مراكش ، فى فلسطين ، فى الشام ، فى العراق ، فى الهند ، فى غيرها من البلدان ، قلق اقتصادى وقلق وطنى وقلق دينى ، هذا القلق أنتج وليداً جديداً هو ما وصفته قبل ، ماذا ينتهى إليه هذا القلق ؟ ماذا يكون شأن هذا الوليد ؟ ما تاريخه المستقبل ؟ هذه الأسئلة وأمثالها خارجة من عنوان مقالنا وهى بعنوان « المسلمون غداً » ألصق وأليق . وكل ما أعلمه الآن وأريد أن أقوله عن هذا الطفل أنه « لن يموت »

قوانين الحرب فى الإسلام

فى الوقت الذى تحمل إلينا فيه الأنباء تدمير المدن الأوروبية الآهلة بالسكان (١) ، واحتمال عودة حرب الغازات السامة ، وتخريب الطيارات والغواصات لكل ما تصل إليه بكل ما تستطيع من قوة ونحو ذلك من ويلات الحروب التى يعجز القلم عن وصف هولها — يلذ القارئ أن يعود إلى التاريخ يستعرض فيه التشريع المختلف للحرب ، والأنظار المختلفة فى تقدير الإنسانية .

ولعل من أروع هذه القوانين قانون الحرب فى الإسلام ، فمنذ ثلاثة عشر قرنا ونصف شرّع الإسلام قوانين بلغت الغاية فى تقدير الإنسانية ، وبث الرحمة فى النفوس ، والدعوة إلى الرفق .

من ذلك أن لا حرب قبل الدعوة ، لأن غرض الإسلام من الحرب ليس المال ولا الغنائم ولا الاستعمار ، وإنما غرضه نشر دعوة يرى فيها الخير للإنسانية ، فمن قبلها أو قبل الخضوع لأحكامها أو لم يمانع فى سبيل نشرها كان آمنا على نفسه وعلى ماله ، وكان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، لا عبرة باللون من أبيض وأسود ، ولا عبرة بالدم ولا بالجنسية ، ولا بنحو ذلك مما تعيره الأمم الحديثة أكبر اهتمام ، فالمسألة ليست حرب أجناس ولا حرب أوطان ولا حرب أمم ، إنما هى فى نظر الإسلام حرب مبادئ صالحة تنفع الإنسانية لمبادئ تضر الإنسانية ، فالأخوة فى نظره أخوة مبادئ ، لا أخوة دم ، ولا أخوة جنس ، ولا أخوة وطن .

وكان مما أوصى به أبو بكر الجيش الذى بعثه فى حروب الردة « أن يؤذّنوا إذا نزلوا منزلا ، فإن أذن القوم فكفوا عنهم . . وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقروا فاقبلوا منهم ، وأن أبوا فقاتلوهم » .

---

(١) كتبت هذه المقالة سنة .

ولذلك لما تسرع خالد بن الوليد فى قتل مالك بن نويرة بعد أن أظهر الإسلام ، كان فى ذلك موضع المؤاخذة ، وطلب عمر من أبى بكر أن يقتص منه ، ولكن أبا بكر قبل عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين ، وأسرّها عمر فى نفسه ، حتى إذا ولى الخلافة عزل خالدا عن الإمارة .

* * *

فلا تكون حرب حتى تكون دعوة وحتى يكون رفض ممن وجهت إليهم الدعوة ، فإذا وقعت الحرب فهناك قيود للجيش المحارب ينبغى ألا يعدوها ، ولعل أوضحها وأجمعها ما روى أنه «لما بعث أبو بكر يزيد بن أبى سفيان إلى الشام خرج معه أبو بكر يوصيه ، ويزيد راكب ، وأبو بكر يمشى ، فقال يزيد : ياخليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازل وما أنا براكب ، إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، يا يزيد ، إنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم فى هذه الصوامع (يعنى الرهبان) فاتركوهم وما حبسوا أنفسهم له . . . ولا تقتلوا كبيرا هرما ولا امرأة ، ولا وليداً ، ولا مريضاً ، ولا راهباً ، ولا تخربوا عمرانا ، ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ، ولا تغدر ولا تمثل ، ولا تجبن ، ولا تغلل ، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله لقوى عزيز . أستودعك الله وأقرئك السلام ، ثم انصرف » .

وقال عمر : «اتقوا الله فى الفلاحين ، فلاتقتلوهم إلا أن ينصبوا لكم الحرب»

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة من غزوات المشركين بامرأة مقتولة ذات خلق ، اجتمع الناس عليها ، فقال رسول الله : ما كانت هذه لتقاتل ! وسأل : من قتل هذه ؟ فقال رجل أنا أردفتها خلفى ، فأرادت أن تقتلنى فقتلتها ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بدفنها .

وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا بعث جيوشه

قال : اخرجوا باسم الله تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة : لا تقتلوا الذرية فى الحرب . فقالوا : يا رسول الله أو ليس هم أولاد المشركين ؟ قال : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟

من كل هذا نرى أن القانون الإسلامى حصر الحرب فى دائرة من جندوا للحرب ، ومنع حرب من لم يجنّد ، إلا أن يكون له من الوسائل ما يساوى القدرة على الحرب ، كأن يكون شيخاً ولـكنه يساهم فى إبداء الرأى وتدبير المـكايد ، فإنه إذ ذاك يعد محارباً ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بدريد بن الصمة ، لأنه كان مع تقدم سنه يمد قومه بالرأى فى الحرب ، فأمر رسول الله بقتله . أما من عدا هؤلاء فقد حفظت دماؤهم ، وحوفظ على حقهم فى الحياة . ويعجبنى فى ذلك تعليل الفقهاء لهذا الرأى بقولهم « إن الآدمى خلق معصوم الدم ليمـكنه تحمل أعباء التـكاليف ، وإباحة القتل عارض بمحاربته لدفع شر ، فمن لم يتحقق شره بقى على أصل عصمة دمه » . بل تجاوز الإسلام حرمة المحاربين إلى حرمة ملـكية الأمم المحاربة ، فأمر باحترامها والمحافظة عليها ، فمنع قطع الأشجار وهدم البنيان . وكان من وصايا أبى بكر : « لا تقطع شجراً مثمراً ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله » .

* * *

ثم أمر الإسلام أمراً باتا جازماً حاسماً بالتزام ما يعقد من معاهدات ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعُقُود » و « أوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

ولما عقد النبى صلى الله عليه وسلم الصلح مع قريش — وكان فيه إجحاف

بالمسلمين ، إذ قد اصطلحوا « على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أن من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه » فارتاع بعض المسلمين من ذلك الصلح ، ودخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، وصرخ المسلمون الذين ردوا إلى قريش — قال رسول الله : « إنا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله و إنا لا نغدر بهم » .

وانظر إلى عمر لما اضطر إلى إلغاء عهد من العهود ماذا صنع ؟ قدم عليه عمير ابن سعد الأنصارى وقال له : « إن بيننا و بين الروم مدينة يقال لها « عربسوس » و إن أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ، ولا يظهروننا على عورات عدونا ، ولهم علينا عهد ، واستشاره فى أمرهم ، فقال عمر : « فإذا قدمت فخيرهم أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين ، فإذا أرضوا بذلك فأعطهم إياه وأجلهم واخربها ، فإن أبوا فانبذ إليهم وأجِّلهم سنة ثم اخربها » .

فالقوم هم الذين نقضوا العهد وأساءوا المعاملة ، وعمر هو هو الذى رحمهم واحتال عند إلغاء العهد ليكون أعدل ما يكون وأرحم ما يكون ، وتاريخ العهد الأول من المسلمين مملوء بمثل هذه الشواهد .

فلم يسمع المسلمون الأولون مطلقاً ، ولم يخطر لهم ببال ما عبر عنه بعض الممدنين المحدثين بأن المعاهدات قصاصات أوراق ، ولم يخضعوا المعاهدات — كما يفعل كثير من الممدنين — لمقياس فى المنفعة ، فإن كان فى نقضها منفعة لهم نقضوها ، وإلا احتفظوا بها ، بل لم يكن العربى يفرق فى التقدير ، ووجوب المراعاة بين العقد يمضى ، والكلمة الشفوية ينطق بها ، كلاهما ملزم وكلاهما واجب التنفيذ .

* * *

ثم دعا قانون الإسلام إلى تلبية الدعوة إلى الصلح فقال : « وإن جنحوا

للسّلم فاجنح لها » لأن الغرض إذا تحقق كان القتال عبثاً ، ثم كان أساس الصلح لا يستفز عاطفة ، ولا يترك فى النفوس حقداً ، ولا يبعث على تحفز للقتال ، فكتب عمر إلى أبى عبيدة فى حصاره حلب « ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه » وكتب لأهل إيلياء (بيت المقدس) : « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

وجاء فى عهد حذيفة بن اليمان : « هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان لأهل (ماه دينار) أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم ، لا يغيرون عن ملة ، ولا يحال بينهم و بين شرائعهم ، ولهم المنعة ما أدوا الجزية كل سنة إلى من وليهم من المسلمين ، على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقرَوا جنود المسلمين من مرّ بهم فآوى إليهم يوماً وليلة ، ونصحوا ، فإن غشوا و بدّلوا فذمتنا منهم بريئة » وأمثال هذا كثير .

* * *

فليت المدنية الحديثة فى القرن العشرين وقد برعت فى العلم وتفننت فى المخترعات وتقدمت فى كل مرفق من مرافق الحياة ، تعود بنظرها إلى قرون عدة حيث الفتح الإسلامى ، فترى قانون الحرب وقانون السلم على أسمى ما يكون من الإنسانية فتلتزمه ، ولو تم ذلك لأمنت المدن البريئة من الغزوات ، وأمن غير المحاربين من الغارات ، وأمنت السفن التجارية من الغواصات ، وأمن سكان القرى والمدن من الطائرات ، ولو تم ذلك أيضا لوضع الصلح يوم يوضع على أساس القومية ، ولخير العالم لا خير أمة ، ولاستئلال الضغائن لا لوضع بذور الضغائن .

لقد مرت على الإنسان دروس حروب كثيرة ولـكنه لم يتعلم منها ، نعم تعلم في تقدمه فى فن الحرب وكيفية التغلب على الخصم واختراع المخترعات وإنشاء الاستحكامات ، ولـكنه لم يتعلم من ويلات الحرب كيف يقضى على الحرب ، فلعل الحرب الأخيرة تـكون الدرس الأخير ، فيتعلم جاهل ويصلح فاسد وتتعزى الإنسانية عما يصيبها فى حاضرها بالخير العام فى مستقبلها .

المدارس الغربية فى البلاد الشرقية

كانت البلاد الإسلامية تعيش على الكتاتيب المتوارثة منذ العصور الوسطى ، فهى تحفّظ القرآن ، فإن زادت شيئاً فهى تعلم طرفاً من الحساب . وإذا أراد الطالب أن يتمم تعاليمه ذهب إلى الأزهر أو معاهد تشبه الأزهر . حتى غزتنا المدنية الغربية بالتعليم بعد أن غزتنا بالسيف والنار . وقد بُهر الشرقيون أول الأمر بهذه المدارس الغربية ، إذ رأوا فيها نظاماً خيراً من نظام مدارسهم ، ومناهج خيراً من مناهجهم . وهم يعلمون الناشئين فيها لغة أجنبية تعليما ناجحاً ، حتى ليقربوا من أن يكونوا كأهل اللغة أنفسهم ؛ طلاقة لسان ، وسهولة بيان . وهم إذا تعلموها وضعوا أعينهم على ثروة كبيرة من الآداب الأجنبية يرون فيها كتبا ومجلات تريهم الدنيا الحاضرة لا الدنيا الماضية ، فيقبلون عليها ، ويأنفون من لغتهم وأدبها . لذلك كله استُقبلت هذه المدارس بالترحيب ، وتعاونت الحكومات المختلفة على التسهيل لها فى مهامّها ، فهى تمنحها أراضى بثمن صورى ليقيموا عليها مدارس ، وهى تعفيهم من الضرائب الجمركية على ما يأتى إليهم من أدوات وكتب ، بل قد تمنحهم مساعدات مالية . وقد تقدم إليهم مدرسين ليدرسوا لغة البلاد ، وتدفع لهم أجورهم . ومن مظاهر إقبال الناس عليها أن أرسل كثيرون من أعيان الناس ووجهائهم أولادهم وبناتهم إلى هذه المدارس ، حتى ليرسل بعض وزراء المعارف أولادهم إليها .

وكان من مزاياها أنها خرّجت كثيراً من طليعة المصلحين والزعماء ، فقد تعلموا فيها ، وقرأوا الكتب باللغات الأجنبية التى تمجد الحرية ، وتدعو الشعوب إلى الاستقلال ، فآمنوا بذلك ، وحرّضوا شعوبهم على المطالبة بالحريات

والاستقلال ولكن حدثت حوادث كشفت الأخطار التى تؤدى إليها هذه المدارس ، فأغلبها يبشر بالنصرانية ويخدم السياسة الاستعمارية .

« فمن أوائل هذه الحوادث فى مصر مثلا أن جماعة من المبشرين نصّرت فتى مسلما ، وحملته على أن يعظ الناس فى المجامع والكنائس ويدعو إلى النصرانية ، فحزّ ذلك فى نفس السيد جمال الدين الأفغانى واتفق مع جماعة من الإيرانيين أن يخطفوه وهو يعظ فى كنيسة فى حىّ الأزبكية ، ففعلوا ذلك ، ووضعه السيد جمال الدين فى مكان خفىّ ، وذهب هو وتلميذه الشيخ محمد عبده ليقنعا الشاب المتنصر بالرجوع إلى دينه ، ويبينا له سوء فعلته ، فعاد إلى الإسلام . وكان من أثر هذه الحادثة وأمثالها أن تنبّه الناس إلى خطر المدارس الأجنبية من ناحيتين : ناحية الدعوة إلى التنصير ، وناحية ما عرف عنها من أنها أداة من أدوات الاستعمار » .

وحدث أن كان الشيخ محمد عبده عضوا فى مجلس المعارف الأعلى سنة ١٨٨١ ، فقدم اقتراحاً للمجلس بجعل جميع مدارس الأجانب فى القطر المصرى تحت مراقبة الحكومة وتفتيشها فعارض أعضاء المجلس من الأجانب وأمثالهم ، ولكنه فاز فى ذلك بالأغلبية . غير أن وقوع البلاد بعد ذلك فى يد الاستعمار جعل هذا القرار حبرا على ورق . فقد كان كبار ساسة الإنجليز كاللورد كرومر عميد الإنجليز فى مصر ، ومستر دانلوب مستشار وزارة المعارف فى مصر يؤيدون المدارس الأجنبية كل التأييد ، ويخدمون المبشرين ما وسعهم ، حتى لأَعلمُ أن اللورد كرومر طلب من وزير الأوقاف إذ ذاك أن يلغى مستشفى بنته وزارة الأوقاف فى حى مصر القديمة ، لأنه كان على مقربة من مستشفى هرمن ، فوعد الوزير بأنه سينقل المستشفى إلى مكان بعيد عن مستشفى التبشير .

وفى الواقع ، إن حكومات المستعمرين وضعت أمام أعينها إنشاء المدارس الأجنبية فى الشرق لأسباب كثيرة :

منها نشر الثقافة الأجنبية ، والنشء إذا تثقف بثقافة قوم أحبهم ودعا لهم ، ولذلك تزاحم الإنجليز والفرنسيون والألمان والأمريكان على ذلك . ومنها الرغبة فى تنصير أبناء الشرق ما استطاعوا . وقد رأوا أن خير الوسائل فى التبشير أمران : التعليم فى المدارس الأجنبية ، والمستشفيات ، إذ ينتهزون فرصة مرض المريض فيدسّون له الدعوة إلى التنصّر .

وكان أول دعاة نشر التعليم والتبشير البعثات البروتستانتية ، فقد كانوا أول من أدركوا أن التعليم أحسن ميدان للتبشير وإذ كانت الشعوب الأوربية والأمريكية متحمسة لنشر دينها ، أمدّت هذه المعاهد بالأموال الكثيرة .

قال بعض هؤلاء المبشرين « إن أهداف المدارس والكليات التى تشرف عليها هذه البعثات هى التنصير . حتى إن الموضوعات الدنيوية التى تعلّم فيها ، كالجغرافيا والتاريخ تحمل معها الآراء النصرانية » وقال آخر : « إن التعليم أنفع وسيلة يستغلها المبشرون لتنصير الأفراد » واشترطوا فى الأساتذة المدرسين فى هذه المدارس أن يكونوا مسيحيين ما أمكن ، لأن دين المعلم يؤثر ولو من طريق خفىّ فى تلاميذه . ولذلك أيضاً تحتفظ ما أمكن بوضع منهج خاص يحقق أغراضها ، ولا تسير على مناهج البلاد إلا إذا شعرت بالقوة واضطرت إلى ذلك اضطراراً .

ومن غريب الأمر أن هؤلاء المبشرين شديدو التحمّس لنشر دينهم ، فهم يتحملون من أجل ذلك كل ما يصادفهم من صعاب ، ولو أدت إلى ضياع أرواحهم . ولخدمة أغراضها لم تتورّع من تحريف التاريخ ، فصبّته فى صيغة خاصة ، ولوّنته باللون الذى يعجبها ، وطعنت فى أديان الشعوب الذين لا يدينون

بالنصرانية ، حتى تنشر نصرانيتها . وكل يوم كان يحدث فى مصر مثلا بعد أن تنبه الوعى القومى أن يكتشف طعن فى هذه الكتب فى الدين الإسلامى أو محمد عليه الصلاة والسلام أو فى المسلمين ، فيثور الرأى العام على ذلك ، ثم تجمع هذه الكتب من يد التلاميذ وتنطفئ الثورة .

ومن مكرهم أنهم رأوا أن يوجهوا أكبر همهم إلى تعليم البنات ، فأنشأوا لهن المدارس الخاصة ، علماً بأن البنات سيكونن أمهات ، فإذا كن قريبات من النصرانية ، أثرن فى أولادهن .

وانتشرت المدارس الأجنبية فى الشرق انتشاراً كبيراً ، حتى كان فى الشام وحدها ١٧٤ مدرسة أمريكية منبثة فى المدن والقرى ، وغزت أنواع التعليم كله من رياض الأطفال ، إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت والجامعة الأمريكية فى القاهرة ، والجامعة الأمريكية فى استامبول . وأجبروا الطلبة على دخول الكنيسة فى المدارس ، وحضور الصلاة ، فلما أضرب الطلبة قال قائلهم « إننا نأخذ الأموال من المتبرعين بعاطفة نشر الدين ، ونحن إذا أبطلنا الدين من المدارس لم نجد من يتبرع لها » .

ولكن الذى حدث أن هؤلاء المبشرين لم ينجحوا نجاحاً كبيراً فى نشر الديانة النصرانية ، وخصوصاً بين المسلمين ، لأن فى الإسلام حصانة قوية . فاضطروا إزاء ذلك الفشل أن يحوّلوا مناهجهم ، ويصلحوا أساليبهم ويتساهلوا فى إجبار الطلبة على حضور الصلوات فى الكنائس . ولكن مع الأسف اكتشف أن هذه المدارس — وقد عدلت عن التبشير القوى بالنصرانية — أخذت تخدم السياسة الاستعمارية .

وممن تنبه إلى ذلك أشد التنبه الأتراك فى بلادهم ، فقد منعوا الأطفال المسلمين من دخول مدارس المبشرين وجعلوا التعليم فى هذه المدارس قاصراً على

المسيحيين ، وفى عام ١٨٨٨ أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الأمريكيين . وكان من أنشط مدارس التبشير بالنصرانية و بالسياسة اليسوعيون ، فقد ضيقت فرنسا عليهم فى بلادها ، وشجعتهم كل التشجيع فى خارج بلادها . ومن الغريب أيضاً أننا نلاحظ أن أكبر أعداء المبشرين هم المسلمون ، فهم أعدى لهم من الوثنيين واليهود ، لأسباب يطول شرحها ؛ أهمها أنهم ورثوا العداء للمسلمين من أيام الحروب الصليبية ، وأنهم يرون الإسلام يحوط أتباعه بسياج قوى لا ينفذ إليه التبشير ، وأنه دين يحارب الاستعمار والانتداب ، ولا يرضى إلا أن يحكمه أهله .

وبعد ، فواجب الشرق ألا يشجع هذه المدارس لأنها مأوى التبشير والاستعمار معاً ، وهى تجعل من نفسها داعية لدين غير دين البلاد ، كما تجعل من نفسها حكومة داخل حكومة البلاد ، وفى ذلك إهدار للاستقلال ، ومدعاة للفساد .

إن الأمم الحيّة الحريصة على توحيد كلمتها وتوحيد آمالها ، تصب أبناءها فى قالب واحد ، حتى يكونوا متفقين متساندين ، أما هذه المدارس فتجعل أبناء البلاد شيعا ، كل طائفة تصطبغ بصبغة خاصة ، و إذ ذاك تتضارب الميول ، وتتنازع الآمال ، ويكون أبناء البلد الواحد ، بعضهم أعداء بعض ، وفى ذلك من الفساد ما لا يخفى !

الأخلاق الاجتماعية

هنالك أخلاق يصح أن نسميها أخلاقاً فردية ، وهي التي يقصد بها أول الأمر إلى إصلاح الفرد وترقيته ، كالصدق والعفة وضبط النفس . وإن كانت آخر الأمر ترقى المجتمع كما ترقى الفرد بطبيعة أن المجتمع يتكون من الأفراد . وهنالك أخلاق اجتماعية يقصد بها أول الأمر إلى إصلاح المجتمع ، كأداء الواجب والتعاون .

ويتجلى هذا التقسيم أيضاً في الغرض الذي يرمى إليه الفرد ، فأحياناً يكون غرضه تحسين حالته الفردية ، فيصوغ أعماله وفق هذا الغرض ، فقد يقصد — مثلا — إلى أن يكون غنياً ، فيوجه أخلاقه وأعماله هذه الجهة ، ويشكل حياته التشكيل الذي يتناسب وهذه الغاية ، من جد في العمل وحسن سمعة واقتصاد ، وما إلى ذلك ، وقد يرمى إلى أن يكون عالماً ، فيتخلق بالأخلاق التي تمده لهذه الغاية من جد وصبر على البحث ، وسعة اطلاع وعمق في الدراسة ، وبجانب هذا قد يكون غرضه رقى مجتمعه ، فيبذل المال لبناء مدرسة ، أو تأسيس مستشفى أو نحو ذلك مما يفيد المجتمع الذي يعيش فيه ويرقيه .

والذي نلاحظه على الشرق عامة أن الأخلاق الفردية تحسنت وارتقت إلى حدّ ما أكثر مما تحسنت وارتقت الأخلاق الاجتماعية . ولعل أكبر ما يوضح ذلك خلق التعاون ، فهو في الشرق على العموم ضعيف . ويتجلى ضعفه في الأعمال التي تحتاج إلى تنظيم الجهود كالنقابات والشركات والجمعيات الخيرية ، وما إليها . فهي لا تنجح عادة كما تنجح أعمال الأفراد . وكثيراً ما نسمع بعشرات الجمعيات ومئات اللجان ، والعدد العديد من الشركات والنقابات تتأسس ثم لا تلبث أن تفشل . وقد نلاحظ أن ما ينجح منها ، وما يقدر له البقاء إنما هو في الحقيقة عمل

فرد فى شكل شركة ، أو نقابة ، أو جمعية . فهى ترزق بفرد جاد نشيط أمين ، يتحمل العبء كله أو أكثره ، ويقوم بمهام الأعمال كلها أو أكثرها ، ثم يظن أن العمل عمل جماعة ، والنجاح نجاح جماعة ، والحقيقة أنه عمل فردى ، والنجاح نجاح فردى .

فالأخلاق الاجتماعية لم ترتق الرقى الكافى ، والنظر إلى الغاية التى ترمى إلى رقى المجتمع لم يكن متوفراً فى الكثير من الناس . وتتغلب النزعة الفردية على النزعة الاجتماعية ، ويضعف الشعور « بنحن » عن الشعور « بأنا » والناس قد يشعرون بحاجة مجتمعهم إلى مرافق كثيرة لعلاج الجهل والفقر والمرض ، من مستشفيات وملاجئ ومؤسسات علمية ونحو ذلك ، ثم لا يتحركون لإخراج هذا الشعور إلى حيز الوجود ، لأنه يتطلب عملا تعاونياً دقيقاً منظماً وهو ما لم يصلوا إليه بعد . ولذلك يخفون هذا النقص إما بكثرة الكلام فى وصف العيوب من غير عمل ، وإما برمى العبء كله على حكوماتهم ومطالبتها أن تقوم بكل شىء وهم لا يقومون بشىء .

وربما تجلى هذا النقص الاجتماعى أيضاً فى الأحزاب السياسية ، فالانضمام إلى حزب والخروج منه ، يبعث عليه فى الغالب الأعم نظر العضو إلى مصلحته الشخصية ، أكثر من نظره إلى المبادئ الأساسية التى يدعو إليها الحزب ، ثم النظر إلى الزعيم من هو وما صفاته أكثر من النظر إلى نوع الإصلاح الذى يدعو إليه الحزب ، بل إن الأحزاب لا تتميز بالمبادئ وإنما تتميز بالزعماء — وقلما ترى أعمالا عظيمة أنشئت بتبرعات قام بها الأفراد لخدمة المجتمع ، والقليل الذى أسس منها كان الداعى إلى التبرع له خشية ذى جاه أو سلطان ، أو رغبة فى التقرب إلى مدير أو رئيس حكومة أو نحوها ، أكثر من أن يكون الباعث عليه الشعور بالحاجة إلى مؤسسة تصح المريض أو تغيث الفقير .

وعلى الجملة فإن هذه الظاهرة — أعنى ظاهرة عدم التعاون الاجتماعى —

واضحة فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، فتتجلى فى السياسة بعدم تعاون الأحزاب السياسية حتى فى الأزمات الحرجة ، وتتجلى فى الناحية الاقتصادية بعدم نجاح الشركات والنقابات والمصارف إلا قليلا . وتتجلى فى الناحية الاجتماعية بقلة المؤسسات الخيرية .

خلق التعاون يتطلب شعوراً عميقاً بأن الفرد نتيجة لمجتمعه ، وبأن الخير الذى يناله أتى من مجتمعه ، فلولا مجتمعه ما وجد ، ولولا مجتمعه ما سعد ، فهذه العقيدة تؤدى إلى شعور بوجوب سداد هذا الدين ، وذلك بالنزول عن جزء من ماله أو عن جزء من جهده وصحته ونشاطه وعلمه زكاة عما ناله من مجتمعه . وهذا الشعور مع الأسف لا يزال فى حالة بدائية . وسر ما نحن فيه من متاعب هو نقص هذا الشعور — حتى إضراب رجال البوليس والممرضين وأمثالهم إنما حملهم عليه نظرهم إلى شخصهم كطوائف لا إلى الأمة كأمة .

ومن الغريب أن هذه الناحية الخلقية الاجتماعية لم ترتق رقياً سريعاً واضحاً كالرقى الفردى فما السر فى هذا ؟

لعل السبب أن الشعور « بنحن » متأخر فى الطبيعة وفى الوجود عن الشعور « بأنا » شأن المجتمع فى ذلك شأن الطفل ، لا يشعر فى أول وجوده إلا بنفسه ، ويريد أن تكون الدنيا كلها له ، حتى إنه ليطلب من أبويه أن ينزلا له الشمس ليضمها فى يمينه والقمر ليضمه فى يساره ، ولا يفرق فى ذلك بين ممكن ومستحيل . ولا يأتى الشعور « بنحن » إلا متأخراً عندما تصطدم رغباته برغبات إخوته وأسرته ، ثم رغباته برغبات إخوانه فى المدرسة ، ثم بالناس فى الحياة ، فيبتدئ الشعور بالغير ، وينمو بالتجارب ، وهذا قانون طبيعى ، فأفراد الأمة فى مبدأ حياتهم كالأطفال لا يشعرون إلا الشعور الفردى الأنانى ، فإذا رقوا شعروا الشعور الاجتماعى ، ثم إذا زاد رقيهم زاد شعورهم ، فكانت التضحية .

أو لعل السبب ما توالى على الشرق من استبداد وظلم ، والاستبداد يميت

النفس ويثير شعور السخط على من بيده الحكم ؟ ويحمل الفرد على كره المجتمع الذى يعيش فيه ، لأنه فقد فيه حريته ، والظلم إذا شاع فى المجتمع جعل الفرد لا يفكر إلا فى أن ينجو بنفسه ، ونتيجة هذا كله التفكير فى النفس لا فى الغير ، والتخلق بالأثرة لا بالإيثار .

أو لعل السبب أن الأخلاق الاجتماعية فى الغرب نشأت عما حدث فيه من الانقلاب الصناعى ، فالآلات الجديدة والمخترعات وتقدم الصناعة احتاجت إلى كثير من رءوس الأموال وتأسيس المصانع وتعاون العقول التى تديرها وتعاون الأيدى التى تعمل فيها . فكان من ذلك الشعور القوى بأن التعاون لا بد منه لنجاح هذه المشروعات الضخمة فتعاونوا وأصبح التعاون خلقا يتوارثه جيل عن جيل ، ولذلك بدأ التعاون يظهر فى الشرق عندما بدأ يتحول من اعتماد على الزراعة وحدها إلى اعتماد أيضاً على الصناعة .

أو لعل كل هذه مجتمعة هى الأسباب فى ذلك . وأيا ما كان فلا نجاة للشرق من أزماته المختلفة وما يحيط به من أخطار إلا بتخلقه بالأخلاق الاجتماعية .

ميادين القتال

بين الأجناس والأمم والطبقات

أحب الحديث إلى النفوس ، ما وافق الظروف ، فمن اللياقة أن نتحدث في الكوارث والمصائب والصبر عليها في المآتم ، وأن نتحدث في السعادة والسرور والهناء في حفلات العرس ، فإن أنت عكست فغنيت نغمة حزينة في عرس ، أو نغمة سارة في مأتم ، رميت بضعف الذوق وقلة اللياقة .

والناس الآن كلهم في حالة حرب وحديث حرب واستعداد لحرب . فلنختر موضوعا للكتابة يتفق وهذه الحالة النفسية ، وإلا كان الكلام غثاً بارداً وحديثاً سمجا . والكاتب كالمغنى ، يجب أن يساير الشعور ، ويراعى العواطف ، ويتخير لكل مقام مقال ، ولكل موقف أنشودة . ولكن إن كان الكاتب موظفاً وجب أن يبتعد عن السياسة ، فهو إذا اختار موضوعاً سياسياً كعنوان هذه المقالة وجب أن يكتب فيه علمياً أو أدبياً ، ويترك للساسة أن يعالجوه سياسياً ، فهم به أعرف وعليه أقدر وبحكم ظروفهم أصرح .

والعالم كله ميادين قتال فحيثما التفت وجدت ميدانا ، ووجدت حروباً ، ووجدت ضحايا ، فكأن الذى خلق الخلق سلط بعضهم على بعض ، فهم فى نزاع مستمر وحرب دائمة . إن نظرت إلى الحيوانات فهى تتناطح دائماً ، ويفترس القوى الضعيف دائماً ، ذئب يفترس شاة ، وسبع يفترس ذئباً وهكذا . وميدان قتالهم فسيح لا حد له .

وإن نظرت إلى الإنسان والحيوان وجدت ميداناً آخر للقتال بديعاً ، إنسان يفترس دجاجا وشياهاً وأنعاماً ، وأسد يفترس إنساناً ، وميكروب يفترس هؤلاء

جميعاً . و إن نظرت إلى عالم الإنسان وحده وجدت ميادين القتال أروع ، والحرب فيها أبرع ، ووجدت ما كان فى الميادين الأخرى عن غريزة ساذجة ، وانفعال فطرى هو فى الإنسان وليد الغريزة والعقل معاً ، برز العقل فى الميدان ، فكان أبرع ما كان ، عرف كيف يستخدم العلم والطبيعة وكل شىء فى الحياة فى حروبه ، فكان فتكه ذريعاً ، وحصده شنيعاً ، وسلاحه مبيداً ، واختراعه و بيلا .

وكل يوم يمد العقل ميادين القتال بصنوف المهلكات والمدمرات ، ويعم الميادين من الأرض إلى السماء ومن البر إلى الماء ، و يمعن فى اختراع الآلات من حجر إلى رصاص ، ومن رصاص إلى غازات ، ومن غازات إلى ما لا يعلمه إلا الله خالق العقل — ثم هو لا يكتفى بما عرف عن الحيوان من قتال ، بل يقاتل فى المعانى كما يقاتل فى الأجسام ، فهناك ميادين للقتال فى الأخلاق وميادين فى الشهوات ، وميادين فى النظم الاقتصادية والاجتماعية ، فكانت ميادينه لا تحصى ، ولا يمكن أن تستقصى . فإن قلت إنك فى كل خطوة تخطوها ، وفى كل حركة تتحركها ، وفى كل معاملة خلقية ومالية واجتماعية تصدرها فأنت فى ميدان حرب ، و إنك كاسب فى كل منها أو خاسر ، و إنك تظفر بعدو لك أو يظفر بك عدوك ، لم تعدُ الصواب ولم تخطئ القول .

ولكن إن اتسعت الميادين بهذا الشكل لم يستطع الكاتب أن يشملها بالكتابة وأن يعمها بالقول جملة ، فخير أن يختار منها ميدانا يصفه ، و يقتصر على شرحه ، فلنكتف اليوم بأهم أنوع القتال بين بنى آدم .

١ — ميادين القتال

إذا دققنا النظر وجدنا أنها أنواع ثلاثة : القتال بين الأجناس والقتال بين الأمم والقتال بين الطبقات :

القتال بين الأجناس :

فالعداء بين الأجناس سببه الاختلاف الطبيعي والاجتماعي بينهم ، فالإنسان من طبيعته العطف والميل والتعصب لمن يشاركه فى لونه وملامحه وشعره وملبسه ، وقد جر هـذا العطف إلى التعاون بينه و بين أمثاله من هذا القبيل ، فتقاربوا كذلك فى الأخلاق وفى العقلية وفى المظاهر الاجتماعية فتأكدت بينهم الصلة ، كما أن من طبيعته الـكره والبغض والتعصب على من لا يشاركه فى تلك الخصائص الجسمية ، فجر هذا الـكره إلى عدم التعاون ، فتباعدوا فى الأخلاق وفى العقلية وفى المظاهر الاجتماعية فبعدت مسافة الخلف بينهم — وعملت الوراثة والبيئة عملهما فى توثيق الصلة بين الأولين ، وشدة التنافر بين الآخرين . وأصبح الخلاف بين السود والبيض مثلا ليس خلافا فى اللون وحده بل خلافا فى العقلية والأخلاق وفى الحياة الاجتماعية وفى النظر إلى الأشياء وتقويمها وفى الحياة الاقتصادية وغيرها .

وليس القتال بين الأجناس المختلفة الألوان مقصوراً على القتال لتحصيل العيش ؛ بل هو كذلك قتال على السيادة . فالجنس الأبيض — مثلا — يرى أن له من المزايا والصفات ما يؤهله أن يحـكم الجنس الأسود ويسيطر عليه — وأكبر مظهر لحرب الأجناس المشـكلة التى بين البيض والسود فى أمريكا . فقد بدأ النزاع بينهما من القرن السابع عشر وما تزال هذه المشـكلة إلى اليوم أهم مشاكل الولايات المتحدة — والنظريات العلميـة تتنازع بينهما تنازع الجنسين أنفسهما . فنظرية ترى أن استعداد السود لا بأس به ، وأنهم يصلون فى الأعمال الاقتصادية والحـكومية وفى الفنون إلى درجة ليست بالمنحطة وأنهم إن لم يبلغوا شأو البيض فليس لقصر فى استعدادهم ، وإنما هو لما أحاط بهم من ظروف ، ولعزلتهم وعدم معاونة البيض لهم ونحو ذلك من أسباب . ونظرية ترى أن استعدادهم الفطرى ضعيف وعقليتهم منحطة — مهما هيىء لهم من ظروف . وأنه

مهما أعينوا وسوعدوا فلن يصلوا إلى درجة البيض بحال — وعلى هاتين النظريتين ثارت مشاكل فرعية : هل يصح تزاوج السود والبيض ؟ وإلى أى حد يسمح للسود بالاشتراك فى المسائل الاجتماعية والسياسية ؟ إلى كثير من أمثال ذلك .

وليس النزاع بين السود والبيض فى أمريكا هو المثل الوحيد فى النزاع بين الأجناس . فالحقيقة أن هذا النزاع دائرته أوسع مما يظن ، فحركة مصر والهند نحو الاستقلال ، والعداء بين أمريكا واليابان ، وحركة الأمم الشرقية جميعاً نحو التحرر من الاستعمار والانتداب ، من أسباب الاختلاف بين الأجناس ولست أقول أنه هو السبب الوحيد .

وكثير من العلماء يرى أن هذا النحو من النزاع آخذ فى الضعف لأنه يرجع إلى العواطف الموروثة التى تبعث على الكراهية ، فإذا حل محلها العقل وحسن التقدير وسعة النظر قل هذا العداء وضبطت هذه العواطف ، وأدرك الناس أن هـذا النزاع ليس فى مصلحة أحد المتخاصمين ولا فى مصلحة الإنسانية ، وأن تعاون الأجناس خير لكل مرافق الحياة سواء كانت اقتصادية أم علمية أم سياسية أم اجتماعية .

القتال بين الأمم :

وهذا النزاع بين الأمم يرجع عادة — أيضاً — إلى سببين : سبب نفسى وسبب اقتصادى : فالنفسى منشؤه الاختلاف بين الأمم فى الأخلاق والعادات والمميزات والثقافة والتاريخ . والسبب الاقتصادى منشؤه قلة الحاجات بالنسبة إلى سعة الرغبات . فخيرات الدنيا أقل من شهوات الأمم . ولذلك يشتد النزاع وتتسابق الأمم للحصول على أكبر قسط منها فيكون الاصطدام .

وهذا النزاع الذى بين الأمم هو بعينه الذى كان بين القبائل أيام البداوة . وبين الأشراف أيام حكم الإقطاع . فلما تكونت الأمم بحكم الظروف بدأ هـذا

النزاع القبلى والاقطاعى يتحولى إلى نزاع أممى . وعظم شأنه بعظم المتحاربين . فالقبيلة قليل عددها ، ضعيف دخلها ، محدودة قدرتهـا . فلما حاربت قبيلة قبيلة أخرى مثلها كان القتال بنسبة قوتهما . فلمـا قوى المتحاربون وأصبحت وحدة الجبهة هى الأمة لا القبيلة زادت و يلات الحروب وعظم خطرها .

والغرض الذى ترمى إليـه الحروب بين الأمم — كذلك — نفسى ، واقتصادى . فالاقتصادى تحصيل خيرات الأمم المغلوبة و إذلالها و إخضاعها لحـكمها — وهذان الغرضان كانا وما زالا يعذبان نفوس الشعوب و يدفعان أفراد كل أمة للتعصب الشديد لأمتهم والعداء الـكامن لغيرهم .

ولـكن أخذ يتجلى للناس شيئاً فشيئاً أن هذا القتال لا يحقق الغرض منه . فمن الناحية الاقتصادية قل أن تساوى نتائج الحرب ما ضاع بسببها ، سواء فى ذلك الغالب والمغلوب . وكل أمة هى فى الواقع عامل من عوامل الثروة فى العالم . فإذا أضعفت ضعف إنتاجها فيتضرر العالم من ضعفها . ومن الناحية النفسية لا خير فى هذا العداء ولا فى هذا التعصب فهو نفسه يزيد الحالة الاقتصادية سوءاً و يزيد النار وقوداً . والعلماء القائلون بهذا يتفاءلون بأن العالم صائر إلى أن يفهم هـذه الحقيقة فهماً جلياً فتقل الحروب أو تنمحى . فكما كان فى القديم إذا خاصمت أسرة أسرة حاربتها . و إذا خاصم فرد فرداً بارزه ، ثم ترقى النـاس فأحلوا التفاهم محل القتال و إذا لم يكن تفاهم فهناك محاكم يخضع لها المتخاصمون . فكذلك يجب أن يكون الشأن فى الأمم ، لا تتحاكم إلى السيف و إنما تتحاكم إلى العدل — ولـكن كلما أمل المتفائلون خيراً أتت حوادث العالم فخيبت ظنهم وأقصت أملهم .

القتال بين الطبقات :

كل أمة جاوزت طور البداوة نشأ فيها جماعات ممتازة — وأوضح شىء فى هذا الامتياز هو الثروة أو الملـكية . وهذه الثروة هى السبب فى كل الامتيازات الأخرى

فالغنى ينشأ عنه سعة أوقات الفراغ فليس يصرف الزمن كله فى تحصيل القوت . ومتى وجد الفراغ استطاع صاحبه أن يتفرغ للعلم أو الفن ، وبذلك يكبر عقله ، ويرقى ذوقه . فتصبح الطبقات متميزة فى الثروة والثقافة جميعاً ، والثروة والثقافة تسببان قوة ، وهم يستخدمون هذه القوة فى مظاهر مختلفة ، فتمايز الطبقات فى الثروة والثقافة والقوة وما ينشأ عنها — وهذا التمايز يورث فى الأسر . فالأسرة ترث عن عميدها ثروة ، وترث جاها وقوة وترث ثقافة ، وبمضى الزمان واستمرار الإرث يزيد الفواصل بين طبقات الأمة . فتجد طبقة من الشعب أن ليس لها من الوسائل ما يثقفها ، ولا من الوسائل ما يحييها حياة طيبة صالحة ، ولا من الوسائل ما يمكنها من أن تكون لها مكانة فى المجتمع ، وترى طبقة الأغنياء ممتعة بكل هذه الوسائل . فيكون هناك ميدان ثالث من ميادين القتال — فكان قتال بين ملوك الأراضى وعبيدهم . وكان قتال بين أصحاب رءوس الأموال والعمال ، وكان قتال بين أصحاب الآلات الحديثة والصانعين بأيديهم . وعلى الجملة كان هناك قتال بين الأرستقراطيين والديمقراطيين — فالأستقراطيون يريدون أن يحتفظوا بثروتهم وبقوتهم وبجاههم والديمقراطيون يريدون أن يحيوا حياة خيراً من حياتهم ، وهم لا يرضون أن يكونوا عبيدا ، ولا يقنعون بالفتات الذى يتبقى من موائد الأغنياء ولا أن يعيشوا فى جهل وظلام ، فكان من ذلك صراع أى صراع يمتاز عن حرب الأجناس وحرب الأمم بأنه حرب دائم مستمر ، لا يظفر أحد الجانبين ظفراً إلا ويستعد للموقعة التى تليها وهكذا تنتهى الحياة بين حرب واستعداد للحرب وتوزيع للغنائم .

وقامت النظريات الاشتراكية وغير الاشتراكية تتنازع فى المبادئ تنازع الطبقات فى الحياة ، وكان ظفر الديمقراطية — على الجملة — أكبر ، وانتصارهم أتم وأبهر ، فحسن مركزهم فى الهيئة الاجتماعية واستطاعوا أن ينالوا حظاً من التربية والتعليم . وكانوا كلما ظفروا بشىء استخدموه فى الموقعة التى تأتى بعده . فاستخدموا تعلمهم واستخدموا القوانين المشروعة لهم فى تنظيم ساعات عملهم — ورفع أجورهم

فى المطالبة بأكثر مما نالوا و بحقهم أن يعيشوا خيراً مما عاشوا ، وحاربوا الأفكار الشائعة أن طبقة من الناس خلقت لتحكم وتنعم بالثروة ، وطبقة أخرى خلقت لتحكم ، وقالوا إن فى كل طبقة مزاياها وعيوبها ، وفى كل طبقة أناسا متميزين بفطرتهم واستعدادهم يستطيعون أن يتبوءوا أحسن المراكز و يتحملوا أشق التبعات لو أتيحت لهم الظروف ، وهؤلاء موجودون بين الفقراء كما هم بين الأغنياء .

وأهم مظهر للنزاع بين الطبقات كان فى تولى شئون الحكم ، كالنزاع بين طبقة المحافظين وطبقة العمال عند كثير من الأمم ، كما كان فى كسب الرأى العام بعرض كل فريق حججه وأدلته وشرح قضيته شرحاً مستفيضاً ليكسب الناس بجانبه و يفوز بتأييدهم له .

وكان أكبر نصر نشأ من هذا النزاع بين الطبقات تقرير حقوق الإنسان وسيادة المبادئ التى تقرر أن الحكومة إنما وظيفتها أن تخدم كل الطبقات على السواء لا طبقة خاصة . وألا تعير أى التفات إلى انقسام الناس إلى طبقات . وأن تتجه إلى الرأى العام من غير تمييز ولا تحيز . وأن تتيح الفرص فى التعلم والكسب والمناصب للناس على السواء ، وأن تنظم الشئون الاجتماعية على أساس المساواة لا على أساس الطبقات ، وأن تفهم الناس أن قيمة كل فرد إنما هى فى شعوره بالواجب وأدائه ، لا فى الفخر بأجداده وآبائه .

٣ — أساليب القتال

الصراع العقلى أليق الأساليب بالإنسان

أبنت فى المقال السابق أهم ميادين القتال : وهى الحرب بين الأجناس ، والحرب بين الأمم ، والحرب بين الطبقات ، ووعدت القراء أن أذكر فى هذا المقال أساليب القتال .

وأساليب القتال كذلك متنوعة الأشكال ، متعددة النواحى ، ولـكن أهمها أيضاً ثلاثة ، فلنحصر كلامنا فيها : وهى الحرب ، والصراع الاقتصادى ، والجدل والمناقشة والحجج والبراهين .

الحرب :

لسنا ننكر ما للحرب فى تاريخ العالم من أثر كبير فى تقدم الإنسان ، فالحرب بين الأفراد كان لها أقوى الأثر فى تقوية أخلاقهم ، والحرب بين القبائل أدت إلى قوة المجتمعات ، وإنشاء المدنيات ، والحرب بين الأمم أدت إلى شحذ الهمم والتسابق إلى المجد والتسامى إلى الـكمال .

فالحرب تدمر وتفنى ولـكن من يبق بعدها يكون أصلح للبقاء ، وأقوى على احتمال الآلام . فـكم من ملايين الأرواح أكلتها ، وكم من كنوز الأموال ابتلعتها ، ولـكنها مع ذلك كله قوت أخلاق الشعوب وعلمتها البذل والتضحية . والأمم التى لم تساهم فى الحرب ولم تتخلق بأخلاق الحرب تفنى وتموت . وقديما قالوا : « ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا » .

وكان أهم ما قدمته الحرب للإنسانية أنها علمت الشعوب النظام والخضوع لأوامر سلطة قوية تهيمن على شئونها ، وتدبر أمورها ، فـكان من أثر ذلك أن انتقل المتوحشون من حالة همجية إلى حالة استقرار وخضوع لنظام ، فتكونت الأمم ، وتقدمت المدنية .

ولـكن بتقدم الناس فى المدنية عظمت ويلات الحروب ، وصارت الموازنة بين منافعها ومضارها محل تفـكير العلماء ، فالحرب عمادها الفتح ، وطمع الفاتح فى الثروة من مال « المفتوح » . ولـكن هذا الأسلوب فى تحصيل الثروة — إذا نظر إليه من الناحية الإنسانية — أسلوب فاسد ، فالثروة المشروعة هى الثروة بالإنتاج

أو فى مقابل انتاج ، كالذين يربحون من تجارة أو صناعة أو نحو ذلك ، أما ثروة الحرب فثروة من جنس ثروة الغاصب أو السارق أو المقامر — وهى كذلك تحرك فى نفوس الفاتحين نزعات الطمع والقسوة والبغض وحب التدمير وغير ذلك من أوصاف تحتقرها الإنسانية — ثم هى تشغل الأمم المتحاربة وتصدها عن التقدم الحقيقى ، فهى تقضى زمانها الحربى فى حرب ، وزمنها السلمى فى استعداد للحرب وإصلاح لما أفسدته الحرب ، وفى ذلك بلاء عظيم .

ولقد كانت الحرب العظمى الأخيرة مجالا صالحا لدراسة العلماء نفعها وضرها ، إذ كانت مواد الدراسة فيها متوافرة ، وكانت أسبابها ونتائجها ماثلة بين أعينهم ، وكانت الدراسات الاجتماعية والاقتصادية قد تقدمت تقدما عظيما ، فاستطاعوا من ذلك كله أن يلقوا ضوءا قويا على مقدار ما استفاد العالم منها وما خسر .

لقد رأوا أن خسارة العالم منها كانت أكثر من الربح بدرجة عظيمة ، وأن أضرارها تفوق ما كان فى الحروب السابقة . وأكبر سبب فى ذلك قوة الجبهتين المتحاربتين — نعم إن فى كل حرب كان تدمير وخراب ، ولكن هذه الحرب كانت أكثر تدميرا وخرابا . فقبل هذه الحرب كانت الأسس الاقتصادية لكل أمة تكاد تكون مستقلة ، فإذا حاربت أمة أمة انتقلت مزايا الأمة المغلوبة إلى الأمة الغالبة فى سهولة ، وبقدر الغلبة . أما الآن فالأسس الاقتصادية ليست وحدتها الأمة ، ولكنها مشتركة بين الأمم — كشركة النفط فى العراق تشترك فيها انجلترا وفرنسا وأمريكا ، وهذا هو الشأن فى أهم منابع الثروة من صناعة وتجارة . فالحرب لاتنقل المغانم من يد إلى يد ولكنها تهدم البناء على الجميع ، على الأعداء والحلفاء ، وعلى الغالبين والمغلوبين ، وعلى المدافعين والمهاجمين ، ومن ثم كان الخراب فى الحروب الحديثة أتم ، والبلاء أعم . هذا إلى اتساع رقعة القتال وعدد المقاتلين . فلم يعد القتال بين أمة وأمة — غالبا — بل إن المصالح المشتبكة

جعلت القتال بين نصف العالم ونصفه الآخر تقريبا ، وبذلك كان الخراب في الأنفس والأموال ، لا يقاس به كل ما سبق من قتال .

لقد أحصى الأستاذ أروين (Irwin) مقدار الخسارة المالية في الحرب العظمى فكانت حسب تقديره ١٨٦٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار . وهذا كما يقول هو مقدار الخسارة المالية المباشرة فإذا أضيفت إليها الخسائر غير المباشرة من مثل تخريب الأملاك ووقوف حركة الانتاج كان المجموع ٣٣٧٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار . وكانت الخسارة المالية المباشرة في اليوم الواحد في السنة الأخيرة من الحرب تكلف الأمم المحاربة ٢٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار . وأحصى بعضهم الخسارة في الأنفس فكانت نحو عشرة ملايين من الجنود قتلى ، و بين مليونين وثلاثة ملايين عجزة . وليس يستطيع كاتب بليغ ولا شاعر مفلق أن يصف ما أصاب الناس فيها من هول وفزع وكرب . حتى كان كثير ممن نجا من القتل والجرح غير صالح نفسيا لمداومة الحياة . وكثرت بعد الحرب الوفيات . وزادت إحصاءات الأمراض . وورث الآباء القاتلون أبناءهم أعصابا مريضة ، وأوصافا سيئة . ولم يقف الأمر عند هذا بل إن الحرب هزت النظم الاجتماعية من أساسها فبلبلت الآراء والأفكار في القانون وفي العقائد وفي الأخلاق . وأفقدت الناس ثقة بعضهم ببعض ، فساءت الحالة الاقتصادية لأن مبناها الثقة ، فكانت مصيبة الناس في تزعزع النظم الاجتماعية والمثل الأخلاقية والثقة الاقتصادية ، أكبر من مصيبتهم في الأنفس والأموال .

وتحولت كل القوى من قوى بانية إلى قوى مخربة . فالعلماء وجهوا مجهودهم لاختراع المخربات والمهلكات . وأموال الأمم التي كانت تعد للبناء صرفت في التسلح واقتناء المدافع المدمرة والغواصات والطيارات . وانتشر الميل إلى التخريب بين أفراد الشعوب ، فقد كانت الحروب الماضية حروبا بين الجنود فحسب ، فأصبحت الحرب الأخيرة بين طبقات الشعوب كلها من أطفال ونساء وشيوخ ،

كل يعمل أعمالا حربية تلائمه ، فاحل بذلك كثير من أسس المدنية ، لأن المدنية تقوم على البناء لا على الهدم والتخريب .

أفبعد هذا يستطيع أن يؤمن منصف بخير الحروب ومزاياها ؟ لا شك أن العالم الآن فى حاجة قصوى إلى تغيير فى الآراء السياسية ، والنظم السياسية ، وإلى تأسيس مشاعر إنسانية لا قومية ، وعادات إنسانية لا قومية ، وتفكير إنسانى لا قومى ، وعواطف إنسانية لا قومية ، وعلاقات اقتصادية إنسانية لا قومية ، وحكومات ترعى هذه المشاعر والعواطف والعادات الإنسانية لا القومية . فبذلك وحده يختتم العالم فصول الحرب ، ويحل البناء والتعمير محل الهدم والتخريب ، ويسير العالم إلى الرقى بخطى لم يكن لها نظير فى الماضى .

الصراع الاقتصادى :

وهذا هو النوع الثانى من أساليب القتال ، وهو كثير الدوران بين الناس فى كل ساعة وأوان . فالبائع يصارع المشترى والمشترى يصارع البائع . والمستهلك والمنتج يتصارعان دائما . والعمال وأصحاب رءوس الأموال فى صراع دائم . وكذلك ملاك الأرض والمستأجرون . ثم كل طائفة متحدة العمل يتصارع بعضهم مع بعض . فالباعة يتنازعون على المشترين ، وأصحاب رءوس الأموال يتنازعون على العمال وغيرهم . والملاك على المستأجرين وهكذا .

وقد نشأ من هـذا الصراع الاقتصادى نتائج كثيرة بعضها نافع كتحسين الإنتاج وتخفيض الأسعار على المستهلكين ، إذ لو انعدم هذا الصراع لـكان الاحتكار وفى ذلك ضرر على الناس كبير — وبعضها ضار كالذى نشاهد من النزاع العنيف بين العمال وأرباب رءوس الأموال ، ومشكلة العاطلين ومشاكل إضراب العمال وغيرها .

ومن مظاهر الصراع الاقتصادى بين الشرق والغرب ، فمن أهم أسبابه أن

الغرب يريد أن يستغل الشرق إلى أقصى حدود الاستغلال ، فهو يريده مزرعة والشرق يريد نفسه حراً . يريد الغرب أن يرقى الشرق ولكن كما يرقى المالك مزارعه فهو يساعد على حفر الترع وتنظيم الري وتسهيل المواصلات ونحو ذلك مما يزيد في الثروة لأن هذه الثروة نتيجتها في الغالب وفي النهاية للغرب . ويريد الشرق أن يثقف أبناءه على النمط الذي يريده . ويضع لنفسه نظام الحكم الذي يتفق ومصلحته ، فيأبى الغرب عليه ذلك لأنه ليس في مصلحة الاستغلال ، فيكون من ذلك صدام وصراع كالذي نشاهد الآن — نعم إن هناك أسبابا لذلك الصراع غير اقتصادية ولكن السبب الاقتصادي في النهاية أهم الأسباب .

وإذا تغيرت الأنظار الإنسانية التي أبناها من قبل في هذا المثال سهلت هذه المصاعب وقل هذا الصدام وساعد الضعفاء على حسن الإنتاج وحسن الانتفاع .

الجدل والمناقشة :

وهذا الصراع أدق أنواع الحرب وأظرفها ، تقوم فيه الآراء مقام الجنود ، وتقوم الحجج مقام السلاح ، وتقوم العقول مقام مصانع الذخائر والأسلحة ، وفي هذا الصراع الخير كل الخير فقد نتج عنه خير المخترعات وخير النظريات وخير العلوم والمعارف ، وكان من أثر النزاع بين الآراء معرفة جيدها من رديئها وصحيحها من زائفها . وكان من أثر النزاع بين النظريات التعادل بينها ، وأخذ القدر الصالح من كل منها ، وهذا الجدل والمناقشة بدأ في أول أمره فوضى لا ضابط له ولا نظام ثم دخله النظام فرقاه ، ففي النواحي السياسية نظمت البرلمانات والأحزاب ، كما نظمت المناقشات في الانتخابات ، وفي النواحي الاجتماعية الأخرى نظمت جماعات الأديان وجماعات التربية ، وفي المحاكم نظمت المناقشة في المحاماة وفي منصة القضاء ، ونظمت المؤتمرات لتبادل الآراء ، فكان هذا التنظيم داعياً لحسن التفاهم وزيادة الإنتاج العقلي . نعم قد يشوه الجدل التحزب والتعصب واتهام الخصوم بعضهم بعضاً ونحو

ذلك . ولكن كلما رقي النوع الإنساني تضاءلت هذه الأشواك وتجلت المناقشة في أحسن مظاهرها .

ثم هذا النوع من الصراع أليق الأنواع بالإنسان ، وهو الأمل الوحيد في أن يحل محل كل نزاع وصراع ، فيحل بالرأي ما كان يحل بالحرب ، ويحل بالجدل والمناقشة ما كان يحل بالإضراب . وما كانت « عصبة الأمم » في أسمى أشكالها وأرقى مناهجها إلا ضرباً من هذا ونزوعاً إلى تحكيم العقل بدل تحكيم السلاح ، وإحلال الرأي محل السيف .

لقد كان التباهي قديماً بقوة العضلات وكبر الحجم ، فكانت المشاكل تحل بالقوة — بقوة الجسم والسلاح ، ثم نمت في الإنسان قوة علياً غطت على القوة الأخرى وهي « قوة العقل » فلم لا يكون التحاكم إليها والقول الفصل لها ؟ إنما الحرب أثر من آثار القوة المادية ، ونزعة عتيقة من نزعات القرون الأولى ، ولم يعد يليق بمقام الإنسان من أنواع الصراع إلا صراع الآراء والأفكار .

النقد والتقريظ

أصل كلمة النقد من نقد الدراهم وهو امتحانها ومعرفة الجيد منها ، فهى بهذا المعنى لا تقتصر على ذكر العيوب والتشهير بها ، بل تدل على استعراض الشيء والوقوف على محاسنه ومساويه .

وقد تستعمل فى معنى الذم والعيب خاصة ، ومنه حديث أبى الدرداء : « إن نقدت الناس نقدوك ، وإن تركتهم تركوك » فاستعمل الكلمة بمعنى العيب والذم .

وهى بهذا المعنى ضد التقريظ ، فالتقريظ مدح الشيء والثناء عليه ، مأخوذ من قرظ الجلد دبغه بالقرظ ، وقرظه بالغ فى دباغه . وسموا المدح تقريظاً « لأن المقرظ يحسن ويزين صاحبه كما يحسن القارظ الأديم » وبهذا المعنى يستعملها الكتاب المحدثون فيعنون بالنقد ذكر المساوئ وبالتقريظ ذكر المحاسن .

ولست أعرض فى مقالى هذا للكلمتين من الناحية الأدبية ، فلا أعرض لمذاهب النقد الأدبى ومقاييسه ، كما لا أعرض لأساليب التقريظ وألوانها ، وإنما أعرض لظاهرة نفسية تلفت النظر : هى أن الناس على اختلاف درجاتهم فى البداوة والحضارة والرقى والانحطاط ، مولعون بالنقد أكثر من ولوعهم بالتقريظ ومولعون بالبحث عن العيوب وإظهارها والمبالغة فى تصويرها أكثر من ولوعهم بالبحث عن المحاسن وإظهارها وتصويرها ، وهم فى ذلك بين اثنين : إما ممثل على المسرح يمثل دور الباحث عن العيوب المتجسس على السقطات ، يستبشر كلما عثر على خفايا الزلات ، ويقيس نجاحه بمقدار ما كشف من أخطاء ، وإما شاهد لهذا المنظر أكثر ما يهتم له العيب الفاضح والسقطة الشنيعة ، يطيل التصفيق لكاشف الزلل ويمنح الإعجاب من أصاب من آخر مقتلا .

ومظاهر ذلك فى الحياة كثيرة ، فلا تكاد تجد عظيما بإجماع ، ولكنك كثيراً

ما تجد أصاغر ، لأن النفوس ترتاح لمنظر الحقير إذ خرج من ميدان المنافسة ، ونزل عن مستوى المقارنة ، ويضنيها العظيم فتتلمس وجوه النقص فيه ، وتخلقها إن لم تكن وتبالغ فيها إن كانت ، لأن العظيم يكلفها العناء فى إدراك شأوه و بوغ منزلته .

ومن مظاهر ذلك أن مجلات عديدة فى العالم كله تعيش على النقد وليس هناك — فيما أعلم — مجلات تعيش على التقريظ ، وقد أدركت هذه المجلات إدراكا صحيحاً هذه الظاهرة النفسية ورأت أن رواجها يكون أتم كلما ارتفعت نغمة هجوها ، وكلما كان نقدها أقذع وسهامها أنفذ ، والجرائد فى العالم تبذل المدح بالحبة والنقد بالقنطار ، ومن آية ذلك أن الناس فى كل أمة يقدرون — غالباً — جرائد المعارضة أكثر من قدرهم جرائد التأييد ، فإذا تغيرت الحكومات وأصبحت جرائد المعارضة بالأمس جرائد تأييد اليوم ، نزلت قيمتها من ناحية أنها لم تعد تروى رغبات الناس وشهواتهم .

ثم «ما النقد الأدبى ؟ أليس هو فى الغالب إرضاء لعاطفة البحث عن الغلط والتشهير به ؟ إذا مدح النقاد فبحذر وقدر وأكثر مدحهم « طعم » يستدرجون به القراء لإقناعهم بأنهم عدول فى تقديرهم ، منزهون فى ذمهم ومدحهم ، حتى إذا اطمأن لهم القارئ بالغوا فى النقد وأسرفوا فى اللوم» وأكثرهم الناشئين من الأدباء يتطلبون الشهرة من طريق مهاجمة النابغين والتعرض لهم ، والتسميع بهم ، حتى إذا تصدوا للرد عليهم رفعوا من شأنهم إذ جعلوهم فى منزلتهم ، وقديماً حكى لنا « بشار بن برد » أنه — وهو ناشئ — هجا جريراً فأعرض عنه واستصغره ، ولو أجابه لكان كما يقول أشعر الناس . قد يكره الناس الناقد الجرىء ولكنهم يهابونه و يلتفتون إليه و يشجعونه على أن يبنى نفسه من أنقاض ما هدم من غيره .

ومما نلاحظه ارتياح الناس للهازئين الساخرين ، وما يصدر منهم من هزء وسخرية على شرط ألا يكونوا هم موضع الهزء والسخرية فأوسع أبواب الظرف والكياسة وأشد ما يستخرج الضحك والإمعان فيه ما لذع به الناس فى أعراضهم

وأخلاقهم وملكاتهم ، والذى يعده الناس لطيف الروح خفيف الظل ، بارع الظرف ، هو من يومئ الإيماءة الفاتكة ويرشح لسانه باللفظ يقتل به البرىء الغافل ، ويضحك به اللاهى الماجن .

وقد تقام حفلات التكريم للإشادة بصفات عظيم ، أو التنويه بما قام به من عمل جليل ولكن أكثرها حفلات تأبين ، تقام بعد أن اختفى المحتفل به عن المسرح وغاب عن الأنظار أو بعد أن أعجزته السن وخرج من ميدان العمل والمنافسة ، أو هى حفلات تجارية أقيمت لمنفعة المحتفلين لا المحتفل بهم . الحق أن هذه العاطفة — عاطفة البحث عن الخطأ وإذاعته والولوع بالنقد أكثر من الولوع بالتقريظ — عاطفة تشارك الإنسان فى جميع أدواره .

وتعليلها — على ما يظهر — يرجع إلى غريزة الأثرة وحب النفس ، كأن الإنسان يرى أن القول بعيوب الناس يتضمن القول بتفوقه ، والتشهير بأغلاطهم إقرار سلبى بنبوغه والعمل على تحقيرهم قد ينتج مع الزمن انفراده بالعظمة والسخرية منهم تستتبع الاعتراف بجلاله وحده .

ولكن المدينة والحضارة ، والرقى العقلى والخلقى ، تهذب من هذه العاطفة ، كما تهذب من سائر العواطف ، فالناقد المهذب يكتفى بالتلميح دون التصريح ، وبالإشارة دون التجريح ، يقول ما فى نفسه ولكن يتخير الألفاظ ويتخير المواقف ، ويترفع عن ألفاظ الغوغاء وأساليبهم ، والمقارنة بين الجرائد والمجلات ، وأساليب النقد فى الأمم المختلفة تؤيد هذا كل التأييد .

لو سار الأمر على المعقول لخف كثير مما يصدر من لوم ونقد لأن أساس إمكان المسئولية ، فإذا لم تكن فلا لوم ، فلسنا نلوم المرضى إن لم يأتوا بأعمال الأصحاء ، ولا نلوم البدوى كما نلوم الحضرى ، ولا نلوم الجاهل بما نلوم به العالم ، ولا نلوم الطفل فى المدارس الابتدائية إذا لم يحل معادلة جبرية أو نظرية هندسية .

إنما نلوم الإنسان عند ما يكون فى الإمكان أن يفعل خيراً مما كان ، ولو قدر اللائمون تقديراً حقاً ما يحيط بالملوم من حالة عقلية وجسمية و بيئة اجتماعية ومن عوامل خفية معقدة يصدر عنها العمل لخففوا من غلوائهم ، ولطفوا من لومهم ، ولعلموا أن استحقاق اللوم نسبي يرتبط بالسن و بدرجة الثقافة والمدنية وحالة الفرد فى أمته وموقف أمته فى العالم .

ولو سار الناقد على المعقول ، لوقف موقف المصلح لا موقف الجاسوس يهمه أن يرى الخطأ ليبرهن على كفايته و يسره أن يرى العيب ليقبض على فاعله ، وكلما أوغل فى استكشاف العيب الدفين ، وتعمق فى إظهار جريمة مستورة كان أدل على قدرته ونبوغه ، و يأسف إن لم يكن عيب كأنه يشعر شعوراً باطنياً أنه إرهاص بأن لا حاجة إليه — والمصلح يستكشف العيب لا ليشهر به ولكن ليعالجه . وأقصى أمانيه ألا يكون عيب ، و إذا كان فأن يداوى ، و يعتقد أن مهمته تتم — مع السرور — يوم يزول المرض و يتلاش النقص ، وأنه بنقده ولومه إنما يصف دواء يستأصل الداء و يأتى عليه . وأسوأ ما نرى أن يكون الناقد كالفرس الجموح ينال من الناس بهوجه وخبطه ، أو أن يقف فى نقده موقف الغر يداعب بالنار ، أو الطفل يلعب بالسكين .

عبادة الماضى

أتظن أن النـاس يعبدون إلههم وحده ؟ ويقيمون له الشعائر وحده ؟ ويطيعونه ويعظمونه وحده ؟

كلا إن هناك معبودا آخر للناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، يطيعونه ويخضعون له ويقدسونه ويصدرون عنه فيما يفعلون ويتركون ، وهو المـاضى الحافل بتقاليده وأفـكاره وأعماله .

لئن كانت ميزة الإنسان الـكبرى ، هى تطوره وقدرته على التغيير والتحسين والتجديد ، فإن فيه عنصراً قوياً موروثاً من أصله الحيوانى ، هو عنصر الثبات والاستقرار وبقاء القديم على قدمه .

هل رأيت القطيع من الغنم يسير أمامه حمار يهديه ويرشده فإن سار الحمار يميناً سار القطيع يميناً ، أو يساراً فيساراً وإن قفز عقبة قفز كل القطيع وراءه ، واحدة بعد أخرى .

فى الإنسان شبه كبير من هذا المنظر ، فهو فى أغلب أعماله لا يعمل العمل أو يتجنبه ، لأنه وزن منافعه ومضاره وحسب نتائجه ، ولـكن لأن من قبله من الناس عملوه أو تركوه ، والجيل اللاحق يتبع الجيل السابق بالتقليد كقطيع الغنم فى سيره وفى قفزه .

* * *

ماذا نأكل وماذا لا نأكل ، وماذا نشرب وماذا لا نشرب ، وكيف نأكل ونشرب ، وماذا نلبس وكيف نلبس ، وكيف نحترم وكيف نحتقر ، وكيف نبدأ التحية وكيف نردها ، وما الأعداد التى نتشاءم منها والتى نتفاءل منها ، ولم نحارب وكيف نحارب ، ونظام الحـكومة وكيف يكون ، وأساليب الشعراء فى شعرهم

و بحور الشعر وأوزانها ، وأساليب النثر ، وآداب اللياقة ، واحترام الأغنياء واحتقار الفقراء ، وآلاف الآلاف من الأمثلة فى الحياة المادية والسياسية والفنية والاجتماعية والعقلية والاقتصادية لم نفعلها لأننا درسناها وعرفنا خيرها وشرها ، ولـكن هذا ما وجدنا عليه آباءنا و إنا على آثارهم لمقتدون .

وليس يستطيع أن يظهر فوق لجة الماء ، و يكافح ضد التيار ، إلا أفراد أقل من القليل ، يظهرون على توالى الأجيال ، و يستطيعون أن يكفروا بعبادة الماضى ، وأن يزنوا الأمور بقيمتها الذاتية ، لا بالتقاليد المرعية ، و يفرقوا بين السخيف والمعقول ، وما يستحق البقاء وما يستحق الإعدام من النظم والأفـكار والعادات . كم من آلاف السنين مضت قبل أن يرى الناس عبادة الأصنام سخف ، وأن استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان عار ... وكم من آلاف السنين مرت ولما يدرك قادة الأمم أن الحرب وحشية وهكذا .

من البديهيات أن كل نظام يوضع يجب أن يكون لخير الأمة ، وأنه يجب أن يبحث ليتبين خيره ، وأنه إذا تبين نفعه يجب أن يبقى ، وإذا تبين ضرره يجب أن يلغى ، ولـكن هذه البديهيات العقلية فى ناحية ، والعمل الذى يجرى عليه الناس فى ناحية أخرى ، وقلما يعملون ما يعقلون ، إنما يعملون ما يقلدون .

تقدم الغرب فى هذا الباب خطوة ، فوضع كثيراً من الأشياء المادية فى «المعمل» وأجرى عليها الاختبار والتجارب ، وأصغى إلى نتيجة الاختبار والتجارب ، فقلب زراعته وجعلها على أساس العلم لا على أساس التقاليد ، وكذلك فعل فى الصناعة ، واخترع أدوات الحضارة ، ولـكنه لم يضع فى « المعمل » النظم الاجتماعية والآراء السياسية والاقتصادية ووسائل السلم والحرب ، ولم يجر عليها الاختبار والتجارب كما فعل فى المادة ، ولا يزال يصغى فيها إلى صوت التقاليد ولا يزال يعبد المـاضى .

* * *

أما الشرق فغلبت عليه عبادة الماضى فى الماديات وغيرها ، فلا يزال يزرع

كما كان يزرع أجداده ، ويصنع كما يصنع أجداده ، ويخضع للنظم المالية والسياسية والاقتصادية ، كما كان الشأن فى القديم ، إلا فى القليل النادر . ومع هذا فكل من الشرق والغرب يعبد الماضى ، وإن اختلف مقدار العبادة ووجهها ... ولو وفق الناس إلى من يهديهم أن يضعوا كل شىء وكل مشروع وكل اقتراح فى « أنبوبة الاختبار » ويقيسوه بمقياس المنفعة العامة ، لا بمقياس عبادة الماضى ، لقفز العالم إلى الأمام قفزة واسعة ، وحقق كثيراً مما يرجو من سعادة .

* * *

إن العالم الآن مختل التوازن ، وسبب هذا الاختلال أنه وزن بعقله بعض الأشياء وسار عليها بمقتضى العقل ، ووزن بعض الأمور بميزان الشعور الصحيح الصادق ، وسار عليها بمقتضى الشعور ، ولكنه فى نواحى السياسة والاجتماع والاقتصاد لا يزال مقيداً بعبادة الماضى ، فكان كمن فكت يداه ، ولا تزال مغلولة قدماه .

ما هذا الفزع الذى استولى ويستولى على نفوس الناس ؟ ما هذه الضحايا التى بذلت فى الحروب ؟ ما هذه الفوضى والاضطرابات المتفشية فى كل أنحاء العالم ؟ لا سبب لهذا كله إلا أصنام يعبدها الناس ؛ وخاصة قادة السياسة ورؤساء الحكومات وزعماء رجال الأعمال والأموال . وأحد هذه الأصنام وأضخمها ، صنم اسمه الاستعمار والتوسع فى الفتح والملكية ، فالأمم الفائزة فى الحرب تتسابق فى عبادة هذا الصنم من غير تفكير ، إلا أن السابقين عبدوه من قبل فليعبدوه هم . ولكن هل بحثوا بحق وعدل واطمئنان فوائد الاستعمار ومضاره حتى للمستعمرين أنفسهم ؟ ما هى النتيجة لو حسب ما يستغله الفاتحون من أموال المفتوحين ، وماذا يكلفهم ذلك من نفقات الجيوش والأسلحة فى السلم والحرب ، وما يكلفهم من ضحايا فى الأنفس بجانب الضحايا فى المال ، فضلا عن الحزازات النفسية الدائمة ؟ الاستعمار لهذا الغرض — والنتيجة لا محالة أن الأضرار أكبر من المنافع — أم الاستعمار للحصول على المواد الخام ، من الأمم المفتوحة ؟ فهل حسب حساب الفروق

بين احتكار المواد الخام ، وجعلها عرضاً مشاعاً للجميع فيشتريه كل من قدر عليه ، وما يسببه الحل الأول من حرب ، وما يسببه الحل الثانى من سلم ؟ وهل بحثت العلاقة بين الاستعمار وسعادة الأمم فرئى أن سعادة الأمة بقدر ما تستعمر ؟ الحق أن هـذه المسائل وأمثالها كلها تبحث فى « المعامل » كما بحثت المسائل المادية ، و إنما فعلها الأولون لبقايا وحشية فيهم ، وفعلها الآخرون عبادة للصنم القديم .

* * *

وقل هذا فى النظم الاقتصادية ، فهى لمنفعة الأقوى لا منفعة الأحق ، وهى تساعد السلاب النهاب على السلب والنهب ، أكثر مما تساعد المستقيم العفيف على نيل حقه .

و إنما يمنع من تغييرها مع ظهور خطئها أنها صنم قديم يعبد ، وليس من يشجع على تكسير الأصنام .

ومن عجيب الأمر أن عبّاد الأصنام القديمة ، أسعد بالاً وأكثر اطمئنانا ، ويصفق لهم ويرحب بهم من يشقى بنظامهم ، فإذا دعا داع إلى كسر الصنم ، ووزن الأمور بميزان العقل ، ووضع المسائل فى « المعمل » تحت التجربة والاختبار فهو المغفل ، وهو الخائن ، وهو الذى يرجم بالحجارة . ومما يزيد الأمر سوءا ، أن زمام العالم فى يد حفنة من الناس تسيرهم النزعات القديمة وعبادة القديم ، إما عن اعتقاد منهم أو لضغط البيئة عليهم ، ودعاة « المعمل » والاختبار لا شىء فى أيديهم ، ودعاة الأصنام القديمة كل شىء فى أيديهم .

ألا تستطيع كل الأهوال التى لقيها الإنسان فى هـذه الحرب — وما كان أقساها — وما يجد الآن من فوضى وقلق واضطراب وفزع ، أن تكشف الغطاء عن بصره ، فيرى أنه كان مفتونا بعبادة أصنام لا تضر ولا تنفع ، وأن عبادتهـا سبب كل ما هو فيه من شقاء ، فينتقم منها ويحطمها ، ويرى أن الحق وحـده — لا القديم — أولى بالعبادة ؟

هذا هو الأمل الوحيد و إلا فويل للإنسان .

الأخلاق السياسية

سيطرتها اليوم وأثرها فى حياة الشعوب

يخطئ من يظن أن الأخلاق السائدة فى العالم اليوم هى الأخلاق التى وردت بها الأديان وقررها فى كتبهم فلاسفة الأخلاق .

إنما السائد الآن نوع من الأخلاق يصح أن نسميه « أخلاقا سياسية » .

وأهم فرق بين الأخلاق التى أتت بهـا الأديان وتعاليم الفلاسفة ، و بين الأخلاق السياسية التى نتخلق بها اليوم ، أن الأولى مؤسسة كلها على اشتراك الناس فى الحقوق والواجبات على حد سواء ، فإذا أمرت بالعدل طالبت به الناس كلهم لا فرق بين أسودهم وأبيضهم ، ولا فرق بين أفريقى وأسيوى وأوروبى ، ولا فرق بين أن يعامل الإنسان فرداً من أمته أو فرداً من أمة أخرى .

أما الأخلاق السياسـية فمحورها وأساسها نفع الأمة التى ينتسب إليها الفرد . و بعبارة أخرى إن الأخلاق الدينية والفلسفية جعلت غايتها عالمية ، فهى ترمى إلى حسن علاقة الناس جميعاً بعضهم مع بعض من غير نظر إلى جنس ولا إلى لون ولا إلى وطن ، وتضع تعاليمها على هذا الأساس ، وتجعل مثلها الأعلى أن يسلك الناس السبيل التى ترقى مجتمعهم « ككل » . فهى تنظر إلى العالم كعالم لا باعتبار أنه مكون من عدة أمم ، وتنظر فى تعاليمها إلى الناس كمجموعة واحدة ، تنظم علاقاتهم ، وتصلح من شئونهم ، وتضع المبادئ العامة التى توصل إلى خيرهم ، مثل المبدأ الإسلامى : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ومثل مبدأ (كانت) : « اعمل فقط ما يصح أن يعمله كل الناس » ومثل مبدأ مذهب المنفعة القائل : « إن العمل خير إذا سبب من اللذة أكثر من الألم لكل مخلوق » وهكذا . أما الأخلاق السياسية فنظرت إلى الأخلاق نظرها إلى « القانون » ؛ فكما

أن لكل أمة قانونها ، فكذلك لكل أمة أخلاقها ، فمحور الأخلاق السياسية خدمة الأمة التي يعمل لها الساسة بقطع النظر عن غيرها من الأمم ، فإذا كان هناك عمل ينفع الأمة ويضر سائر الأمم ، فالأخلاق العامة تنهى عنه وتحذر منه وتجعله شراً ورذيلة ، على حين أن ساسة هذه الأمة يرون الإتيان به فضيلة ونبلا ، وإن تضررت منه كل الأمم — وقد عبر القرآن عن ذلك بحكايته عن قوم من اليهود كانوا يرون أن الأمانة إنما تجب على اليهودى لليهودى لا لغيره من العرب ويقولون : « ليس علينا فى الأميين سبيل » .

وقد كان اليونان فى أيام سلطانهم والرومان فى سطوتهم ينظرون هذا النظر الضيق فى تقويم الأخلاق ، فالأخلاق تجب على اليونانى لليونانى لا لغيره ، والناس ينقسمون إلى قسمين : يونان ومتوحشين ، والفضيلة إنما وضعت عند معاملة اليونانى لمثله ، إذا عامل اليونانى غيره فليس هناك فضيلة واجبة ، وهكذا كان الشأن عند الرومان ، ولعل اضطهاد الرومان النصرانية كان من أسبابه الكبرى ما أتت به النصرانية من نظرة أخلاقية عالمية ، على عكس ما أتت به روح الدولة الرومانية ، ولعل من أسباب اضطهاد اليونان لسقراط أيضاً والحكم بموته ، تعاليمه الفلسفية العامة مقاوما بذلك تعاليم اليونان الخاصة كما قال الأستاذ « مكدوجل » .

ولكن على الرغم من تعاليم الإسلام والنصرانية ، وعلى الرغم من تعاليم فلاسفة الأخلاق ، فالذى يسود أوروبا الآن هو الأخلاق السياسية القومية ، لا الأخلاق الدينية والفلسفية العامة ؛ فالانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى يقوِّم الأعمال من ناحية أمته لا من ناحية الإنسانية عامة ، فإذا عقدت معاهدة لم ينظر السياسيون إلا إلى أمتهم ، هل تنتفع بهذه المعاهدة فيمضوها أو لا تنتفع فيرفضوها . والأمة المقترحة والأمة المشتركة فى التوقيع لا تنظر فى ذلك إلا إلى نفسها ، وقل أن تنظر فى ذلك إلى ناحية عالمية أو ناحية إنسانية ، وعند إعلان الحرب

أو عقد الصلح لا تنظر كل أمة إلا هـذا النظر — والسبب فى هذا أن مفهوم العدل عند هؤلاء الساسة مفهوم ضيق ، ومثلهم مثل شيخ القبيلة الذى سئل عن معنى العدل فقال : « إذا أغرتُ على قبيلة أخرى واستلبت إبلها فهذا عدل ، أما إن أغارت علىّ واستلبت إبلى فهذا ظلم » . فالعدل والظلم دائران حول المصلحة الذاتية ، أو بعبارة أدق حول المصلحة القبلية أو القومية ، لا حول المصلحة العامة . وربما كان الداعى إلى هذا تغلب الروح الوطنية على الأمم وإخضاع الأخلاق لحكمها ، وأن الحكم بأن هذا الشىء فى مصلحة الإنسانية أو فى ضررها حكم أكثر تعقداً من الحكم بأن هذا الشىء فى مصلحة الأمة ، فعقول الناس إلى اليوم لم تقو على هـذا السمو الذى تحكم فيه المصلحة الإنسانية فتقبل العمل أو ترفضه ، ولذلك نرى أن فى كل أمة أفراداً فلاسفة — يختلفون قلة وكثرة — ينتقدون هذه الأنظار الضيقة فى تقويم الأعمال ، ويدعون إلى النظرات الواسعة ، ولكنهم ، مع الأسف ، ليسوا القابضين على زمام الأمور ، ولا هم المتصرفين فى شئون الدول ، فقلما تجد دعوتهم سميعا ، والسبب فى تفوق رأى الساسة على رأى الفلاسفة أن الساسة لا الفلاسفة هم ظل الرأى العام ولسانه الناطق ، والفلاسفة يحتاجون إلى زمن طويل حتى تتقطر آراؤهم إلى الشعب ، والرأى العام — كما لاحظ بعض الفلاسفة — أكثر أنانية وكبرا وتعصباً من الفرد .

ومن أهم شرور هـذه الأخلاق السياسية — بالمعنى الذى شرحنا — ما تستلزمه من نفاق ، وذلك أن هذا النوع من الأخلاق مؤسس كما ذكرنا على الشعور القومى الوطنى . والأمم مهما خلت من شعورها الوطنى لا يمكن أن تنسى عقلها ولا دينها ولا إنسانيتها — فقدر كبير من النفاق لابد منه للساسة ليوائموا بين الشعور والفكر وبين الوطنية والإنسانية ، وبين حكم العواطف وحكم العقل . وأشد أوقات الحاجة إلى ذلك النفاق ، الأزمات وأوقات الحروب ، لأن الأمم فى

مثل هذه الأوقات تغلى مشاعرها الوطنية ، وتهتاج عواطفها حفظا على كيانها ، والساسة مضطرون إلى إيقاد هـذا الشعور حتى تتقدم الأمة بما يجب من تضحية ، ولـكن فى مثل هذه المواقف يستيقظ العقل أيضاً فيكثر التساؤل : ما فائدة هذه الحروب للإنسانية ، وماذا يكسب العالم وماذا يخسر منها ؟ . وليس يمكن التوفيق بين هذه المشاعر اليقظى والعقول الصاحية إلا بضروب كثيرة من الخداع والنفاق فتدعى الدواعى العريضة — عند ذاك — فى أن الحرب لخير الإنسانية ولنشر المدنية ، ولمحاربة الهمجية ، ولإذاعة الثقافة ، ولتمدين الشـعوب البربرية ، ونحو ذلك . والغرض من هذا كله محاولة إقناع مشاعر الشعوب وعقولهم معاً ، وأحياناً تستغل العاطفة الدينية أيضاً من هذه الناحية ، فيدعى أن الحرب لنشر الدين الصحيح فى العالم وهكذا ، والناظر فى الأدب الذى تنتجه الحروب يرى مصداق هذا فى وضوح وجلاء ، والتاريخ السياسى للأمم المختلفة مملوء بالدعاوى من هـذا القبيل .

والمتفائلون من الفلاسفة وعلماء الأخلاق والاجتماع يرون أن العالم سائر من هذه الأخلاق السياسية التى أساسها الوطنية ، إلى الأخلاق العامة التى أساسها الإنسانية ، ولـكن يقلل من تفاؤلهم ما يرون من أنه كلما سنحت فرصـة للقرب من هـذه الغاية استطاع رجال السياسة أن يحولوها لخدمة الوطنية لا الإنسانية كما فعلوا فى « عصبة الأمم » . فقد كانت أسسها التى رمى إليها واضعوها إنسانية بحتة ، فما زال الساسة بها يعدلونها ويحورونها حتى سلبوا روحها وقلبوا وضعها وجعلوها حزبية لا عالمية — وكان المتفائلون من هؤلاء الفلاسـفة يرون ، قبل الحرب العظمى ، أن المبادئ والأفـكار العامة التى انتشرت بين الناس تبعد احتمال وقوع حرب كهذه . فلما وقعت على حال أسوأ مما تخيلوا ، شعروا بخيبة الأمل و بعد الرجاء ، ولـكنهم مع هذا كله لم يفقدوا أملهم ولم يعدلوا عن نظريتهم ، ورأوا أن هـذا هو الطريق الطبيعى للإنسان ، وأن ما قطعه فى الماضى يدل

على اتجاهه فى المستقبل ، فهو من حين إلى حين يتسع أفقه ، فقد كان لا يرى إلا نفسه ثم صار لا يرى إلا قبيلته ثم صار لا يرى إلا أمته ، فسيأتى عليه زمن يرى عالمه ، ويقوّم الأخلاق تقويما عالميا لا تقويما قوميا كما تتطلب الفلسفة والأديان .

ومشكلة المشاكل فى هذا الصراع من الناحية السياسية والأخلاقية أن الأخلاق القومية والنزعة الوطنية أفادت العالم فوائد لا تنكر ، فهذا التسابق إلى المجد بين الأمم ، وهذا التناحر المستمر ، والصراع الدائم ، وحب الغلبة ، كان له أكبر الفضل فى المخترعات التى اخترعت ، وفى النظريات العلمية التى استكشفت ، وفى جميع التحسينات التى أدخلت على الشئون الاقتصادية والاجتماعية إلى غير ذلك . فهذه كلها إنما تقدمت هذا التقدم السريع بفضل العداء لا بفضل المسالمة ، و بفضل التعصب القومى والتحزب الوطنى ، فلو أننا أحللنا مكان هذه النزعة نزعة إنسانية عامة ، وأسسنا الأخلاق على أسس عالمية ، وطالبنا الساسة أن ينظروا فى قراراتهم ومعاهداتهم وجميع شئونهم إلى الناحية الإنسانية الصرفة ، فهل يظل العالم فى تقدمه السريع ونجاحه المستمر أو تقل الحماسة وتفتر الهمم .

والحق أنها مشكلة كبيرة ، وهى وإن كانت صعبة الحل فليست مستعصية ، وكل ما فى الأمر أنها تحتاج إلى مجهود عالمى جبار يصرف فى وضع التربية على أسس جديدة يكون محورها الإنسانية لا الوطنية ، والعالمية لا القومية ، وتكون غايتها تعويد الفرد أن يتحمس للأخلاق العامة وأن يقيس الخير والشر بمقياس النفع لإنسانيته لا لأمته ، وأن يغار على الخير للناس أكثر مما يغار على الخير لأمته ، وأن يقدم فى ثبات على فعل ما يضر أمته إذا كان فيه نفع للإنسانية . على أن الناس إذا بلغوا منزلة عالية سامية زال كثير من التعارض ، ورأوا أن الخير لأشخاصهم والخير لأمتهم والخير للإنسانية شىء واحد وأن التعارض إنما ينشأ من ضيق الأفق وقصر النظر .

القوى الضائعة فى الأمة

إذا نحن نظرنا إلى ماكينة من الماكينات وجدنا أنها إنما تكون صالحة وفى حالة جيدة إذا أدت الغرض منها كاملا فى الزمن المعقول ، و بنفقات معقولة ، فالسيارة مثلا إنما تكون فى حالة جيدة إذا قطعت المسافات المقررة لها بمقدار من البنزين يناسب سرعتها ، و يناسب حجمها ، ونحو ذلك . فإذا أنفقت بنزينا كثيراً فى مسافة قصيرة دل ذلك على فسادها وأن قوتها لم تؤد واجبها .

كذلك الشأن فى الأمة تعمل فيها قوى كثيرة : قوة لتحصيل الغذاء وتوفير وسائل العيش من زراعة وتجارة وصناعة ، وقوة لتوفير الأمن والرفاهية ، وقوة لأداء مصالح الناس ، وقوة للتعليم والتثقيف ، وقوة للإنشاء والتعمير ، وغير ذلك من القوى ؛ والأمة تعد راقية تمام الرقى ، إذا كانت كل قواها تعمل لتحقيق أغراضها فى أقصر فرصة ممكنة و بالمجهود المناسب .

فإذا عطلت بعض القوى فلم تعمل ، أو أنتجت إنتاجاً صغيراً فى زمن طويل ، أو عملت القوى أعمالا متعاكسة بعضها يهدم بعضاً ، أو بعضها يعوق بعضاً ، دل هذا على تأخر الأمة وانحطاطها .

ولم تصل أمة من الأمم إلى حد الكمال فى هذا بحيث تعمل كل قواها متعاونة متناغمة ، وتعمل لتحقيق غايتها فى أقرب وقت بأقل جهد ، ولا يكون منها قوى تالفة أو متعاكسة . ولكن الأمم على العموم تتفاوت فى هذا تفاوتا كبيراً بمقدار التآلف ومقدار التعاون أو التجاوب ، ومقدار المجهود الذى يصرف والزمن الذى ينفق .

فلننظر الآن فى القوى الضائعة فى الأمة ...

فمن الناحية المادية نرى أراضى كثيرة صالحة للزراعة ولم تزرع ، وصحراء وجبالا ووديانا و بحاراً وأنهارا مملوءة بالمعادن والزيوت والقوى الكهربية ونحو ذلك ، وهى صالحة لأن تدر كثيراً من المنافع ثم لم تستخدم ، فهذه قوى ضائعة ، ومن ناحية أخرى نرى كثيراً من الناس يستهلكون ولا ينتجون ، فأفراد الأمة الذين لم يعلموا ولو علموا لانتجوا نتائج عظيمة . والمرضى الذين يقعد بهم مرضهم عن العمل ولو عولجوا لصحوا وأنتجوا ، والذين يكسبون من الوسائل الدنيئة كالقمار والغش والخديعة . . كل هؤلاء وأمثالهم قوى ضائعة لو وجهت الوجهة الصحيحة لأنتجت نتاجا حسنا ، كذلك الكسالى والذين يكسبون من الإجرام والذين لا يعملون ولكن يأخذون مجهود غيرهم و يتلفون فى ترفهم وسرفهم وشهواتهم ، والذين يدمنون على الخمر والمكيفات المختلفة من حشيش وأفيون وكوكايين مما يضعف الصحة و يضيع المال هى قوة ضائعة .

كذلك من القوى الضائعة إتلاف المال فى المظاهر التى لا قيمة لها ونحو ذلك ، كلها قوى ضائعة كان يمكن استخدامها فى النفع لا فى الفساد .

ومن هذا القبيل الكفاءات الضائعة ، ومن أمثلة ذلك أن الطلبة فى المدرسة الثانوية والعالية لا يعرفون نوع كفايتهم وليس هناك من يوجههم ، فطالب استعداده نظرى و يوجه وجهة عملية ، وطالب استعداده عملى و يوجه وجهة نظرية ، ومن يصلح للقوانين يدرس تجارة ، ومن يصلح للتجارة يدرس هندسة ؛ وحسبك دليلا على ضياع هذه القوى أن تنسب إلى عدد من يتخرج من هذه المدارس العالية إلى عدد من تخلف فى الطريق وضاعت كفايتهم ، ولو كانوا وجهوا وجهة صحيحة لكثر الإنتاج وكان نتاجاً طيبا تبرز فيه الكفايات ، والمسئول عن ذلك أولياء أمور الطلبة ، ونظام التربية الذى لا يستكشف الكفايات ولا يوجهها وجهة صحيحة . ثم ما نرى من رجال يعملون عملا غير الذى أعدوا له ، فمتخصص فى الطب يشتغل سياسيا ، ورجل أعمال يشتغل موظفاً

فى الحكومة . وذو كفاية ممتازة فى الإدارة يعمل فى وظيفة كتابية . إلى جانب ذلك عدد كبير يشتغل مثلا فى المحاماة ، والأمة أحوج إلى أطباء أو عدد كبير يزدحم على مكاتب الحكومة والأعمال الحرة مقفرة . . . وهكذا من آلاف الأمثلة التى تضيع فيها الكفايات ، والأمة الصالحة هى التى تكتشف الكفايات وتعرف كيف تستغلها .

والذى يوجههم إلى ذلك ليس الكفايات ولكن الرغبات الكاذبة فى المنصب أو الجاه ، ويوجههم إلى ذلك أيضاً الرغبات الفردية لا مقدار حاجة الأمة إلى النوع .

وبالأمس قرأت لكاتب أمريكى يروى أنه راقب قطع أشجار فى شارع من شوارع مصر استغرق ثلاثة أشهر وكان يمكن أن يعمل فى ساعة أو ساعتين .

ولو حسبت حساب ما تنتجه من العمل عامة وما يصرف من الزمن لراعك مقدار الوقت التالف . ثم لو نظرت إلى مقدار قوتهم وما يمكن أن ينتجوه لكانت النتيجة مريعة .

كم من الناس لا عمل لهم فى الحياة ؟

فكم من النساء لا عمل لهن فى البيت ولا خارج البيت ؟ وكم من المتعطلين الذين يتسكعون فى الشوارع أو يقضون أوقاتهم فى المقاهى والأندية ؟ .

وكم من المتخاصمين الذين يقضون سنين فى المحاكم فى نزاع وخصام ولو حكم العقل لانفض النزاع فى ساعة .

إلى جانب ذلك كم من ملايين الفلاحين يعملون فى الأرض بوسائل الزراعة القديمة ولو استخدمت الآلات الحديثة لعملت فى يوم ما يعمله الفلاح فى أسابيع .

وكم من الصناع يشتغلون فى الصناعات اليدوية ، والآلات الحديثة تنتج أضعاف ما يعملون بأيديهم ؟ ولو استخدمت هذه الآلات لانتفعنا بهؤلاء الفلاحين وهؤلاء العمال وهؤلاء الصناع فى أعمال أخرى ؟ .

فهذه أيضاً كلها قوى ضائعة .

ومن القوى الضائعة فى الأمة المنافسات الحزبية حول الأمور التافهة ، والمهاترات السياسية بدون جدوى ، وما يتبع ذلك من خطب واجتماعات وملء فراغ فى الصحف وإفساد لعقول الشبان ، وسوء توجيههم ، وصرفهم عن النزعة القومية النبيلة إلى النزعة الحزبية الضيقة ، فكل ما يبذل فى هذا الباب قوى ضائعة .

ومن القوى الضائعة المجالس واللجان تثار فيها المسائل فيطول الجدل العقيم حولها ويكثر الكلام فيها ، وتستغرق مناقشاتها الساعات والأيام والشهور والسنين ، وكان يكفى المنطق الصحيح والعقل السليم للبت فيها بسرعة لولا ما يحيط بها من حب للكلام وتظاهر بالفصاحة ولعب المصالح الشخصية الخفية فى توجيه المناقشة والجدل واصطناع الحجج .

هذه بعض مظاهر القوى الضائعة فى الأمة وما أكثرها ! والناظر إليها يأخذه الرعب من كثرة ما يرى من القوى ، مع قلة الإنتاج لضياع أكثرها . فمثل الأمة فى هذا الموقف مثل سيارة تستنزف كثيراً من (صفائح البنزين) لتسير بضع خطوات ، أو كوابور مياه يحرق مقداراً كبيراً من البترول لاستخراج حفنة من الماء — حتى لو قلنا إن تسعة وتسعين فى المائة من قوى الأمة ضائعة أو مهملة من مثل الذى ذكرنا وأشباهه وإنها تعيش على واحد فى المائة فقط لم نكن مبالغين ولا مجافين للحق .

امتحان الحياة

إذا امتحنا الحياة الإنسانية — سواء كانت حياة فرد أم حياة مجموع — وجدناها تخضع لقانونين أساسيين :

أولهما : أن الإنسان يمثل الرواية التى تمثلها كل الكائنات : كينونة ، ثم نمو ونضج ، ثم تدهور وفناء . مثله فى ذلك مثل كل أنواع النبات والحيوان والجماد والنجوم والكواكب .

وهو خاضع كل الخضوع للبيئة التى تحكمه وتحكم قوته ، وتحدد قدرته على المقاومة ، ولا سيا بيئته الطبيعية من جو و إقليم وما إليهما .

وقد بدأت الحياة فى أرضنا متحدة متشابهة ، ثم أخذت تتنوع فى شكلها وحجمها وعقليتها حسب هذه البيئة ، إلى أن وصلت فى تنوعها إلى الإنسان ، والإنسان نفسه أخذ يتنوع إلى أسود وأبيض وأصفر ، و إلى بدوى ومتحضر و إلى راق ومنحط ، تبعاً لكل ما يحيط به من بيئة . وكلما تقدم الزمان زاد التنوع ، وكثر التحول ، حتى تصير الأرض إلى غايتها فى النمو والنضج ، ثم تتدهور وتأخذ فى البرودة شيئاً فشيئاً فيعترى سكانها الفَناء ، ويأتى الفَناء أولا لأرقى الأصناف للطفها ورقة حالها ، ثم لما هو دونها إلى أن يأتى على آخرها رقياً .

هذه هى الطبيعة وهذه هى الحياة ، فالشتاء لا محالة يتبع الصيف والهرم يتبع الشباب ، والفساد يلحق الكون ، وليس موجوداً على ظهر الأرض اليوم أحد ممن كانوا قبل مائة وخمسين سنة على أكثر تقدير ، خضوعا لقانون الفناء .

يخضع جسم الإنسان لقوانين الطبيعة كما يخضع الحجر ، فهو خاضع لقوانين المادة والقوة خضوع الحجر لقوانين المادة والقوة ، و بفعل الحر والبرد وكل أحداث

الجو فيه فعلها في الحجر ، وكل ما هنالك من فرق أن قوانين جسم الإنسان معقدة أكثر من تعقد الحجر ، لكثرة تركبه .

والجمعية البشرية خاضعة لقوانين الطبيعة ككل شيء ، حتى ليمكن إرجاع كثير من المعاني إلى هذه القوانين ، فاختلاف الأمم في العادات والتقاليد ، واختلافهم في الغنى والفقر ، وفي الخمول والنشاط ، واختلافهم في الزراعة والصناعة والتجارة ، واختلافهم في الآداب والفنون ، واختلافهم في العقلية ، بل واختلافهم في أنواع الحكومات التي تحكمهم ، كل هذا يرجع — إلى درجة كبيرة — لحالة الإقليم الطبيعية التي تسيطر على الإنسان وتحكمه حكماً لا مناص له منه .

ثم هو يخضع خضوعاً تاماً لقوانين الحياة ، كما يخضع كل جسم حي من نبات وحيوان ، فبناؤه العضوي يخضع لقوانين الجسم ذي الأعضاء ، من توزع الوظائف على الأعضاء ، والتعاون بينها ، ونموها من داخلها ، ونموها من جنسها ، فبذرة الورد تنمو لتكون شجرة ورد ، والطفل ينمو ليكون رجلاً ، والجرو ينمو ليكون كلباً ، وهو يخضع ككل الأحياء لقوانين النشوء والارتقاء — يخضع لهذه القوانين كلها كفرد وكمجموع .

بل إن عقله يخضع للقوانين خضوع جسمه وأعضائه ، فتكوين المخ والأعصاب يجعل أكثر أعمال الإنسان من شعور وغريزة تأتي عن طبيعته ، وتأتي ميكانيكية كأعمال الحيوان ، والعقل في كثير من شئون الحياة ليس إلا خادماً مطيعاً للمشاعر والغرائز ، وكثير من العادات التي نظنها اختيارية ليست إلا نتيجة طبيعية لحالة المخ والأعصاب والبيئة ، بل الذكاء والغباوة ونوع التفكير ونظامه راجع إلى ما منحه الإنسان طبيعياً من مجموع عصبي وما أحاط به من ظروف .

* * *

وبجانب هذا القانون الأساسي : « الخضوع لقوانين الطبيعة » ، هناك قانون آخر يعارض الأول ويعاكسه ، وهو قانون تعديل الإنسان للبيئة واستخدامها في

منفعته ، فالإنسان منذ وجد على ظهر الأرض يحاول أن يخضع قوانين الطبيعة لأمره ، وبدأ ذلك بمحاولات قليلة ضعيفة كان يفشل فى أكثرها ، ولكنه تعلم من الفشل كما تعلم من النجاح . فكان يمتحن سر فشله ويعيد التجارب حتى ينجح ، وكلما تقدم به الزمن زاد نجاحه وقوى أمله ، وسيكون من بعدنا أكثر إخضاعا لقوانين الطبيعة وتعديلها منا — حتى كان من أهم مقاييس رقى الأمم وانحطاطها مقدار معرفة استخدامها لقوانين الطبيعة وتحويلها إلى مصلحتها — وما الزراعة والتجارة والصناعة فى جميع أشكالها إلا محاربة لقوانين الطبيعة ، أو على الأصح تعديل لها ، أو بعبارة أدق ، تحويل لها فى خدمة الإنسان ، على هذا الأساس وبهذه الفكرة اتخذ له مسكنا يحتمى فيه من قوانين الطبيعة وربى الحيوانات ، وعالج المأكولات ، واتخذ الملبوسات ، وخالف بينها صيفا وشتاء — لقد ضايقته قوانين الماء فى البحر فاتخذ السفن يخضع بها البحر لسلطانه ، وعرف قوانين الجذب فاستخدمها فى مصلحته — وما المستكشفات والمخترعات وجميع صنوف المدنية إلا تحقيق لغرض واحد ، هو استخدام قوانين الطبيعة لخدمة الإنسان ، بل ليست الوسائل المعنوية من تربية وتهذيب وإصلاح اجتماعى ودين ، إلا لتحقيق هذا الغرض ، بل ليست قيمة الوسائل الفنية من أدب وموسيقى وحفر وتصوير إلا أن تزيدنا حياة وتمنحنا قوة نستعين بها على مقاومة قوانين الطبيعة والتغلب عليها . ومقياس التربية الصحيحة والإصلاح الصحيح والدين الصحيح والفن الصحيح هو مقدار ما فيها من قوة تجعل الإنسان أصلح لمواجهة قوانين الطبيعة . وليس عمل الأطباء ولا الصيدلة بجميع ما فيها من عقاقير إلا ضربا من ضروب محاربة قوانين الطبيعة . وكلما تقدم الطب كان معنى ذلك أن الأطباء استكشفوا القوانين الطبيعية للأمراض ، وأخضعوها لمصلحة الإنسان — وليست التعاليم الأخلاقية ولا علم النفس إلا من هذا القبيل ، كلاهما يعالج النفس كما يعالج

الطبيب الجسم ، وكلاهما يكتشف القوانين الطبيعية و يحاول إخضاعها .

* * *

بين هذين القانونين — قانون الخضوع لقوانين الطبيعة وقانون تعديلها ، سر الحياة . و بينهما حيرة العلماء . و بينهما اختلاف أنظار الفلاسفة . لقد نظر قوم إلى الحياة من جانب القانون الأول وحده فقالوا بالجبر ، وأن الإنسان كالريشة فى الهواء وقالوا بالقضاء والقدر . ونظر قوم إلى القانون الثانى وحده فقالوا بحرية الإرادة وقالوا بسلطة الإنسان ، وأنكروا الحظ وأنكروا القضاء والقدر . وتفلسف قوم فنظروا إلى القانونين معاً . وقالوا إن الطبيعة التى تخضع بقوانينها الإنسان قد منحت الإنسان نفسه قدرة على محاربتها والوقوف أمامها لمقاومتها .

والحق أن لا حرب ولا خصام ، وأن حياة الإنسان نفسها ضرب من ضروب القوانين الطبيعية ، وأن هناك التئاما بين القوانين الطبيعية والإنسان ، وأن هناك « وحدة فى الوجود » لا أثينية فى القانون ، وأن الإنسان لا يحارب الطبيعة ولكن يندمج فيها و يعيش فى وفاق معها ، وكلما رقى ، فهم أسرارها وقوانينها . و إذا فهمها لم يعدلها ، ولكنه يعدل نفسه ليوافقها ، وليكوّن هو وهى نغمات متجانسة لا نشوز فيها ، وأن النزاع والخصومة بين الإنسان وقوانين الطبيعة سببه الجهل بها ، فيكون شأنه كالطفل يلعب بالنار والغر يتجرع السم يظنه سكّرا ، والمثل الأعلى للإنسان إنسان عرف كل قوانين نفسه ووفق بينهما . كالإناء يوفق بينه و بين غطائه ، والسيف يختار له ما يوافق من غمده . و إذن فلا جبر ولا اختيار ولا خصومة ولا نزاع ، ولكن أين هو ذلك الإنسان ؟

متاعب الحياة[1]

— ١ —

الحق أن هناك صنفين من المتاعب : متاعب حقيقية ومتاعب وهمية ، وربما كانت الأخيرة أكثر من الأولى . فمن كان فقيراً لا يجد ما يسد رمقه ورمق أسرته فهذا مصدر تعب حقيقي ، ومن رزقت بزوج غير صالح فتعبها منه تعب حقيقي . ولكن هذا وأمثاله قليل بجانب المتاعب الوهمية التي يخلقها الإنسان خلقاً والتي تعود إلى حالة مرضية في نفسه ، أكثر مما تعود إلى سبب خارجي متعب حقاً .

ولنستعرض الآن نماذج من الناس يتعبون متاعب جمة ، ومصدر تعبهم هم أنفسهم ، وكان في إمكانهم أن لا يتعبوا إذا غيروا نفسيتهم وأصلحوا من نظرتهم إلى الحياة .

هنالك الرجل الذي لا يعمل عملا إلا وأغضب من حوله فإذا وظف أتعب زملاءه بما يجرحهم من كلام ، أو ما يصدر عنه من تصرف ، و إذا ساق سيارة لم يبال بما يصنع في الطريق ، و إذا أشرف على أسرة لم يعبأ بزوجته ولا ولده ، و إذا تصرف أي تصرف في الحياة ، إستطاع بقدرته العجيبة أن يحول تصرفه إلى معركة مهما كان نوع العمل بسيطا .

وهناك المرأة التي تخلق من كل شيء سبباً للنزاع حول ما تشتري وحول ما تلبس وحول ما تسكن ولا يعجبها أي تصرف من تصرفات زوجها ولا يعجبها أي عمل من أعمال أولادها فهي ناقمة أبداً ساخطة أبداً متعبة لنفسها ولأسرتها أبداً .

وهناك الرجل الذي حطم أعصابه بسلوكه وتوقع الفشل في كل شيء سيحدث

(١) أحاديث ألقيت في الإذاعة المصرية في سنة ١٩٤٤ .

فهو إذا تزوج اعتقد أنه سيفشل فى الزواج ، وإذا رزق أولادا توقع أنهم لا ينجحون فى مدارسهم ، وإذا سار فى الطريق توقع أنه ستصدمه سيارة أو ترام ، وإذا عهد إليه عمل توقع أنه لن ينجح فيه وهكذا . فنظرته إلى الدنيا نظرة تشاؤم مستمر ، وهذه النظرة كفيلة بأن تنغص عليه وعلى من حوله معيشتهم .

وهناك العيابون والظنانون الذين لا يعجبهم العجب ، فلا أسرتهم تعجبهم ولا حكومتهم تعجبهم ، ولا الجرائد إذا قرأوها ، ولا المجلات إذا تصفحوها ، ولا التعليم إذا عرضت عليهم أساليبه ، ولا أى نظام فى بلدهم يعجبهم ، ثم هم يعيبون ولا يقترحون ، ويهدمون ولا يبنون ، فاسودّ العالم أمامهم ، وسودوه من حولهم .

هذه بعض أمثلة من متاعب الحياة الوهمية التى أوجدها الإنسان بنفسه ، وخلقها بأوهامه أو أعصابه أو تشاؤمه ، ثم رمى نفسه فيها وتعب منها وأتعب من حوله بها . والعالم مملوء بهذه المتاعب الوهمية التى ليس لها علاج خارجى وإنما علاجها ليس إلا فى إصلاح النفس ونظرتها إلى الحياة .

والناس فى هذه المتاعب الوهمية كلابس المنظار ، فمن لبس منظاراً أسود رأى الدنيا كلها سوداء ، ومن لبس منظاراً أبيض رأى الدنيا كلها بيضاء .

وفى استطاعة الإنسان إذا ربى نفسه تربية صحيحة أن يتغلب على المتاعب الوهمية ، بل وكثير من المتاعب الحقيقية . نعم إن هناك متاعب خارجة عن إرادته كمتاعب الغارات الجوية ، وكوارث الحرب ، وبعض ما أنتجته المدنية الحديثة من شرور ، ولكن هذه نادرة الحصول فى الحياة العامة للإنسان .

أما المتاعب اليومية الكثيرة الوقوع فيمكن التغلب عليها بتسليح النفس وتقويتها ، وأهم سلاح للنفس تستطيع به التغلب على المتاعب قدرتها على تعديل نفسها على وفق الصعاب التى تعترضها ، فإذا كانت متاعب الحياة من قلة دخل

البيت أمكن بالحكمة فى الإنفاق التغلب على الصعاب . وإذا كان التعب من غضب الزوجة أو الزوج ، فالعلاج أن يتعود الحلم ويقابل الإساءة بالإحسان . وكلما استطاع الإنسان أن يعدل نفسه وفق الظروف التى حوله كان أسعد حالا وأقل متاعب .

يروى أن ستة أشخاص قضت عليهم الظروف السيئة أن يحبسوا فى حجرة ضيقة مغلقة ستة أشهر ومعهم طعام قليل ، وماء قليل ، فأما اثنان منهم فتبرما أشد التبرم من هذه الحياة ولم يريا بصيصاً من الأمل يسرى عنهما فأصيبا بالجنون . وأما ثلاثة آخرون منهم ، فنظروا إلى هذه الحياة بمنظار أقل سواداً من الأولين ، فأصيبوا بنوبات عصبية متقطعة . وأما السادس فأبعد عن ذهنه ما استطاع فكرة البؤس الذى هو فيه والتفكير فى ما سيحدث ، وشغل نفسه بتأليف كتاب يستمده من أفكاره وآرائه ومعلوماته . فلما فتح عليهم الباب ليطلق سراحهم كانت حالتهم ما شرحنا ، ولا فرق بينهم إلا من نجا منهم عدل نفسه وفق ظروفه وأما الخمسة الآخرون فلم يستطيعوا ذلك .

إن كثيراً من متاعبنا تنشأ من جُبننا واستسلامنا للمتاعب تطغى علينا وتخيفنا وتحاربنا فتهزمنا ، أما من شجع قلبه وصمم على أن يتغلب على المتاعب مهما كثرت وكبرت فأنه يغلبها ويظفر بها ، وينجو من أضرارها .

إن موقف الإنسان أمام المتاعب كموقف الجنود فى ميدان القتال ، إن فروا هزموا وتغلب العدو عليهم ، وإن صبروا واحتملوا وصمموا على أن يغلبوا العدو ، فازوا وظفروا .

من أراد أن يعالج نفسه علاجاً حقيقيا ليخفف عنه وعمن حوله ما يصدر عنه من متاعب ، فليعرف نفسه أولا .

— ٢ —

حدثتكم فى الحديث الماضى عن متاعب الحياة وأن كثيراً من هذه المتاعب وهمى ، و بعضها حقيقى .

واليوم أذكر لكم أن هذه المتاعب بعضها يكون مصدرها الشخص نفسه و بعضها يكون مصدرها النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والأخلاق الذى يحيط به مما له به علاقة .

فأبدأ بذكر المتاعب التى مصدرها الإنسان نفسه . فقد نرى ثلاثة أشخاص أو أكثر فى ظروف واحدة أو متشابهة من حيث الدخل ومن حيث الوظيفة ، ومن حيث الأسرة ونحو ذلك ، وأحدهم سعيد فى حياته فرح مسرور مغتبط يحمد الله على ما هو فيه من خير ، والثانى شقى منقبض الصدر كثير الشكوى متململ مضطرب ، والثالث وسط بين هذا وذاك ليس بسعيد كالأول ولا شقى كالثانى ، يبكى و يضحك ، و يحزن و يفرح ، ولا فرق بينهم إلا حالتهم الشخصية .

، ومن الحكايات الطريفة فى ذلك أن دلوين كانا مربوطين بحبل ومعلقين فى بكرة على بئر ورجل واقف على البئر يستقبل الدلو الملآن ، و يفرغه فى حوض ثم ينزله إلى البئر ثانية بواسطة البكر ، وفى العادة أن الدلوين يتقابلان فى منتصف البئر أحدهما مملوء والآخر فارغ ، فلما تقابلا سأل الدلو الفارغ الدلو المملوء : لماذا تبكى ؟ فقال : وكيف لا أبكى ، وقد ملئت ماء رائقا وها أنا أصعد ليفرغنى الرجل ثم ينزلنى قاع البئر المظلم . وأنت لم ترقص ؟ قال الدلو الفارغ : وكيف لا أرقص وأنا أنزل أمتلىء ماء رائقا ثم أصعد إلى الجو المضىء المشمس ؟ وهكذا يعمل الدلوان عملا واحداً وأحدهما يبكى منه والآخر يرقص له ؛ وفى الناس كثير من أمثال هذين

الدلويين يعملون عملا واحدا وظروفهم واحدة ، وبعضهم يبكى ويضحك بعضهم .

* * *

كل إنسان مهما صح جسمه ومهما صح عقله فيه نقطة ضعف جسمى ونقطة ضعف عقلى وليس هناك إنسان سليم الجسم سليم العقل سلامة تامة ، وكلنا نألم من هذا الضعف وهذا المرض إلى حد ما .

والجسم والعقل مرتبطان ارتباطا وثيقا ، فالجسم يؤثر فى النفس والعقل . والنفس أو العقل يؤثر فى الجسم . فالإنسان قد يحس قوة فى جسمه فيصح مزاجه ويصح تفكيره ، وقد يمرض جسمه فيسوء مزاجه ويسوء تفكيره ، بل قد يأكل أكلة ثقيلة فيثقل ذهنه ، ويأكل أكلة لطيفة فتنبسط نفسه وينبسط تفكيره . وقد تخجل الفتاة فيحمر وجهها ، وقد يغضب الرجل فتحمر عيناه ، ويكاد ينقدح منها الشرر ، وتتوتر أعصابه ، وقد يخاف الإنسان فترتعش أطرافه ، ويقف شعر رأسه ، وآلاف الأمثلة من هـذا القبيل ، ترينا أثر الجسم فى العقل وأثر النفس فى الجسم .

وكثير من متاعب الحياة الشخصية سببه مرضه الجسمى ، أو العقلى ، وعلى الخصوص هذا المرض العقلى أو النفسى .

وكثير من متاعب الحياة ترجع إلى مزاج الشخص ، والمزاج هو أساس ما يصدر عن الإنسان من سلوك ، وقد كان الأقدمون يقسمون الأمزجة إلى أربعة : دموى وبلغمى أو لمفاوى وصفراوى ، وسوداوى ، وقد خصصوا لكل مزاج من هذه الأمزجة صفات خاصة ؛ فالدمويون يمتازون بحب الحركة والمرح والخفة وسعة الأمل ، والطيش وقلة الصبر . والبلغميون يميزهم بطء الحركة والخمول . وقلة الجلد والوداعة ، والميل إلى السكون . والصفراويون يميزهم الطموح والعناد

وحب العمل والشجاعة . والسوداويون يميزهم الانقباض والحزن والتشاؤم والتأمل والتواضع . وقد قسموهم إلى هذه الأقسام بناء على أن فى الجسم سوائل مخلوطة ، إذا غلب سائل منها نسب المزاج إليه . والعلم الحديث لا ينكر أقسام الناس إلى هذه الأمزجة ، ولكن يعللها بأسباب أخرى . ويرى أحد علماء النفس أن الناس كلهم يمرون فى حياتهم بجميع الأمزجة فهم ، يبدأون دمويين فى الطفولة ، ثم سوداويين فى الشباب ، ثم صفراويين فى الكهولة ، ثم بلغميين فى النهاية .

وأيا ما كان ، فمزاج الإنسان أو كيفية سلوكه فى الحياة قد تكون مصدر سعادة له ، وقد تكون هى مصدر المتاعب ، والمسؤول عنها هو الشخص نفسه .

استعرض كثيراً من الأسر ، وابحث سبب متاعبها تجد أن أسرة مثلا سبب متاعبها ما أصيب به الزوج أو الزوجة ، أو هما معاً ، من حدة المزاج وسرعة الغضب ، فهى أو هو يغضب لأتفه الأسباب ، يغضب من طبق كسر ، أو قرش ضاع ، أو طفل عمل عملا لا يرضاه ، أو كلمة نابية أو غير نابية صدرت من أحد أفراد الأسرة فيغضب ، فإذا غضب خرج عن وعيه وأتى بأعمال جنونية أو شبه جنونية ، وكثيراً ما تسبب هذه الأعمال متاعب متسلسلة يصعب حلها ، وهكذا تصبح الأسرة بين أعمال شاذة ومعالجة لنتائجها السيئة . ولا سبب لهذا كله إلا مزاج شاذ . فالمرض فى أصله مرض نفسى تسببت عنه أعمال مادية شاذة أيضاً . وهذه زوجة أصيبت بالإسراف فهى تستولى على مرتب الزوج فى أول الشهر وتنفقه فى كماليات من فستان فخم ، أو أدوات زينة ، ونحو ذلك ، وتظل الأسرة بعد هذا التصرف فى عذاب ونزاع وعتاب ولوم بقية الشهر . وهذا التبذير إذا دققت النظر فيه وجدته يرجع إلى مرض نفسى أو إلى مزج خاص ، سببه إما غلبة حب الظهور عند الزوجة ، أو حب التعالى على مثيلاتها ، أو الاعتداد بالجمال ، والاعتداد بالنفس ، ويضاف إلى ذلك عدم الاكتراث بالنتائج وعدم النظر فى العواقب ؛ فهى تنفعل انفعالا وقتيا

وتتصرف حسب هذه الدوافع الوقتية من غير النظر إلى النتائج .

وهذا رجل يعذب الأسرة بسقوطه فى (كيف) من الـكيوف وإدمانه عليه ، فهو ينفق على (كيفه) أكثر ماله ، ويسطو على ما لزوجته وأولاده من حقوق فى هذا المال ، كما أنه يفقد بهذا (الـكيف) الاستمتاع الصحيح بحياة الأسرة ، وأداء واجبها وما عليه من التزامات نحو زوجته وأولاده ، وهذا أيضاً مرض نفسى ، يرجع إما إلى وراثة ورثها عن أبيه ، أو إلى تقليد لأصحاب صحبهم أو انهيار أعصاب ، حسّن له بعدها أصدقاء السوء أن ينتشل أعصابه المحطمة (بكيف) من الـكيوف فزادتها تحطيا .

وهذه فتاة نغصت على الأسرة حياتها بمزاجها ، فهى تريد أن تتزوج من لا يرضاه أهلها ، أو هى متسامية جداً لا يعجبها كل من تقدم إليها ، ورسمت لنفسها حياة خيالية لا يحققها الواقع ، أو هى تأثرت بمناظر السينما ، فأرادت نوعاً من الحياة غريباً عن حياتنا الشرقية ، وتقاليدنا الاجتماعية ، فهى فى نزاع دائم مع أسرتها لا تريد ما يريدون ولا يريدون ما تريد ، وهذا أيضاً يرجع إلى مزاج الفتاة وسرعة تأثيره بالمحيط من غير نظر فى النتائج ومن غير تفكير عميق فيما يقلد وما لا يقلد . وهكذا وهكذا من آلاف الأمثلة التى تدل على أن كثيراً من متاعب الحياة سببه مرض نفسى أو مزاج شاذ فيسبب لنفسه ولمن حوله من أسرته ، ومن يتصل به متاعب لا تنتهى ، وقد يكفى تصرف واحد من هذه التصرفات الشاذة فى متاعب سنين تستوجب من الألم المتعاقب المتسلسل ما لا يعد وما لا يحصى .

ولا يمكن التغلب على المتاعب من هذا القبيل إلا إذا عرف السبب ، ثم عولج علاجا صحيحاً عميقاً لا علاجا سطحيا ظاهراً ، وهذه هى نقطة الصعوبة فى الموضوع ، فـكثير من الأمراض النفسية لا يمكن علاجه إلا إذا عرف أصله ، وعرف تاريخه . وفى كثير من الأحوال يرجع المرض النفسى إلى حالة الشخص

فى طفولته ، أو حادث قديم حدث له فى شخصه أو حدث فى أسرته ، وعلى ذلك أمثلة كثيرة ؛ فالأبوان اللذان لم يرزقا إلا طفلا واحداً وهما على حالة جيدة من الثراء يعتادان أن يجيبا الطفل من صغره إلى كل مطالبه ، فلا يذوق ألم الحرمان ولا يتعود شيئاً من التضحية ؛ وليس له أخ ولا أخت يعلمانه فى البيت درس الأخذ والعطاء والأثرة والإيثار ، فينمو عنده الاعتداد بشخصه وعدم النظر إلى شىء إلا إلى نفسه ، فمال الأبوين له ولملذاته وصحتهما ومتاعبهما لراحته ، وينمو وهو مدلل ، يغضب أشد الغضب إذا لم تحقق رغبته — هكذا هو فى بيته وخارج بيته . مثل هذا الشاب يكون مصدراً لمتاعب لا تنتهى — متاعب فى مدرسته عند تعلمه ، ومتاعب فى وظيفته إذا وظف ، ومتاعب فى زواجه إذا تزوج ، فإذا أردنا أن نعرف السبب فى متاعبه لا يمكن أن يتضح إلا بالرجوع إلى حالته فى الطفولة ، كما رأينا — وإذا أردنا العلاج فلا يصح علاج إلا بعد معرفة سبب المرض ، وهكذا لا يمكننا أن نعرف سبب المتاعب التى تصدر من بخل البخيل ، وإسراف المسرف وغضب الغضوب وخوف الجبان والوقوع فى مصايب (الكيوف) ونحو ذلك إلا بالرجوع إلى أساسها الأول — كيف نشأ الطفل فى بيته ، وما هى الظروف التى أحاطت به ، وما أصل هذه العادات السيئة ، وكيف نمت ، وإلام وصلت ، وفى ضوء هذا كله يمكن معرفة العلاج إذا حسنت النية ، وصدقت الإرادة . أما غير ذلك فإنما يكون علاجا كما يعالج الصداع بحبة من الأسبرين من غير أن يعرف السبب الحقيقى للصداع ، فقد يكون المعدة ، وقد يكون الأمعاء ، وقد يكون الأسنان ، وهذا ما جعل قول سقراط باقياً على الدهر وهو « اعرف نفسك » — فمن أراد أن يعالج نفسه علاجا حقيقيا ليخفف عنه وعمن حوله ما يصدر عنه من متاعب ، فليعرف نفسه أولا ، فى أى نقطة هو ضعيف ، وبأى مرض هو مريض ، ثم يبدأ بالعلاج . وليس هذا بالأمر الهين ، فمعرفة النفس لا بد لها من كشف ستائر تحيط بها ، والدخول منها

إلى قاعة مظلمة لا بد من تسليط الضوء عليها ، وكثيراً ما يعوقه غرور الإنسان واعتقاده الكمال فى نفسه ، أو يعوقه جبنه وعدم جرأته على كشف هذه الستائر عن الوصول إلى حقيقة المعرفة .

ولكن على كل حال هذا هو العلاج الوحيد للتغلب على متاعب الحياة التى مصدرها مزاج الشخص أو حالته النفسية المريضة .

الابتهاج بالحياة

— ١ —

لقد أكثرت فى أحاديثى الماضية عن متاعب الحياه فلأحدثكم اليوم عن الابتهاج بالحياة .

والحق أنا لو قارنا بين الغربيين والشرقيين وجدنا أن الشرقيين تغلب عليهم طبيعة الحزن والاكتئاب . وهذا ما يلاحظه الغربيون على الطلبة الشرقيين الذين يتعلمون عندهم ، وهذا أيضاً ما نلاحظه نحن على أنفسنا ، فنحن إذا حدث ما يستوجب الحزن أفرطنا فيه كما يحدث فى الوفيات — نبالغ فى البكاء على الميت وننغص حياتنا لفقده مدة طويلة ونقيم التقاليد الكثيرة من مآتم وخمسان وأربعين وحفلات تأبين ونحو ذلك ، على حين أن الغربى يحزن ولكن فى رفق وهوادة ويرى أن الموت يكاد يكون أمراً طبيعياً كالحياة . وكذلك نبالغ فى الحزن فى النكبات كالحزن عند الأمراض والحزن عند خسارة مالية ونحو ذلك ، وكثير منا إذا لم يجد سبباً من أسباب الحزن خلقه ، فهو وأهله فى صحة وعندهم من المال ما يكفيهم ودنياهم سائرة على ما يرام ، ولكنهم مع ذلك يخلقون أسباب الحزن خلقاً فيحملون همّ المستقبل وماذا سيكون فيه أو يتنازعون على شىء تافه فيحزنون من أجله ، وعلى كل حال فطبيعتنا يغلب عليها الحزن . ومن فرح بالحياة وابتهج بها فابتهاج قليل يعقبه حزن طويل أو إفراط فى مباهج الحياة يسبب تنغيصاً وحزناً وألماً يعقبه أضعاف ما ناله من فرح وابتهاج .

ولعل السبب فى انتشار طابع الحزن علينا يرجع إلى أمور كثيرة ، أهمها ما مضى على الشرق من عصور كان فيها ظلم الحكام شديداً قاسياً أمات روح الناس

وقلل من ابتهاجهم . وتلا هذا الاستعمار وما فيه من ظلم واستغلال وضغط على الحرية جعل الناس يألمون ويكتمون ألمهم ، والألم المكتوم أفعل فى النفس من الألم الظاهر . وهناك سبب آخر وهو أن الحياة فى الشرق تسودها الفوضى وعدم النظام والفوضى فى الحياة تسبب المتاعب والألم ، فإذا كان البيت فوضى تعب أفراد الأسرة ، وإذا كانت الوظائف فوضى تعب الموظفون . وإذا كان الترام والسيارات فوضى تعب الراكبون ، وإذا كان الطباخون وسائقو السيارات والخدم لا يسيرون فى حياتهم على نمط معقول تعب من يعاملهم وهكذا .

فالإنسان فى استمرار يعامل طائفة كبيرة من أفراد المجتمع ، فإذا لم تنتظم الحياة معهم سببت الألم والمتاعب وهيجت الأعصاب وأورثت الحزن وهكذا .

والحياة فن من الفنون فإذا ضاع فن الحياة ضاع السرور بها ، بل إن السرور بالحياة نفسه فن من الفنون ويخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها فى الظروف الخارجية ، فيشترط لأجل أن يكون مسروراً مالاً وبنين وصحة ونحو ذلك .

فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف . وفى الناس من يشقى فى النعيم ومنهم من ينعم فى الشقاء . ومن الناس من لا يستطيع أن يشترى ساعة سعيدة ضاحكة مستبشرة بأغلى الأثمان ، ومنهم من يستطيع أن يشتريها بأتفه الأثمان ، وذلك لاختلافهم فى الطبع والمزاج .

إننا نحتاج للابتهاج بالحياة إلى شيئين هامين : أولهما تنظيم الحياة فى أنفسنا وفى من حولنا . فالبيت إذا نظم ، أعنى نظمت ميزانيته ونظمت حياة صغاره وكباره ونظمت العلاقة بين الزوجين وبينهما وبين الأولاد كان أهله أقرب إلى الابتهاج بالحياة . والموظف إذا نظمت مصلحته ، أعنى حسنت علاقته بينه وبين رؤسائه ومرءوسيه كان أهدأ بالا وأسعد حالا . وكذلك كل ما يتعلق بالإنسان من شئون إذا نظمت كانت مبعث سعادة وابتهاج . والأمر الثانى الشجاعة . فكثيراً

ما يكون سبب الحزن فقدان الشجاعة ، يخاف من الموت ، و يخاف من الفقر ، ويخاف أن تنزل به كارثة ، و يخاف من المستقبل ، و يخاف أن يفشل فى عمله ، فهذا الخوف كله ينغص عليه حياته و يجعله منقبضاً غير مبتهج .

وسبب آخر وهو عدم تنظيم أسباب السرور ، وهذا أمر يحتاج إلى مهارة . فالزوج أو الزوجة فى البيت إذا مهرا فى خلق أسباب السرور جعلا البيت جنة . ونحن تنقصنا هذه المهارة فى خلق السرور مع مهارتنا الكبرى فى خلق المنغصات . فاجتماعات المنزل كثيراً ما تنتهى بنزاع ، حتى الملاهى العامة كثيراً منها لا يرضى الذوق السليم ولا الفن الرفيع ، وكثيراً ما تكون تافهة لا يجملها فن ولا يرقيها ذوق . ومن أجل هذا كان أشد الناس بؤساً فى الحياة هنا من رقى ذوقه ونبلت نفسه .

إن الناس يختلفون فى قدرتهم على الابتهاج بالحياة اختلاف المصابيح الكهربائية ، فمنها مصباح محترق لا ضوء فيه ، ومنها مصباح يضىء بقوة عشر شمعات أو خمس عشرة أو عشرين أو مائة أو مائتين . وهكذا الناس طبيعة منيرة مضيئة مشرقة وطبيعة حزينة أسيفة مكتئبة مظلمة .

وجزء من هذا الاختلاف طبيعى فى خلقة بعض الأفراد ، ولكن الجزء الكبير يرجع إلى العادة ، فمن السهل تعويد النفس النظر إلى الحياة نظراً بهيجاً مفرحاً .

ومن الملاحظ أن الذين يغلب عليهم الحزن هم الذين يكثرون التفكير فى أنفسهم والتفكير فى مستقبلهم . فإذا اعتدل الإنسان فى التفكير فى نفسه ووسع أفقه وفكر فى غيره وفكر فى العالم كان أقل حزناً وأكثر ابتهاجاً . وهذا الفن — فن الابتهاج بالحياة — يتطلب أن يقبض الإنسان على زمام تفكيره فيصرفه كما يشاء ، فإن رأى نفسه قد تعرض لموضوع مقبض كميزانية بيته أو سوء

مصلحته أو متاعبه فى وظيفته فليحول تفكيره إلى أخرى ، و يثير مسألة من المسائل التى تجلب السرور عليه .

ومن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقيع الشر ، والألم بحصول الشر فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه ، فإذا حدثت لا قدر الله ، فليقابلها بشجاعة وحكمة واعتدال .

إن الرجل المبتهج بالحياة يزيده الابتهاج بالحياة قوة ، فيكون أقدر على الجد وحسن الإنتاج ومقابلة الصعاب من الرجل المنقبض الصدر الممتلئ بالهم والغم . وكما أن كل عادة تكتسب بالتمرين ، فالصانع يكتسب صناعته من التمرين ، والموظف يتقن عمله بالتمرين ، والنظافة والقذارة حسب الاعتياد ، والأخلاق الفاضلة أو الرذيلة حسب الاستعداد . فكذلك الشأن فى مقابلة الحياة بالحزن والألم أو بالابتهاج والسرور .

وما الحياة ؟ مرحلة عابرة لا تستحق أن ينغص الإنسان على نفسه فيها بكثرة الألم . وكل ما يطلب من الإنسان فيها أن يقضيها على أحسن وجه مبتهجاً مسروراً فعالا للخير ، يشعر بالفرح لفرح الناس ، و بالخير يصلون إليه ، و يبتهج بجمال الطبيعة وجمال ما فيها ، فإن صادفه ما يؤلم نحاه جانباً إن أمكنه ، ورضى مطمئناً بما لم يمكن تغييره . و بهذا يعيش عيشة راضية — عيشة سعيدة موفقة .

إن أردت أن تعرف شيئاً صحيح هو أو فاسد سواء كان هذا الشىء عادة من العادات أو خلقاً من الأخلاق أو فناً كأدب أو موسيقى أو تصوير ، فانظر هل هو مما يزيد الحياة قوة ويكسب الحياة صحة فاحكم عليه — إذن — بأنه عمل نافع وفن نافع ، و إن كان يضعف الحياة و يجعلها مريضة فاحكم عليه — إذن — بأنه عمل ضار وفن ضار ، ولا شك أن الهم والاستسلام للحزن والخوف من توقع المكروه

والأفراط فى تقـدير الآلام مما يضعف الحياة ويضعف الإنتاج ، ويزيد الآلام والبؤس والشقاء .

فحارب الكآبة فى نفسك وابتسم للحياة وابتهج بها فى غير إسراف تزد حياتك قوة وتشعر بالسعادة وتُشعر بها من حولك .

— ٣ —

أكرر القول بأن حياة الناس فى الشرق يغلب عليها طابع البؤس والحزن ، إذا قارناها بالحياة فى الغرب ، وأزيد اليوم القول بأن من أسباب ذلك أن عواطفنا حادة لا معتدلة ، فنحن نبالغ فى الغضب إذا غضبنا ، ونبالغ فى الحزن إذا حزنا ، ونبالغ فى الفرح إذا فرحنا ، وأسباب الحزن عندنا أكثر من أسباب الفرح ، لذلك يغلب علينا الحزن والإفراط فيه . وقلّ منا من منح الاعتدال فى عواطفه وضبط نفسه عند تعرضه لأسباب الحزن أو لأسباب الفرح ، يتجلى ذلك فى كل مظاهرنا ، فخير الأكل عندنا ما كثرت فيه الأقاويه والبهارات والدسم . فإذا خلا من ذلك أو قلت كمية توابله ودسمه عددناه أكلا تافها . والموسيقى لا ترضينا إلا إذا تناغمت مع عواطفنا الحادة فكانت إما حزينة باكية أو مرحة صاخبة ، والممثل لا يرضينا إلا إذا بالغ فى الانفعال وصخب فى الأقوال وأكثر من الحركات وهكذا ، ولما كانت أسباب الحزن كثيرة ونحن نبالغ فيها ونطيل زمنها كانت أكثر أوقاتنا حزنا . إن أسباب الحزن تقع للشرقيين والغربيين ولـكن الغربى معتدل فى عواطفه يؤمن بأن العزم وقوة الإرادة تستطيع أن تتغلب على الحزن والألم ، فينجح فى ذلك . أعرف كثيراً من الحوادث يظهر فيها الغربى بمظهر الجلد الصبور الشجاع المحارب للأحزان لا المستسلم لها .

كان عندنا فى كلية الآداب أستاذ ألمانى مستشرق شهير اسمه الأستاذ برجستراسر قضى عام دراسته فى مصر ، ثم ذهب لقضاء إجازته فى ألمانيا فحدثنى صديق له أنه

خرج يوماً للنزهة يتسلق جبلا عاليا حتى إذا بلغ القمة زلت قدمه فظل يهوى حتى وصل إلى القاع ميتاً ، فأخذ إلى المستشفى وأخبرت زوجته بالحادث وكان أبوها يزورها هذه الليلة قادما من الريف ، فأبت أن تزعجه وصممت أن يبيت عندها ليلة سعيدة هانئة ، فكتمت عنه الخبر ، وكانت تدخل الحجرة وحدها فتدمع على زوجها ، ثم تخرج إلى أبيها تحدثه كأن لم يكن شيء ، حتى أصبح الصباح فأخبرت أباها بالخبر فى هدوء ، وذهبت إلى المستشفى تقوم بواجب الوفاء لزوجها .

وحدث فى الحرب العالمية الأخيرة أن عميد معهد علمى فى بيروت ، وهو أمريكى الجنس ، فقد ابنه فى الحرب فذهب بعض أصدقاء الأسرة من بيروت يعزونه حينما قرأوا الخبر فى الجرائد ، فاستقبلهم الرجل وزوجته بالبشر والترحاب على عادتهما ، وأخذ الجميع يتحدثون فى المسائل العامة والجو وما إلى ذلك كأن لم يحدث شىء ، فشك الزائرون فى صحة الخبر ولم ينبسوا بكلمة فى العزاء ، حتى إذا انصرفوا تأكدوا من صحة الخبر . وهكذا من كثير من الحوادث والأخبار التى تدل على اعتدال فى المزاج وضبط للنفس ، وأخذهم بمبدأ مات الميت فليحيى الحى . ولعل من الأسباب فى ذلك أنه قد مضى علينا قرون طويلة من غير أن ندخل حرباً فأصبحنا نستعظم الموت ونبالغ فى نتائجه ، والأمة الحربية عادة لكثرة ما تلاقى من الشدائد وويلات الحروب ونكباتها تعتاد أحداث الموت وتتلقى الكوارث بصبر وثبات .

إن الابتهاج بالحياة فن من الفنون جهلناه فأصبحت حياتنا كالماكينة التى وضع جزء منها فى غير موضعه فسبب ذلك خراب الماكينة كلها وضوضاءها فى سيرها وعدم انتظامها ، والذنب ذنبنا لا ذنب أى شىء آخر . خذ مثلا الأسرة ، فكل أسرة غالباً لها أوقات فراغ تقضيه فى البيت مجتمعة ، وهذا الوقت عند الأمم الراقية من أسعد الأوقات يقضونه إما فى حديث ممتع ، أو فى لعب فنية ، أو نوادر طريفة ، أو (فوازير) جميلة ، فتنتعش بذلك النفس وتبتهج الحياة وينسى كل فرد ما لقيه من متاعب عمله خارج البيت . فماذا نصنع نحن فى مثل هذا الوقت ؟ لم نتقن فن اللعب

الظريف ولا النوادر اللطيفة وإنما أتقنّا فن المشادة والغضب لأتفه الأسباب وتنغيص الحياة بما لا يحصى ولا يعد من أسباب ، إن أهم ما فى الحياة معرفة طرق المعيشة . وكان من الطبيعى وقد كانت حياتنا أعز شىء علينا أن نبذل جهداً كبيراً فى البحث عن أسباب سعادتها والابتهاج بها . فإذا خرجنا عن الأسرة إلى الحياة خارج البيت وجدنا الرجل يضيع أكثر أوقاته فى الجلوس على مقهى ولعب شطرنج أو نرد أو نحو ذلك ، أو جلس مع أصدقاء يتحدثون حديثاً سخيفاً فى العلاوات والدرجات وتركوا أسرتهم تضيع الوقت أيضاً فى توافه الأمور ، فلا الرجل يفكر كيف يسعد أهله ، ولا المرأة تفكر فى كيف تسعد أسرتها ، وقل من استفاد من الحياة كما ينبغى ، فلا المناظر الطبيعية الجميلة تجذب أنظارهم ، ولا القراءة اللذيذة الممتعة تستدعى انتباههم ، ولا تخصيص وقت للخدمة الاجتماعية العامة تنال حظاً من أوقاتهم . فمن أين يفرحون و بأى شىء يبتهجون ؟

فالحق أن الحياة رواية فى استطاعة الإنسان أن يجعلها رواية ضاحكة مبتهجة وأن يجعلها مأساة حزينة مكتئبة .

إن أهم سبب فى الابتهاج بالحياة هو أن يكون للإنسان ذوق سليم مهذب يعرف كيف يستمتع بالحياة وكيف يحترم شعور الناس ولا ينغص عليهم ، بل و يدخل السرور على أنفسهم ، فالذوق السليم قادر على استجلاب القلوب و إدخال السرور على نفس صاحبه ونفس من حوله ، وكما قال قائل : « ما تريد نيله بالتخويف والإرهاب يمكنك أن تناله بالابتسام » .

تصور أسرة ساد فيها الذوق السليم نرى كل فرد فيها يتجنب جرح إحساس غيره بأى لفظ أو أى عمل يأباه الذوق ، بل إن ذوقه يرفعه إلى حد أنه يتخير الكلمة اللطيفة والعمل الظريف الذى يدخل السرور على أفراد أسرته . إن الذوق السليم فى البيت يأبى النزاع و يأبى حدة الغضب و يتطلب النظام وحسن الترتيب والاستمتاع بجمال الزهور وجمال النظافة وجمال كل شىء فى البيت فلسنا

مبالغين إذا قلنا إن رقى الذوق أكثر أثرا فى السعادة من رقى العقل . إن الذوق إذا رقى أنف من الأعمال الخسيسة ومن الأقوال النابية ومن الأفعال السخيفة . والذوق السليم إذا رقى فى الأمة رقى موسيقاها ورقى أغانيها ورقى رواياتها وتمثيلاتها وكل هذه مباهج للحياة تزيل غمومها وهمومها ، ولو استطعت لجعلت جزءا كبيراً من مناهج التعليم فى المدارس لتربية الذوق بجانب المناهج المكتظة بتربية العقل .

كل إنسان فى الدنيا يضع على عينه منظارا حقيقيا أو مجازيا ، وأكثرنا مع الأسف يلبس منظاراً أسود يريه كل شىء أسود . فإذا نظروا إلى الأشياء نظروا معايبها ولم ينظروا إلى محاسنها ولم يعجبهم حاضرهم ورأوا السعادة فى غير ماهم فيه ولذلك يكثرون من إذا ... ولو ... ولعل ... وعسى ... ولو حصل كل مايتمنون مازادوا شيئاً وماتغيرت حالتهم مادامت على أعينهم هذه النظارات ، وتغييرها بنظارات بيضاء ترى الحياة على حقيقتها وترى الدنيا مملوءة بالمسرات مع قليل من الأحزان وكثيراً من النعم مشوبة بقليل من النقم . وهذه الأحزان وهذه النقم قليلة القيمة إذا تسلح الإنسان بالشجاعــة فى مقاومتها . وفى استطاعة الإنسان أن ينصب فى نفسه سرادقا كبيرا ، إما لمأتم كبير أو لفرح كبير . ويخطئ كثير من الناس فيظن أن الابتهاج بالحياة معناه اللذة الحادة الجامحة ويظنون السعادة فى الإفراط فى الملاهى على اختلاف ألوانها ، إما فى سكر مفرط أو غشيان دار من دور اللهو الخليعة أو نحو ذلك . وليس هذا ابتهاجا بالحياة وإنما هو إبادة للحياة ، وهذه اللذات الحادة كنار القش تلتهب سريعا وتخمد سريعا وقد يكون من أضرار التهابها وآلامها مايساوى أضعاف لحظات لذتها — إنما نعنى بالابتهاج بالحياة موقف النفس إزاء الحياة والاستمتاع بها استمتاعا معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط . . نريد بها حالة من أحوال النفس تهيئ ذوقا للاستمتاع بمحيطنا استمتاعا أطول ما يمكن وأقوى ما يمكن ، استمتاعا يقوينا على الجد فى الحياة ويجعلنا أقدر على إسعاد أنفسنا

و إسعاد من حولنا . أما اللذات الحادة الوقتية فلذات وهمية يتبعها من الألم أكثر مما تستوجب من اللذة ، إن راحة الضمير ولذة العقل ولذة الروح ولذة النفس واللذة التي يشعر لها المرء إنه مصدر للخير يشعه على الناس كما تشع الشمس ضوءها . كل ذلك ابتهاج بالحياة لا يعادله التمرغ فى اللذات الدنيئة الوقتية التي تسبب لذة عارضة تعقبها حسرات دائمة .

استفد من تجاربى

— ١ —

ميزة إنسان على إنسان وأمة على أمة ، هى القدرة على الاستفادة من التجارب وعدمها ، فالحادثة تحدث أمام جمع من الناس فيستفيد منها أحدهم بمقدار مائة وآخر بمقدار خمسين وثالث تمر منه الحادثة على عين بلهاء ، لا يستفيد منها شيئاً .

عند الإنجليز مثل يقول : « إن العاقل له عينان تبصران ، أما الأبله فله فى وجهه تجويفان » .

وكم من الناس من لهم أعين ، ولكن لا يبصرون بها . وآذان ولكن لا يسمعون بها .

إنك قد تستطيع أن تفتح عينيك على كتاب وتقرأ كلماته ، ولكن لا تعى منه شيئاً ولا تفهم شيئاً إذا كان عقلك غائباً ، فلا فائدة فى النظر من غير ملاحظة ، ولا فى التجارب من غير عقل .

وأنت فى شبابك تستطيع أن تمرن عينيك وأذنيك وجميع حواسك على أن تربطها بالعقل ، فتلاحظ وتجرب وتستفيد من الملاحظة والتجربة .

والفرق بين من يستفيد من التجربة ومن لا يستفيد ، أن الأول يستطيع بتجاربه أن ينتهز الفرص فى حينها ، وأن يتجنب الخطر قبل وقوعه . على حين أن الثانى لا ينتهز فرصة ولا يشعر بالخطر إلا بعد وقوعه .

أنك تقرأ كتب التاريخ لتستفيد من أعمال الناس ، وما وقع لهم ، وما صدر منهم ، وما كان من نتائج أعمالهم وتقرأ سير العظماء لتتشبه بهم ، وتدرك موضع عظمتهم . وتقرأ الطبيعة والكيمياء لتستفيد من استكشاف من قبلك لقوانين الطبيعة ، فالحياة كلها تجارب واستفادة من التجارب .

إنك الآن فى شبابك تخزن معلومات من كل ما تسمع وترى وتقرأ ، فمن الخير أن يكون مخزنك أنظف ما يكون وأثمن ما يكون ، وأن يكون أشبه «بدكان» تاجر الجواهر الثمينة ، ليس فيه شىء رخيص ، ولا شىء تافه ، ثم اجتهد — بعد ذلك — أن تستخدم هذا المخزن خير استخدام .

* * *

والآن أقص عليك شيئاً من تجاربى لعلها تنفعك :

١ من الدروس الأولى التى تعلمتها ، أنى لم أخرج إلى هذا الوجود صحيفة بيضاء ، كما كان يظن القدماء ، بل كثير من صفات أبوى وأجدادى وما حدث لهم قد نقشت فى صحيفتى ، سواء فى ذلك الصفات الجسمية أو العقلية أو الخلقية .

ولأضرب لك مثلين ، كان لهما أثر سىء فى حياتى :

١ أحدهما أنى وأنا حمل فى بطن أمى كانت لى أخت ، فتاة فى الثانية عشرة من عمرها كلفتها والدتى ووالدتها ، أن تصنع قهوة لضيوفها ، فما أشعلت النار فى « السبيرتو » حتى التهب ، وأصابها فى شعرها ثم فى وجهها ثم فى ملابسها وجسمها ، فصرخت ، ثم أدركوها وهى شعلة نار ، ولم ينفع فيها إنقاذ ولا طب ، وأسلمت روحها لخالقها ، فقضيت أشهراً تعيسة فى بطن أمى أتغذى بدمها الحزين ، وتتكون أعصابى من أعصابها المحطمة ، ويتحول بعض جسمى إلى دموع مسفوحة ، وآهات مضنية ، ثم ولدت فى هـذا الجو الحزين ، لم أشاهد أول ما شاهدت ضحكة ولا ابتسامة ، بل كان حزن وسكون ودموع وضنى .

هل كان لهذا الحادث أثر فى نفسى ؟ وهل كان ما أجد فى كل حياتى من حزن عميق ، وميل إلى الغناء الحزين والمنظر الحزين ، وتفضيل المأساة على الملهاة ، هل كان مرجع ذلك كله إلى هذا الحادث ؟ قد يكون ، وقد يكون أحد الأسباب غذته الأحداث والتربية التى لم تمح أثره ولم تصلح فاسده . ولهذا كان القدماء

على حق فى أن ينصحوا الحامل أن تنظر إلى الصور الجميلة ، وأن تحيط نفسها بالمناظر السارة والأحاديث المفرحة .

والحادثة الثانية أنى ورثت من والدتى — رحمها الله — قصراً فى النظر أتعبنى فى حياتى ، وقد عالجته أخيراً بالمنظار ، فلم يكن فيه الغناء الكافى ، وكم فوت على قصر النظر من فوائد ، وأوقعنى فى مآزق ، وأخجلنى فى مواقف وأربكنى فى التصرف ، وكان له أثر فى أخلاقى .

* * *

وزاد فى الحادثين سوءاً أن التربية كانت عندنا — وما تزال — متروكة للمصادفة . ولو كانت تربية صحيحة لدرست فيها شئون كل طفل وشئون أسرته ، وعرفت أمراضه ومنشؤها ، ووضعت لها طرق العلاج الصالحة لها . لو كانت تربيتى صحيحة لاكتشفت أعراض الحزن فى الحالة الأولى ، وعولجت من الناحية النفسية علاجاً صحيحاً ، وعودنى المشرفون على تربيتى أن أتذوق السرور كما أتذوق الحزن ، وأن أنعم بالحياة كما ينعم بها صحيح الأعصاب صحيح النفس ، ولعولج قصر نظرى من أول الأمر — كما يقتضيه العلم — فخفف من حدته إن لم يستطع أن يذهب بالمرض كله .

كم تستطيع التربية أن تصلح من فساد وتعالج من مرض ، ولكن كل شىء عندنا متروك للمصادفة ، زراعة الزارع ومالية التاجر وسياسة الأمة . القاعدة عندنا « كل شىء حيثما اتفق » وعند غيرنا « كل شىء حسبما وصل إليه العلم الحديث » .

* * *

استفد من تجاربى بأن تؤمن بقانون الوراثة ، فتسير فى عملك على وفقه

فليس يصح أن يتزوج قصير النظر من قصيرة النظر ، ولا مصدور من مصدورة ، ولا ضعيف القلب من ضعيفة القلب .

وأن تؤمن بالبيئة وأثرها فى الإنسان فتحيط نفسك بخير بيئة ما أمكنك .

وأن تؤمن بالتربية فتعالج بها المرض وتكمل بها النقص ، فلكل داء دواء من التربية متى أجيد فهمها .

وأن تؤمن بالعلم وتحله فى حياتك محل المصادفة وترك الأمور حيثما اتفق ، فقد أصبح بناء كل شىء على العلم هو دعامة المدنية الحديثة وشعار التقدم الإنسانى .

— ٣ —

حياتنا مربى بلا خبز !

١ فى السنين الخمس الأولى من حياتى كان يقوم على تربيتى أسرتى وحارتى .

فأما أسرتى فكانت أبا وأما وإخوة وأخوات فقط ، فهى من هذه الناحية من خير الأسر ، فلا أهل للأب ينغصون حياة الأم ، ولا أقارب للأم ينغصون حياة الأب ، فليس هناك نزاع بسبب الأقارب يفسد على الأسرة سعادتها كما يحدث فى كثير من العائلات .

ولكن كانت أسرتنا أسرة أبوية ، أى أن الأب فيها هو السلطان الأعظم والحاكم المستبد ، ولا شىء للأم ولا للأبناء والبنات . فالأب بيده المال ، و بيده وضع الميزانية ، بل هو الذى يتحكم فيما نأكل كل يوم وصنفه ، ولا يحدث شىء فى البيت من غير إذنه ، والأم والأولاد ليس عليهم إلا الطاعة من غير جدال . وكثيراً ما يحدث أن أبى وأولاده الذكور يأكلون وحدهم ويأكلون أولا ، وتأكل الأم مع بناتها وحدهن ويأكلن ثانيا ، وليس للأم أن تخرج من الدار إلا بإذن ، وليس لأحد من الأبناء أن يتأخر عن البيت بعد الغروب . والعقوبات

على المخالفات كثيرة من تأنيب وتهديد وشتم ، فإذا كان الذنب كبيراً فالضرب وقد احتفظ أبى — رحمه الله — بعصا من جريد النخل أعدها لهذا اليوم الأغبر الذى تقع فيه جريمة كبيرة من أحدنا ، كأن يتأخر عن الموعد ، أو يدنس ملابسه أو نحو ذلك . وحينئذ لا يصح للأم أن تتدخل بيننا و بين أبينا ، و إلا نهرها وزاد فى عقوبتنا .

* * *

والحياة كلها جافة جادة ، فلا سينما إذ لم تكن سينما ، ولا حديثا لذيذاً على المائدة أو فى مجالسنا .

و إنما كانت متعتنا أن كانت لى جدة — هى أم أمى — كانت تزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا يومين أو ثلاثة . وكانت رحمها الله كنز حكايات و « حواديت » فكانت تقص علينا قصصاً لذيذاً ممتعاً طويلا ، وكنا نأنس بذلك كل الأنس ، ونفرح لمجيئها كل الفرح . وكان كنزها هذا لا يفنى ، فما تأخذ فى حكاية حتى تنظمها فى أخرى إلى أن يغلبنا النوم .

وأحياناً كنا نجلس مع أمنا وأخواتنا ، فيقرأ علينا أخونا الأكبر كتباً قصصية كعنترة وألف ليلة فنستمتع بقراءته . أما أبى فليس لديه إلا الجد ، يعلم إخوتى و يحفظهم القرآن والنحو و يفقههم فى الدين . فكان أبى جاداً شديداً نخاف منه ، على رحمته التى يخفيها ولا يظهرها إلا عند مرض المريض و بعد المسافر ، وكانت أمى رحيمة تلطف رحمتها من شدة أبى و إمعانه فى الجد .

وأحيانا نحتال فنذهب إلى ملهى على باب حارتنا اسمه « خيال الظل » وهو الذى حلت محله « السينما » اليوم .

ولست أنسى مرة سمعت رجلا يضرب على الدف ، و ينشد أناشيد فى مدح النبى ، وكان توقيعه جميلا وصوته جميلا ، وهو يتنقل فى الحارات يغنى و يوقع ،

ويستعطف الناس للاحسان عليه ، فأعجبنى صوته وتوقيعه فتبعته من حارة إلى حارة حتى انتهى ، فعدت إلى بيتنا بعد الغروب ، فكان جزائى ضربا شديداً ، ولو أنصف أبى — رحمه الله — لقبلنى لعاطفتى الفنية .

هذا النوع من الأسرة وهذا الضرب من الحياة ، قد تغير الآن كل التغير ، فإن بقى منه شىء ففى سبيل الفناء . فقد اتجهت الأسرة إلى الديمقراطية ، وأصبح للأم سلطان وللأبناء سلطان وللبنات سلطان ، ونقصت سلطة الآباء حتى أصبحت موضوع الرثاء . وخرج الأبناء والبنات إلى السينما والتمثيل ، ووجدت فى الأسر المباهج المختلفة والمسرات المتنوعة .

لقد كانت تربيتنا قاسية عنيفة ، فكان من أثرها الذى نشعر به خجل قبيح ، وضعف فى الحرية الشخصية ، وقلة ابتهاج بالحياة ، وزهد فى متعها ، وعدم تفتح النفس لمسراتها . وكان أبى يكثر من ذكر الموت وحقارة الدنيا ، فأكسبنا هذا لونا من الحزن والقناعة فى طلب المجد ، ولكن بجانب ذلك علمنا الجد فى الحياة ، والصبر على المكاره ، والترفع عن صغائر أمور الدنيا لأن كبارها قليلة القيمة . على حين أن التربية الحديثة فى الأسرة الحديثة فتحت النفس للحياة ، وعلمت الاستمتاع بمسراتها ، وحققت للأفراد شخصيتهم وعودتهم الطموح للمجد ، ولكن نلاحظ فى كثير من الأسر ميوعة فى السلوك ، وقلة احتمال للشدائد ، وعدم الجد فى الحياة والاستهتار فى اللذائذ . فلئن كانت تربيتنا فى زمننا ناقصة فالتربية الحديثة ناقصة . وما كسبناه فى ناحية خسرناه فى ناحية ، ونحن أحوج ما نكون إلى تربية تجمع مزايا تربيتنا القديمة وتتجنب رذائلها ، وتجمع مزايا الحياة فى الأسرة الحديثة وتتجنب رذائلها .

* * *

لقد كانت حياة أسرتنا القديمة خبزا بلا مربى ، فأصبحت حياة أسرتنا

الحديثة مربى بلا خبز . . فمتى نستطيع إصلاحها حتى تكون مربى بخبز ؟
استفد من تجاربى . !

— ٣ —

راحت أيام . . وجاءت أيام

ا أثر فى — إلى جانب بيتى وأسرتى — حارتنا وكتابنا ، فأما حارتنا فكانت من طراز القرون الوسطى وعصر المماليك ، نحو عشرين بيتا يغلق عليها باب كبير . وفى هذا الباب الكبير باب صغير يفتحه البواب لمن أتى متأخرا فى الليل ، وكان هذا هو الغالب على حارات القاهرة ، وكان الباب ضروريا للحياة الاجتماعية إذ ذاك ، لكثرة الشغب والهجوم من اللصوص ليلا ، فكانت الحارة تحمى نفسها بباب وبواب ، تغلقه فى المساء ، وتفتحه فى الصباح ، وقد شهدت مصرع هذا الباب يوم انتشر الأمن ، ونظم الحراس والخفراء .

كانت حارتنا مجمعا تتمثل فيه كل الطبقات ، من طبقة عليا ، وطبقة وسطى ، وطبقة دنيا ، كان يتزعم الطبقة العليا رجل ذو منصب كبير ، وغنى وفير ، وكانت له عربة يجرها جوادان فخمان ، وذلك قبل اختراع السيارات ، فكانت العربة إذا دخلت الحارة دبت الخيل بأرجلها فساد الحارة سكون ووجوم وهيبة ووقار إعلانا بأن « الشيخ » حضر ، فلا يصح للأطفال أن يلعبوا فى الحارة ، ولا يصح للنساء أن يتحدثن من الشبابيك ، ولا يصح لخادم أن يضع الكناسة أمام الدار حتى لا يقع عليها نظر « الشيخ » ولكن إذا خرج الشيخ ملكت الحارة حريتها « فزاطت » الأولاد ، وتحدث النساء من الشبابيك ، وأبيحت المنازعات والشتائم من الطبقة الدنيا .

والطبقة الوسطى تمثل موظفين فى مصالح الحكومة و « ملتزمين » يعيشون من أملاكهم ، ونحو ذلك .

والطبقة الدنيا تتكون من بائعى فواكه على العربات ، أو صناع ، أو عمال .

ومع هذه الفروق كانت الحارة كلها أسرة واحدة ، كل رجل فى الحارة وكل سيدة تعرف أفراد كل بيت ، وأحوالهم ، ودخلهم وخرجهم ، وإذا مرض المريض عاده أهل الحارة ، وإذا أعوز أعانوه ، وإذا أصيب عزوه ، وإذا تزوج أو زوج هنئوه .

وكانت الطبقة الوسطى فى حارتنا طبقة مرحة ، عمادها موظف فى الأوقاف اتخذ من بيته « منظرة » يجتمع فيها من فى طبقته من أهل الحارة كل ليلة ، فأحيانا يحضرهم فقيه حسن الصوت يقرأ لهم القرآن الكريم بصوت جميل ، وأحيانا يسمرون سمرا لذيذا ، وترتفع الضحكات حتى تصل إلى بيتنا . وكان فى حارتنا « عواد » ماهر يحترف الضرب على العود فى « جوقة » تشترك فى الأفراح ، فكان أصحابه من حين لآخر يجتمعون عنده فى بيته بآلاتهم الموسيقية وينصبون « فرحا » بديعا يوقعون ويغنون إلى ما بعد منتصف الليل ، فيملأون الحارة بهجة وسرورا . ولم تكن الفونوغرافات والإذاعات .

ومن حين لآخر يتزوج أحد أفراد الطبقة الدنيا ، فيقيمون الأفراح أسبوعا أو أكثر . وفى كل ليلة منظر جديد من أغان بلدية ، ومواويل ، و « دخول قافية » وفكاهات ونوادر ، لا يتحرج فيها أحيانا من المجون المكشوف ولا النكت اللاذعة . فكان كل هذا معرضا أمامى ، استطعت أن أعرف منه حالة البلد الاجتماعية ودقائقها ، من غير قصد منى ، ولا وعى ، ولا شعور .

وكنا أطفالا نجتمع فى الحارة فنلعب الكرة على أشكال ونلعب « البلى » ، ونلعب القمار أحيانا بزهر النرد ، ونتسابق فى الجرى ، وكنا ديمقراطيين بالمعنى الصحيح ، نتصادق من غير أن يفرق بيننا غنى الغنى أو فقر الفقير . فمنا المتأنق فى

ثيابه ، ومنا الحافى القدمين ، ومنا مهلهل الثياب ، فلا نقيم لذلك كله وزنا ، وإنما نقيم الوزن للمهارة فى اللعب .

ولست أنسى فى حارتنا مظهر السقائين يحملون القرب على ظهورهم ، ويروحون ويجيئون منادين على « الماء » والقربة من الماء العذب بخمسة مليمات ومن الماء المالح بمليمين ، والحساب بالشهر ، ولا أنسى العراك عند الحساب فهى تقول إنها أخذت عشرين قربة ، وهو يقول خمسا وعشرين . ونفدت كل الحيل فى ضبط الحساب ، فأحيانا يخط السقاء خطا على الباب كلما أحضر قربة ، ولكن هذه الطريقة عرضة لأن تمحو الفشاشة خطا أو خطين . وأحياناً يتبع السقاء طريقة أخرى بأن يعطى للسيدة ثلاثين خرزة ويأخذ ثمنها ، وكلما أحضر قربة أخذ خرزة حتى يستنفدها ، فتشترى السيدة خرزا آخر . ولكن هذه الطريقة أيضاً عرضة لغش من نوع آخر ، وهى أن تشترى الفشاشة خرزا من الخارج وتغالط السقاء .

وظلت هذه المشكلة قائمة من غير حل حتى رأيت الحفارين يحفرون الأرض ويمدون المواسير خارج البيت وداخله ، ويركبون الحنفيات ، وإذا الماء فى كل بيت ، وإذا بالسقائين يختفون من المسرح ، وتحل المشكلة باختفائهم .

وراحت الأيام وجاءت الأيام ، وتركت الحارة حاملا لها أجمل ذكرى لأجمل أيام الصبا وأنشدت مع المتنبي قوله :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وسكنا فى مساكن الحضارة العصرية ورأينا الأسرة تسكن فى شقة فى عمارة قد لا تعرف من جاورها ، ولا تتبادل معه تهنئة ولا تعزية . ورأينا المجموعة الواحدة فى الحارة الواحدة بل والأسرة الواحدة نفسها قد انحلت ، ورأينا البيت مزودا بالماء وبنور الكهرباء . وبالتليفون والراديو ، وبما شئت من أدوات ومخترعات .

فهل صرنا أسعد حالا ؟ !

التعب العصبي . . والخوف

من الكلمات التي دخلت اللغة العامية حديثاً « النرفزة » و « تنرفز » بمعنى هاجت أعصابه وهي مأخوذة من الكلمة الأفرنجية (nerves) بمعنى أعصاب ، وليس معنى هذا أن النرفزة لم تكن موجودة ثم وجدت بل هي موجودة منذ وجد الإنسان ولكن كنا نسميها سورة الغضب أو نحو ذلك من أسماء . وإنما الجديد هو التسمية فقط بالنرفزة . والجديد أيضاً أن حياتنا المعقدة المركبة التي خلقتها المدنية الحديثة وزادت من أعبائها ومسئولياتها زادت أيضاً في هياج أعصابنا ، بدليل أن الفلاحين في القرى ومن عاشوا عيشة بسيطة أقل نرفزة من سكان المدن ، وأن الطبقة الفقيرة من سكان المدن أقل من الطبقة الوسطى والعليا لقلة مسئوليتها .

والنرفزة أو هياج الأعصاب تنشأ من المجموع العصبي عند الإنسان ، والمجموع العصبي يتكون من المخ ومن النخاع الشوكي وهو المادة الهلامية الموجودة في سلسلة العمود الفقري . ومن ملايين من الخيوط الدقيقة التي تتفرع من المخ ومن النخاع الشوكي وتصل إلى كل خلية من خلايا الجسم ، وهذه الأسلاك أو الخيوط من أهم وظائفها أنها ترسل الإشارات إلى المخ وتتلقى منه الإشارات ، فهي أكبر وأعقد من أي محطة للأسلاك التلغرافية ، فمثلا إذ لمس إصبعك شيئاً ساخناً جداً فجذبت يدك فمعنى هذا أن خلاياك التي في الإصبع لمست هذا الشيء الساخن وأرسلت خيوط أعصابك إشارة إلى المخ بما وجدت وما أحست ، وتلقت إشارة من المخ بالانسحاب فانسحبت . وكل هذا يحدث في سرعة البرق وهكذا إذا أردت المشي أو تحريك يدك أو الراحة أو نحو ذلك .

والأعصاب من مخ ونخاع وأسلاك شيء مادي يرى بالعين أو بالميكروسكوب ولكن التيار الذي يجري فيها كالتيار الكهربائي لا يرى ولكن يعرف بآثاره .

وتختلف هذه المجموعة العصبية عند كل إنسان عن الآخر ، فكما أن كل فرد يختلف فى ملامح وجهه وقوة حواسه وعضلاته وبناء جسمه عن الشخص الآخر قوة وضعفاً وجمالا وقبحاً فكذلك المجموعة العصبية يختلف الناس فيها قوة وضعفاً وهذا ما نشاهده فنرى أشخاصاً قويت أعصابهم ، فهم يتحملون المسئوليات وأحداث الزمان والشدائد فى صبر وثبات ، وهناك على العكس من ذلك من تهزهم هزاً عنيفاً الأحداث الخفيفة والمسئوليات الطفيفة ، بل هناك من تهزهم هزاً عنيفاً أيضاً الأوهام المختلقة والخيالات المصطنعة — بل نرى أن الشخص الواحد يكون فى حالة من الحالات قوى الأعصاب فيواجه الأحداث العظام فى صبر وثبات ، ثم تتعب أعصابه لسبب من الأسباب فيواجهها فى قلق وجزع وثبات ثم تتعب أعصابه لسبب من الأسباب فيواجهها فى قلق وجزع واضطراب — بل خذ مثلا الطفل إذا مشى مشياً طويلا وتعب من الحركات عاد إلى بيته هائجاً مضطرباً كثير الصراخ كثير البكاء ، يتلمس أى سبب للغضب حتى إذا نام وهدأ قام كالمعتاد هادئاً مطمئناً . وكذلك الرجل أو المرأة تتعب أعصابه فيغضب مما لا يغضب منه ويثور من أجل التافه من الأمور — يثور من أجل كسر طبق ومن أجل قرش صاغ فى غير محله ومن فعلة صغيرة فعلها الموظف الذى معه ، ومن زوجته إذا كلمته كلمة فى غير محلها ، ومن ابنه إذا طلب منه مصاريف المدرسة مع أن هذه الأحداث نفسها وأكبر منها إذا حدثت وأعصابه غير متعبة قابلها مقابلة عادية ولم يعبأ بها ولم يهج منها .

ومن أعجب ما لاحظه الأطباء فى الأعصاب أن هناك سدودا للتيارات التى تمر فى الأعصاب ، وظيفتها أنها تقلل من قوة التيار حتى يصل إلى المخ هادئا فإذا ضعفت هذه السدود وصل الانتباه إلى المخ فى قوة تسبب اضطرابا ، ومثله فى ذلك مثل الأسلاك من الرصاص التى تركب فى «الكوبس» ينتقل فيها التيار من الخارج ، وإذا زاد التيار احترق الرصاص ليمنع احتراق المنزل بالتيار القوى .

وتضعف هذه الأعصاب بالتعب المضنى وبالكوارث المتتالية وبالهزات العنيفة

المتتابعة وهذا الضعف على درجات فهو يبدأ بقلق وأرق ويتدرج إلى عجز عن تركيز الفكر وإظلام نفس ، ويزيد إلى يأس شديد وهيجات لأقل الأسباب وعجز عن الراحة والهدوء ونحو ذلك .

ومما يلاحظ أيضاً أن هذا التعب العصبي يتبعه دائما الخوف ، وهذا الخوف يتخذ أشكالا مختلفة حسب ظروف كل شخص . فمن نما عنده الشعور الديني تمثل خوفه في الموت فهو يخاف الموت ويخاف العقاب بعد الموت ، ويخاف الخطايا التي ارتكبها والمعاصي التي وقع فيها في شبابه ، وتتجسم هذه المعاني في نفسه وتكبر حتى تقلق باله وتعكر صفو حياته . ومن كان شديد الشعور بالمال خاف الفقر إن كان غنيا فألجأه ذلك إلى شدة الحرص والهياج عند كل قرش يصرف ، والغضب الشديد عند كل ما يعرض من مطالب مالية . ومن كان رحيما شديد العطف على أولاده ظهر خوفه من هذه الناحية فهو يخاف على أولاده من الترام والسيارات ويقلق أشد القلق إذا تغيبوا عن البيت ساعة وكلما قرأوا أو سمعوا عن حمى أصابت ولدا ، أو شابا أو شابة مات في ريعان شبابه زاد خوفهم واضطرب حالهم . ومن بلغت سن الزواج ولم تتزوج خافت أن يمر موسم زواجها ، وإذا خطبت خافت أن تفشل في زواجها ، وهكذا وهكذا الخوف فنون . وقد يزيد الخوف حتى يكون خوفا من أوهام ، فهو يتخيل أن دسائس تحاك حوله وأن له أعداء يتربصون له ، وأن بعض أقربائه يكيد له ، وأن له في المصلحة من يفسد الأمر بينه و بين رؤسائه ، وهكذا فيخلق أوهاما يخاف منها ، وفي الناس ألوان شتى من هذه المخاوف وعددهم ليس بالقليل ، وكلما عظمت المدنية زادت ضحايا ضعف الأعصاب وخاصة أيام الحروب ، فيقول طبيب أمريكي إنه في أوائل الحرب العالمية الثانية كان عدد سكان أمريكا ١٣٠ مليونا وكان عدد ضحايا الأمراض العصبية يقرب من ١٣ مليونا بين مجنون ومضطرب ومختل التوازن ، وقد كان كثيراً جداً عدد الشبان

الذين يتقدمون للجندية ، فيردون عنها بعد الكشف الطبي عليهم لاختلال توازنهم العصبي .

* * *

و بعد فما علاج هذا ؟ الواقع أن علاجه في يد الإنسان أكثر من أن يكون في يد الطبيب ، وأهم علاج له شيئان : يستنتجان مما وصفنا قبلا .

أولهما الراحة الجسمية فقد رأينا أن الخوف يتبع التعب الذى ينال المجموع العصبي كما ينال الشخص عقب مجهود كبير بذله أو تفكير طويل فكره أو حادثة جليلة هزته .

فهذه الأشياء وأمثالها تضعف المجموع العصبي وتضعف السدود التى تحجز بعض التيار عن المخ فإذا استرد الإنسان راحته قويت هذه السدود كالشأن فى الإنسان يتعب ثم ينام نوما عميقا فيسترد ما فقده من خلايا . ومن وسائل هذه الراحة تغيير البيئة والمكان والرياضة المعتدلة والرحلات الخفيفة اللطيفة ونحو ذلك . فإنها تفعل فى النفوس ما لا تفعله الأدوية ، ومن ذلك أيضاً عدم التعرض لما يهيج الأعصاب فمن عرف أن شيئا معينا يهيجه فليبتعد عنه وليبتعد عن الأوساط التى تخلقه وليرأف به أهله فلا يسببون له متاعب فى النواحى التى يعرفون أنها تقلقه وتزيد اضطرابه ، فإذا تمت راحته رأينا أنه قد زال خوفه ، وتلك نتيجة طبيعية لما رأينا من أن التعب يتبعه الخوف .

والأمر الثانى : الإيحاء الذاتى ، فهو يفعل فى النفوس فعل السحر ، فليكرر المريض على نفسه الإيحاء بأن جسمه سليم وأنه يستطيع التغلب على هذا الخوف ، وأن يومه خير من أمسه وأن غده سيكون خيراً من يومه وأن ما هو فيه أوهام تزول بقوة إرادته وليعرف منتحى خوفه فليعالجه من الناحية التى تواثمه ، فمن كان يخاف الموت ويخاف ما ارتكب من المعاصى فليكرر على نفسه أن الله غفور رحيم .

وأنه يغفر الذنوب جميعها ، وأن ما ورد فى القرآن من آيات الرحمة أكثر مما ورد من آيات العذاب وأن الله أحنى على العبد من الوالد على ولده ، فإذا ردد هذه المعانى كلها وكررها كل يوم انتعشت نفسه وأحس أنه يتقدم تقدماً عظيما ، ومن كان يخاف الفقر فليكرر على نفسه فلسفة المال وأن المال عرض من أعراض الحياة وأنه ليس هو السعادة وإنما هو وسيلة السعادة وأنه لا يحق على نفسه الخوف من الفقر قبل حدوثه ، وهكذا الشأن فى الخوف على الأولاد وكل نوع من أنواع الخوف ، فكل إنسان بقليل من التفكير يستطيع أن يكون له فلسفة تشجعه ضد خوفه وتملأه غبطة وطمأنينة .

هذان فى نظرى هما العلاجان الطبيعيان للأعصاب وهما فى يد كل إنسان إذا صحت عزيمته وقويت إرادته .

معركة الحياة كيف نفوز فيها ..؟

أهم نقطة يرتكز عليها النجاح ، الإرادة القوية ، التي يصحبها التنفيذ السريع ، وانتهاز الفرص ، ألم يقولوا « إن الحرب جهاد » وبعبارة أخرى « الحياة حرب » .

وخير محارب من هاجم ولم يقتصر على الدفاع ، وعمل ولم يقتصر على الحذر . ومتى سنحت له فرصة أقدم فانتهزها ، ولم يتوان لحظة حتى يضيعها . ثم هو يسدد المرمى ، ويحكم إصابة المرمى ، ولا بأس من الفشل فإنما يفشل لينجح .

إذا أنت أكثرت من التردد و بالغت فى الحذر ، ولم تقدم على عمل حتى تثق من نجاحه مائة فى المائة ، فقد تصلح أن تكون أديبا حالما ، أو فيلسوفا فى الخيال سابحا ، ولكن لا تصلح أن تكون رب عمل ناجحا .

فليس يكسب المعركة القائد الجبان ، ولا القائد الحذر ، ولا القائد الذى لا يريد أن يضحى بشىء من جنوده . وإنما يكسبها من يفكر حسب طاقته ، ولا يطيل التفكير أكثر مما يلزم ، ثم يضرب الضربة فى حينها ، وهو يغلب النجاح و إن كان لا يتأكده ، فإن فشل بعد ذلك فقد أدى واجبه .

* * *

إن الأخلاق الحديثة تفضل « فعل الأمر » على «فعل النهى» « فاصدق » خير من « لا تكذب » و « اعدل » خير من « لا تظلم » والأمر بعمل الفضيلة خير من النهى عن الرذيلة ، لأن فى الأولى عملا ووجودا وحياة ، وفى الثانية تركا وعدما وموتا .

كل شيء في الحياة يجاهد ، الجسم يجاهد المكروبات حوله وفيه . والصحة لا تعتمد على الوقاية وحدها ، وإنما خير من الوقاية « الحيوية » بالرياضة والعمل والحركة والنشاط وما إلى ذلك . وإنما يعتمد على الوقاية — والسكون وقلة الحركة والسير الدقيق على طرق العلاج — المرضى في أسرتهم ، والمرضى في المستشفيات ، أما الأصحاء فيعتمدون قليلا على الوقاية ، وكثيراً على الحيوية والعمل . والعقل يجاهد الأفكار السقيمة ، والخيالات السامة ، وخير وسيلة للتغلب عليها حيويته ونشاطه وتفكيره المنتج ، لا خنوعه واستسلامه .

وهكذا كل شيء في الحياة جهاد . والجهاد الصحيح يعتمد على الإرادة الصحيحة ، والتجارب الدائمة ، والعمل المستمر .

إن العالم مملوء بالحيوية ، وهو في حركة دائمة ، ونشاط مستمر ، وقوى متفاعلة أبداً من كهرباء وقوى ذرية ، وحرارة وبرودة ، ورياح وعواصف ونحو ذلك . فالذي ينجح في هذا العالم المتحرك النشيط ، إنما هو من انسجم معه بالعمل والقوة والحيوية ، ولذلك كان السكون التام موتا .

* * *

وبجانب هذه القوى المادية في الحياة ، قوى معنوية هي الأخرى في حركة مستمرة وجهاد دائم ، كالنظام وعدمه ، والجهل والعلم ، والرأي العام وقوته وضعفه ، والعدل والظلم ، واختلاف رغبات الناس في التزاحم على كسب الخير لأنفسهم ، ولا بد للنجاح في الحياة من تحديد موقف الإنسان أمام هذه القوى المادية والقوى المعنوية ، فأمام القوى المادية لا بد أن يعرف كيف يستخدمها في مصلحته ، ويسايرها ولا يعاكسها . فالكهرباء قد تصعقه إذا هو لم يعرف استخدامها ، ولكنه يستطيع أن يستنير بها ويستدفئ بها ويسير القطارات بها إذا هو أحسن استخدامها ، وكذلك كل قوة من القوى الطبيعية . وفي القوى المعنوية يجب أن

يحدد موقفه أمام التيارات المختلفة للنظم الاجتماعية ، فينغمس فيها ، ويكون هو نفسه قوة معها ، يصلحها ما استطاع ، ويستخدمها فى خيره وخير الناس ما استطاع .

وكلما كان الإنسان أقوى جسما وعقلا وخلقا ، كان أقدر على الانتفاع بالقوى المادية والروحية . فالإنسان استطاع أن يلجم الفرس ويركبه ويوجهه فى خدمته ، لأنه أكبر منه نفساً وعقلا . فكذلك هو يستطيع وسط الظروف الاجتماعية المتضاربة ، أن يصرفها ويستغلها للخير الخاص والخير العام . فإذا خمل أو كسل أو أفلت زمام الأمور من يده ، لم يستطع نجاحا ، وساقته الظروف أكثر ما يسوقها هو .

فالإنسان إنما ينجح بتقوية ملكاته الداخلية ، وعلمه بالقوى الطبيعية والاجتماعية التى حوله ، ثم بانسجامه معها ومعرفته كيف يستخدمها . وإن شئت فاستعرض كل من نجح فى الحياة نجاحا حقيقياً ، تجد نجاحه بمقدار تطبيقه هذه القاعدة ، ولو لم يحسن التعبير عنها .

* * *

ثم شأن الأمم والحكومات شأن الأفراد . فلكل أمة قواها الطبيعية التى حولها ، وقواها المعنوية التى تحيط بها . فالأمة الفاشلة هى التى تكون فى أرضها معادن لا تعرف كيف تستغلها ، وقوى مائية لا تعرف أن تنتفع بها ، وأراض زراعية لا تعرف كيف تستخرج منها أغزر ما تنتج وهكذا . ثم حولها ظروف اجتماعية ترتبك فى توجيهها ، وتحار فى التصرف فيها ، ليس لها إرادة قوية فى التنفيذ ، ولا رغبة صادقة فى الإصلاح ، تسيرها القوى الطبيعية كالريشة فى الهواء ، وتسيرها القوى الاجتماعية حيثما اتفق . ليست هى إنسانا يمسك بزمام فرسه ، ولكنها فرس ملجمة تقاد . أما الأمة الناجحة فكالرجل الناجح يدرس

قوى الطبيعة ويعرف أنها لا تتغير ولا تتبدل ، ولكنه كالملاح الماهر يعرف متى ينشر شراعه ومتى يطويه ، وكيف يسير سفينته وإلى أى اتجاه ، يعرف أنه لا قدرة له على تغيير الرياح ، ولكن له قدرة على استخدامها فى مصلحة سفينته . كذلك هذا شأن الأمة الناجحة مع القوى الاجتماعية ، ترى الفوضى فتنظمها ، وترى الرأى العام ضعيفاً فتقويه ، وترى الأضرار من بطء الآلة الحكومية فتجددها ، وترى ظلماً هنا وظلماً هناك فتمحوه بالعدل ، ولا تكتفى بالوقاية وعلاج الأمراض بل تبعث فى الأمة الحيوية والنشاط . وهكذا قانون الفرد وقانون الأمة فى النجاح والفشل واحد .

فكر واعمل وابتكر وجاهد وغامر وانتهز الفرصة تنجح وإلا فالموت أو شبهه .

فن الصداقة

هل لاحظت مرة جماعة من الموسيقيين يوقعون قطعة موسيقية على آلات مختلفة من عود وقانون وناى ورق ، فيتوافق الإيقاع و يتناغم و ينسجم ، حتى كأن الآلات المختلفة آلة واحـدة فى ارتفاعها وانخفاضها وجهارتهـا ورقتها و بدئها وانتهائها ؟

وهل رأيت مرة نجاراً دقيقاً يصنع ما يسمى فى النجارة « بالعاشق والمعشوق » فيؤلف بين الأسنان فى قطعة ومكان التحامها فى القطعة الأخرى حتى إذا تعاشقتا كونتا ما يشبه القطعة الواحدة بل أمتن وأقوى ؟

تلك هى الصداقة — مزاجان متناسبان ولا أقول متحدين ، وغرضان متناسبان ولا أقول متحدين أيضاً ، فلابد من التنوع كالتنوع بين نغمة العود والقانون ، والتنوع بين العاشق والمعشوق ، ولـكن هذا التنوع يعتمد على ذوقين متشابهين كتشابه ذوق العواد والقانونى . ولابد أن يدعم هـذا كله بالتناسب فى المركز الاجتماعى واستعداد كل للسير على قانون الأخذ والإعطاء لا الأخذ من جانب والإعطاء من جانب ، فهذه شروط لابد منها فى دوام الصداقة و إلا كانت عرضة للتفكك السريع .

* * *

ومن التناسب فى الصداقة ما نرى من غضوب يصادق حليما ، ومرح يصادق رزيناً ، ونشيط يصادق خمولا ، وثرثار يصادق مقلا . فإن فى هذا تناسباً لا اتحاداً كأن كلا يشعر بناحية من نواحى نقصه أو من نواحى مبالغته ، و يجد فى الآخر ما يكمل نقصه أو يحدد من مبالغته فتكون الصداقة .

ونلاحظ فى الحياة اليومية أن بعض الأشخاص سريع الصـداقة سرعان ما يألف ويؤلف ، وأشخاصاً آخرين لا يألفون إلا ببطء ولا يؤلفون إلا ببطء ، ويرجع ذلك فى الغالب إلى طبيعة النفوس ، فهناك نفوس مكشوفة تعرف بمجرد النظر إليها ، كالماء الخفيف الصافى يظهر ما تحته ، ليس بين ظاهره وباطنه إلا نسيج شفاف لا يحجب ما وراءه . وهناك نفوس غامضة لا يدل ظاهرها على باطنها ، قد سترت بنسيج كثيف ، أو غطيت بطبقة سميكة لا تظهر إلا بعـد طول المراس ، بل كثيراً ما يدل ظاهرها على خلاف باطنها . ومن هـذا قد يكره الشخص ثم يحب ويعادى ثم يصادق ، لأن نفسه لم تنجل لأول وهلة إنما تنجلى بالمران والاحتكاك واختلاف المواقف ومواطن الجد التى تظهر النفوس على حقيقتها .

والصداقة كالبذرة توضع فى الأرض ، فإن صادفت تربتها الصالحة وغذيت الغذاء الصالح وتعهدها صاحبها بما يناسبها كبرت ونمت وصارت شجرة يانعة ، وإلا ماتت فى مهدها أو فى أثناء نموها . كذلك الصداقة قد تكون بنت ساعة ، وبنت شهر ، وبنت سنة ، فى المواقف الحرجة ، ولا شىء يسمم الصداقة كشعور الصديق بأن صديقه يستغله ويصادقه لمنفعته هو ، فيوم يأتى دور التضحية ينفض يده . وأبعد الناس عن الصلاحية للصداقة من كان أنانياً يتخذ الصداقة وسيلة من وسائل التجارة .

* * *

ثم هذه الصداقة درجات كدرجات السلم ، تبتدىء بالمعرفة ثم رابطة العمل كالرابطة بين الموظفين فى مصلحة أو محل تجارى ، أو الرابطة بين أعضاء حزب سياسى ، أو أعضاء جمعية من الجمعيات لتحقيق غرض فإذا زال الغرض زالت الرابطة ، وهكذا تتدرج حتى تصل إلى أن تصبح نفس الصديقين نفساً واحدة فى جسمين ، هى فوق المنافع المادية ، وفوق تحقيق الأغراض ، وإنما هى غذاء الروح وسراج الحياة وملء فراغ النفس حيث لا يملأ بدونها .

والناس يختلفون في الاستعداد لدرجات الصداقة ، وذلك بمقدار استعدادهم للتعاطف ، فمن حرم التعاطف حرم الصداقة ولم يكن له إلا معارف . ولذلك نرى الماديين الجشعين لا يتذوقون الصداقة ، ولا يفهمون لها معنى إلا أنها وسيلة من وسائل الكسب كدفع العربون ، وقبض الفوائد . وكلما أمعن الإنسان في التعاطف كان أقرب إلى تذوق الصداقة بمعناها الصحيح . كذلك من أبعد الناس عن تذوق الصداقة المتشائمون الذين لا يرون في الوجود ما يستحق التقدير ، ولا في الناس من يستحق الإعجاب ، فهؤلاء لا يريدون صديقاً يبادلونه حباً بحب ، ولكن يريدون سميعاً يسمع شكواهم ووصف آلامهم ، وسبهم للدنيا وما فيها . وأكثر استعداداً للصداقة من تفتحت نفسه ، وتفتح العالم أمام عينيه ، ورأى في الوجود شراً قليلا وخيراً كثيراً ، وأنه مملوء بوسائل السعادة وعلى رأسها الصداقة .

* * *

وكثير هم الذين نعرفهم ، ووسائل التعارف يسيرة متعددة ، في القطارات وفي المجتمعات ولأدنى المناسبات . ولكن قليلا من هذا التعارف هو الذي ينضج بكثرة الاختلاط وبمعرفة المزاج واكتشاف النفوس ، فيتحول من معرفة إلى صداقة .

وأثر الصديق في الصديق كبير ، وهذا الأثر يختلف باختلاف قوة الشخصية في كل من الصديقين ، فقد يكون أثر أحدهما أكبر من أثر الآخر ، لأن الأول أكبر شخصية والثاني أكبر تأثراً . ثم قد يكون للشخص الواحد جملة أصدقاء مختلفين كل الاختلاف ، وذلك عندما يكون للشخص نواح متعددة ، فهذا صديق تربطه به الناحية العقلية والفكرية ، وهذا صديق آخر تربطه به ناحية الشعور الوطني ، وهذا صديق ثالث تربطه به ناحية مادية أو ناحية الاشتراك في متعة من متع الحياة وهكذا . وهذا هو السبب في أنه ليس من اللازم أن يكون

صديق الصديق صديقاً ، لأن الصديق المشترك قد تكون صداقته مع طرف مؤسسة على غرض ليس موجوداً فى الطرف الآخر .

* * *

ثم الصداقة لابد أن تتغذى لتدوم ، فإذا انقطعت الزيارات والمقابلات والمحادثات والمكاتبات أمداً طويلا أخذت الصداقة تذبل شيئاً فشيئاً حتى تنعدم أو تكاد ، وغذاؤها تبادل العواطف وتبادل المشاعر ، وتبادل تفتح النفس .

ولا بد لدوامها كذلك من دوام الأساس الذى أسست عليه الصداقة ، فإذا أسست على ما بين الصديقين من مزاج أو عقلية أو تحقيق غرض من الأغراض ، ثم زال هذا الأساس زالت الصداقة . وهذا يفسر لنا ما يعرض كثيراً من أن صديق الصبا غير صديق الشباب غير صديق الشيخوخة ، لأن الإنسان فى كثير من أحواله يتغير مزاجه أو تتغير ثقافته أو تتغير نظرته إلى الحياة ، فيرى بطبيعته أن الرباط الذى كان يربطه بصديقه قد تحلل وأنه محتاج إلى نمط آخر من الناس ليؤلف معه صداقة جديدة .

وبعد فالصداقة الصادقة نعمة من أكبر نعم الحياة ، ومن رزق صديقاً وفياً فقد رزق كنزاً ثميناً هو خير من الأخ الشقيق . إذ لا قيمة للأخ إلا إن كان صديقاً ، هو نور فى الظلماء ، وعدة فى البأساء ، وأنس من وحشة ، وفرجة فى كربة .

* * *

والصداقة الصادقة علامة فى الأخلاق ، إذ هى امتزاج الأرواح وتعانق النفوس وفيض من إخلاص ودرس فى التضحية ، ومن تهيأت نفسه للصداقة تهيأ للخير يفيضه على الناس .

وأدنى حدود الصداقة أن يسوءك ما يسوء صديقك ، وأن يسرك ما يسره . وأعلاها ألا تعد نفسك شيئاً بدونه ، ولا يعد نفسه شيئاً بدونك ، وأن ينبض قلبك بما ينبض به قلبه ، وأن تتناغم مشاعرك ومشاعره .

الحياة النيابية

ها نحن فى مصر نبدأ حياة نيابية جديدة ببرلمان جديد ، فمن الواجب أن نتحدث ونكثر الحديث عن هذه الحياة وواجبنا نحوها وآمالنا فيها وما ينتابها من عيوب وما يصادفها من عقبات ، وأهم ما يقوم به البرلمان أعمال ثلاثة :

١ — مراقبة الحكومة فى أعمالها ، فالوزراء يقومون بأعمال الدولة ولكنهم قد يصيبون وقد يخطئون ، فواجب كل حزب وكل عضو فى البرلمان أن تتبع أعمال الوزراء فى وزاراتهم ويدرس ما يعملون ، ويكوّن رأيا فى تصرفاتهم أأخطأوا أم أصابوا ، فإن رأى خطأ استفسر عنه وبحثه مع أهل الاختصاص ، فإن اقتنع بعد كل هذا بخطأ الحكومة رفع صوته فى البرلمان بنقدها — مثال ذلك : أن عضواً بلغه سوء حال التموين فى بلد ، وحصول الظلم فى التوزيع ، فليبحث ذلك وليسافر إلى حيث يقع الظلم ،وليتحقق مما قيل وليجمع الأدلة والبراهين على هذا الظلم ، ثم ليتكلم فى صراحة وليستمع للرأى المعارض ، فإن تبين الحق بجانبه وجب على الحكومة أن ترفع هذا الظلم وإلا صوت البرلمان ضدها وأسقطها .

والفكرة الأساسية فى هذا البرلمان معناه حكم الشعب نفسه بنفسه ، فكل له نصيب فى الحكم : هذا عن طريق العمل ، وهذا عن طريق المراقبة والإشراف . فإذا شعر المنفذ أن وراءه قوة كبيرة تراقبه فتح عينيه وتحرى العدل وخشى الحساب العسير فسارت العدالة فى الأمة سيراً حسنا ، وإلا تخلت الحكومة عن الحكم لمن يقوم بصالح الأمة خيراً منها .

٢ — والأمر الثانى : تشريع القوانين ، وذلك أن الأمم فى تطور مستمر والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى حركة مستمرة فلا بد أن يتنبه البرلمان والحكومة لكل ما يجرى حولها وتواجه كل ما يعرض من المسائل الهامة بتشريع جديد — إن حالة الأمة كحالة السيارة يجب أن نصلحها إذا فسدت ، ونغيرها إذا

تلفت ، ونأتى بنوع جديد منها إذا أدى أغراضاً خيراً من النوع القديم — وكل أمة لها تشريع يناسبها ، فالتشريع فى البلاد الزراعية غيره فى البلاد الصناعية ، وفى البلاد الغنية غيره فى البلاد الفقيرة ، وفى البلاد التى قطعت شوطا بعيداً فى المدنية غيره فى البلاد نصف المتمدنة وهكذا ، والمسئول عن التشريع الصالح فى البلاد الحكومة والبرلمان معا ، والمصدر دائما هو البرلمان ، وواجبه أن يتعرف ما يناسب الأمة وما لا يناسب ، وما هى فى حاجة إليه من التشريع وكيف يكون ، وهذا عمل هام من أعمال البرلمان لأن كل إصلاح فى الأمة يرجع إلى التشريع كيف يوضع وكيف يسار فيه حتى يحقق الغرض منه وهكذا — إن أردت مكافحة الأمية أو معالجة الفقر أو إصلاح الزراعة أو ترقية التعليم أو القضاء وجب التشريع لكل ذلك ، وكلما قطعت الأمة مرحلة من مراحلها ودخلت فى مرحلة جديدة وجب أن يسايرها التشريع المناسب — فقد كنا ننظر مثلا إلى التعليم على أنه من واجب الآباء إن شاءوا علموا أبناءهم وإن شاءوا أهملوا ، ثم ارتقت الأفكار وأصبحنا نرى أن واجب الحكومة أن تزيل الأمية بتاتا وأن من لم يطع يعاقب ، فكان لا بد من تشريع جديد .

٣ — الأمر الثالث : الإشراف على ميزانية الدولة ، وذلك لأن المال عصب الحياة ووسيلة الإصلاح فى كل ناحية من نواحيها ، فإن أردت التعليم فبالمال ، وإن أردت الجيش فبالمال ، وكذلك الشأن فى أمور الزراعة والأشغال والتجارة وما إلى ذلك ، فمن غير المال الكافى تشل حركة الحكومة ويستحيل أى ضرب من ضروب الإصلاح — ومن أجل هذا كان من أهم أعمال البرلمان الإشراف على ميزانية الدولة فبهذا الإشراف يتحكم البرلمان فى كيف يجمع المال من الضرائب وغيرها وكيف ينفق .

وكان للبرلمان هذا الحق لأنه يمثل الأمة والأمة هى التى تدفع الأموال فيجب أن تسيطر على طرق إنفاقها بواسطة ممثليها .

والبرلمان الراقى الناجح هو الذى يستطيع بثقافته ودقته وسعة اطلاعه وخبرته ودراسته أن يعرف أى النواحى أحوج إلى المال من غيرها ، ومقدار ما تحتاجه كل ناحية على حسب ما يصدر عنها من خير ، وكيف يفرق بين ضروريات الأمة وكالياتها فلا ينفق على الكماليات قبل الضروريات فإن كان ولا بد فتجب مراعاة النسبة بين الضروريات والكماليات ، فكما أنه من العبث أن يشترى رب البيت أزهارا إذا لم يكن عنده خبز ، كذلك من العبث أن تنفق الأمة الأموال الطائلة على أنواع الزينة والترف وفلاحها لا يشرب ماء صافيا ولا يأكل أكلا كافيا .

هذه هى الأركان الثلاثة التى بنى عليها البرلمان وما عداها فثانوى لها وقليل الأهمية بالنسبة إليها . والبرلمان الحق هو الذى يرعى مسائله بحسب أهميتها و يعطيها من المجهود والعناية والدرس حسب استحقاقها .

فى ضوء هذا نستطيع أن نتعرف أمراضاً تعترى البرلمانات ، وعيوباً تشل حركتها ، وتصرفها عن أهم وظائفها ، ولنمثل لذلك ببعض الأمثلة .

١ — فمن أهم العيوب أن يتنحى البرلمان عن واجبه فى الرقابة و يشغل نفسه بتوافه الأمور كأن ينقسم أعضاؤه إلى قسمين : قسم يهتم بتأييد الحكومة مهما أخطأت ، وقسم يهتم بالعمل على إسقاطها مهما أصابت ، وبذلك يجعلون الأمر أمر من يتولى الحكم بدل أن يكون الأمر فى وضعه الصحيح ، وهو كيف توجه سياسة الحكم إلى وجهتها الصالحة و بهذا تتبخر كل قوى الحكومة وقوى المعارضة وقوى التأييد إلى نزاع حول الحكم من يتولاه والوظائف من يشغلها ، وتضيع الدراسة الحقة والتوجيه الصالح والنقد البرىء ، وينقلب الأمر إلى مهاترات ومؤامرات وتهريجات ويوجه خصوم الحكومة كل جهودهم لخلق العقبات وتوجه الحكومة وأنصارها كل جهودها لإحباط المؤامرات ، وتكون النتيجة صفراً دائماً ، فلا الحكومة فرغت لدراسة شئون الدولة وواجب الإصلاح ولا المعارضة فرغت للدرس النزيه لمعرفة فوائد المشروعات المعروضة ومضارها ،

ويصبح الأمر كمن يبنى كل يوم جديداً وغيره كل يوم ينقض ما بناه صاحبه ، فمحال أن يكون مع ذلك بناء .

ويستتبع ذلك أن تصرف الأموال هباء فى سبيل خلق المؤامرات وإحباطها وشراء الذمم بالرشا وما إليها واستخدام الأبرياء كالطلبة والزج بهم فى أهواء الحكم بين تأييد وتفنيد ، وهكذا من مضار لا تحصى ومرجع ذلك كله إلى الغفلة عن الغرض من البرلمان .

٢ — جهل العضو البرلمانى بواجبه الذى أشرنا إليه وأنه أمانة فى عنقه ودرس لما يعرض عليه وتفكير فى وجوه الإصلاح ينشدها ويتقدم بالتشريع لها وسماع صوت ضميره عند التصويت — وتحويل ذلك كله إلى وجاهة يستعملها فى قضاء مآربه الشخصية وسلعة يبيعها لمن أراد حسب الثمن الذى يعرض لشرائها ، وتضييعه النهار والليل فى اللف على الوزارات ومقابلة رجال الدولة يرجوهم فى نقل موظف أو تعيينه أو ترقيته أو نحو ذلك من الشئون الخاصة وينسى بذلك أول واجب عليه وهو أنه يمثل الأمة لا بلدته ولا مركزه ولا فلاناً وفلاناً .

٣ — كذلك من أهم ما يفسد البرلمان لعب التيارات الخفية التى توحى باتجاهات خاصة للظروف والمناسبات والملابسات ومحاولة صياغتها فى شكل مصلحة عامة طاهرة بريئة ، فالبرلمان الحق هو الذى يرعى مصلحة الأمة وحدها ويدرس المسائل كما يدرس القاضى قضيته — كل شىء فيها على المكشوف ، المدعى يدعى دعواه والخصم يفندها والقاضى يقدر قول الخصمين التقدير القانونى العادل وينطق بحكمه بناء على ذلك فقط فإن هو راعى تيارات خفية من وجاهة أحد المدعين أو أى اعتبار آخر غير ما ذكرنا كان قضاؤه فاسداً وبعث بذلك الفزع فى نفوس المتخاصمين ، فكذلك الشأن فى البرلمان ، ما لم يدرس مسائله على المكشوف ولم تلعب به التيارات الخفية وما لم يتجرد من كل اعتبار إلا مصلحة الأمة فبرلمان مزيف .

مظاهر الرقى فى الأمم

كل أمة فى حركة دائمة وتغير مستمر ، فهى لا تعرف القرار والثبات على حال ، غير أن هذا التغير قد يكون إلى حال خير مما كانت عليه ، وقد يكون إلى أسوأ ، فإن كان الأول سميناه رقياً وتقدما ونجاحاً ، وإن كان إلى أسوأ سميناه تدهوراً وتأخراً وانحطاطاً .

غير أن حسبان التقدم والتأخر أو الرقى والانحطاط فى منتهى الصعوبة لأسباب عديدة أهمها أمران :

الأول — أن كثيرا من المظاهر موضع خلاف ، هل هى أسباب رقى أو أسباب انحطاط أو هى ليست أسباب رقى ولا انحطاط . وقد يكون الشىء سبب رقى كالحرية والمساواة فإذا غلت فيه الأمم وتجاوزت حدوده انقلب إلى سبب انحطاط وهذ يجعل حسبان التقدم والانحطاط عسيراً .

والثانى — أن كل أمة فى الوقت الحاضر تتغير من نواح مختلفة تغيرات قد تعد بالمئات أو بالآلاف ، وهذه التغيرات مشتبكة معقدة ، متجهة اتجاهات متعاكسة ، بعضها يعد تقدما ورقيا و بعضها يعد تأخراً وانحطاطاً ، فعمليات الجمع والطرح لتعرف النتائج فى منتهى الدقة والصعوبة ، بل العامل الواحد قد يسبب رقيا فى ناحية وانحطاطا فى ناحية أخرى ، يسبب رقيا فى الناحية الاقتصادية وانحطاطا فى الناحية الخلقية أو العكس . رقيا فى الناحية العلمية وضعفا فى الناحية الدينية أو العكس ، فحسابه إذ ذاك يكون عسيراً والوصول إلى تصفية نتائجه فى غاية المشقة ، وهذا هو الشأن فى عامل واحد فكيف يكون الشأن فى آلاف العوامل والمؤثرات والأسباب ؟ فلأكتف الآن بجزء صغير من الموضوع وهو الإجابة عن السؤال الآتى :

ما أهم مظاهر الرقى فى الأمم ؟

لعل أهم ما يعد فاتحة لتقدم و إرهاصاً لنجاحها ورقيها تقارب أفرادها فى العقلية والعاطفة وتوحدها فى المثل الأعلى الذى تنشده واشتراكها فى العادات والتقاليد ، وشعور كل فرد أنه جزء من أمة يعمل لنفسه ولها ولخيره وخيرها ، ذلك أن الركن الأساسى فى تكوين الأمة هو وحدة المصالح ، ووحدة العواطف ووحدة اللغة الخ . فكلما أمعنت الأمة فى هذا التوحد كانت أشد استحقاقا لاسم الأمة ، ومن أجل هذا حافظت الأمم على أن يكون لكل منها قانون يعم جميع أفرادها وتعليم متحد فى الأساس يتثقف به أبناؤها ، ونظم عامة يخضع لها شعبها . وأهم غرض لذلك كله تدعيم هذه الوحدة ، فإذا كانت الأمة منقسمة انقساما كبيراً إلى بدو وحضر ، أو تنازعتها الأديان المختلفة فى شكل قوى واضح أو تقسمتها صنوف التعليم فمدارس فرنسية تتبع برامج فرنسا ومدارس إنجليزية تتبع مناهج إنجلترا ومدارس أهلية تتبع نظاما خاصا ، وتعليم دينى من أول الأمر وتعليم مدنى من أول الأمر . أثر هـــذا كله فى وحدتها وخالف بين نزعات أفرادها وأصبح تسميتها أمة مجازاً لا حقيقة ، وعاق ذلك رقيها وتقدمها .

قد تختلف الأمة فى ثقافة أفرادها — وهذا ما يحدث بين كل الأمم الراقية — ولكن أسس الثقافة عندها واحدة والاختلاف فى الكمية فقط لا فى النوع كشأنها فى اللباس ، كل رجل فيها من فلاح إلى ملك يلبس ملبساً يتكون من « بنطلون وجاكته » ولكن الاختلاف فى نوع الصوف وجودة الصناعة و إجادة الخياط . أما أمم الشرق فالاختلاف فى كل أمة منها فى الأسس تعليم دينى من أول أن يسلم الطفل للمكتبة وتعليم مدنى من يوم أن يسلم لروضة الأطفال ، وتعليم أجنبى من يوم أن يدخل مدرسة الفرير أو الجزويت ، فيخرج المتخرجون أنواعا مختلفة فى مثلهم العليا وفى عاداتهم وتقاليدهم . وشأننا فى هذا الاختلاف أيضاً

كشأننا فى الملابس تختلف نوعا لا صنفا فقط . فعمم ومطربش ولابس جلبابا ولابس لباسا إفرنجيا ، إلى مالا يعد ولا يحصى ، ثم ما شئت من ضروب الاختلاف فى العادات والتقاليد والمثل العليا مما لا تجد له نظيرا فى الأمم الراقية . فالقرب إلى توحد الأمة فى ذلك كله مظهر من مظاهر رقيها والبعد عن ذلك مظهر من مظاهر انحطاطها . وكما أن توحيد الله أرقى مظاهر الديانة ، وتوحيد الزواج وعدم التعدد أرقى مظاهر الأسرة ، فتوحيد الأمة فى كل ما ذكرنا أرقى مظهر لها . ولعل هذا ما حدا بقادة الفكر فى تركيا يوم عملوا على ترقية أمتهم أن يوحدوا زيهم ويوحدوا أسس تعليمهم ونظام مدارسهم ويوحدوا قوانينهم وجيشهم وكل شىء لهم .

وشىء آخر من مظاهر الرقى فى الأمة ، أعنى به انقسام الأمة إلى جماعات حسب تعدد الأعمال وتعدد الوظائف وقيام كل جماعة بوظيفتها ، على أن يكون الغرض الأخير لكل جماعة مصلحة الأمة — لقد كانت الجماعة فى حالة بداوتها وفى حالة عيشتها القبلية تتركز سلطتها فى يد فرد واحد وهو شيخ القبيلة ، فلما تكونت الأمم وارتقت أخذت تتوسع الأعمال وتتعدد الوظائف ويتعدد القائمون بها . فبرلمان ومحاكم وجيش ورجال دين ورجال تعليم وصناع ونقابات الخ . وكلما تقدمت الأمة اتسعت أعمالها وتعددت وظائف القائمين بها ، وعهدت لخير رجالها تنظيمها وإدارتها . وليس رقى الأمة الذى نعنى بكثرة الأعمال وتعدد القائمين بها فحسب ، بل أهم من ذلك تنظيم العلاقات بين الجماعات المختلفة العاملة حتى كأن الأمة كلها آلة ميكانيكية وكل جماعة فيها تعمل وفقا لسير هذه الآلة حتى تنتظم كلها فى عملها ، فليس كل جزء من الآلة يعمل عمله مستقلا و إنما يعمل وفق سير الآلة كلها ، وليحقق الغرض الذى ترمى إليه كلها . وهذا ضرب آخر من ضروب التوحيد الذى أشرت إليه قبل ، فإن الأمة بذلك يكون لها أغراض معينة لا تتعارض ولا تتعاكس . والقوى العاملة على اختلاف أنواعها من قوى اقتصادية

وأخلاقية وتعليمية واجتماعية تعمل متساندة متفاهمة لتحقيق هذه الأغراض ، أما إن هي لم تتفاهم ولم تتساند ، هدم بعضها ما يبنى الآخر ونقض بعضها ما غزل الآخر ، فضاعت قواها بين بناء وهدم وغزل ونقض ، وكانت كما قال الشاعر :

تهـــتز وهي مقيمة   فـكأنما هي زلزلة

ثم لـكل ناحية من النواحى الاجتماعية مظهر واضح يدل على الرقى ، فمن الناحية السياسية مظهر الرقى تحقق العدل الاجتماعى وقربه من الـكمال ، وأكبر مظهر لذلك أن يحكم الشعب نفسه بنفسه فيختار المشرعين له والمنفذين لقوانينه ونظمه ، اختياراً تراعى فيه الحرية التامة وليس هذا فحسب بل يجب أيضاً أن يفسح الطريق لـكل فرد ليصل إلى هذه الوظائف السياسية ما سمحت له مقدرته وكفايته ، أعنى ألا يدخل عامل من العوامل فى الرقى إلى المراكز السياسية غير الـكفاية وحسن الاستعداد ، فلا الغنى ولا الجاه ولا البيت الرفيع ولا المحسوبية مما يصح أن تكون عاملا من عوامل المناصب . فالأمة الراقية حقاً من الناحية السياسية هى التى سهلت الفرص لـكل الناس على السواء ، وعدلت بينهم عدلا مطلقا وأزالت كل العقبات من طريق السباق حتى يكون الفائز فيه من أعدته الطبيعة والمران ليكون الفائز وبمقدار قرب الأمة من هذا المثل الأعلى وبعدها عنه يحكم عليها بالرقى السياسى أو الانحطاط السياسى ، فإن حكمها غيرها أو حكمت نفسها واستبدت بالحـكم فيها طبقة خاصة تمتز بالنسب أو بالمال واعتز ذيولها بالمحسوبية لها فما أبعدها إذن عن مظاهر الرقى !

ومن ناحية « الثروة » — مظهر الرقى أن يتجه الأفراد والحـكومات بنظرهم فى تحصيل الثروة وإنفاقها إلى الخير العام للأمة ، فإذا أنفق الفرد ثروته فى تقوية نفسه وأسرته فهذا من مصلحة الأمة ، وإذا نظم حياته بماله تنظيما يدعو إلى رقى نفسه وأسرته فعرف كيف يدخر وكيف ينفق وإذا أنفق أنفق فى تقوية بدنه وعقله وروحه وأسبغ على حياته وحياة أسرته القوة من جميع نواحيها فذلك

فى مصلحة الخير العام . ومثل هذا إذا خصص جزءا من فضل ماله لما يرى من وجوه النفع العام التى تلائم ذوقه وتتفق مع ميوله . أما إذا أنفق ثروته فيما يضعف نفسه وأسرته من انهماك فى نوع من أنواع اللذائذ المنهكة للقوى المتلفة للمال من ميسر أو إدمان مسكرات أو نحو ذلك ، فمظهر من مظاهر الانحطاط لأنه يضعف بذلك نفسه وأسرته ، وفى ذلك إضعاف للأمة لأن الأسرة وحدة الأمة ، وكذلك الشأن فى ثروة الحكومة من حيث الدخل والخرج ، فإذا راعت فى فرض الضرائب مصلحة المجموع وراعت فى وضع ميزانيتها ووجوه إنفاقها مصلحة المجموع كذلك ، فذلك مظهر من مظاهر رقيها . أما إن هى راعت فى ضرائبها مصلحة فئة من الناس وراعت فى ميزانيتها طبقة من الطبقات وأنفقت على المدن وضنت على الفلاح وأسرفت فى الكماليات وشحت فى الضروريات وبالغت فى توسيع الشوارع وغرس الأشجار قبل أن يجد الفلاح ماءه النقى الذى يشربه ومسكنه الصحى الذى يسكنه ونوره الذى يستنير به ، فمظهر من مظاهر الضعف والانحطاط . ولتنظيم الثروة أهمية كبرى لا من الناحية المالية فحسب بل إن أثرها يتعدى — تقريبا — كل مناحى الحياة ، فالثروة هى عماد رقى الصحة ورقى العقل ورقى الروح — والرقى فى تنظيمها يستتبع رقياً فى جميع هذه النواحى كما أن الانحطاط فيها يستتبع الانحطاط فى جميع هذه النواحى .

وهناك نواح أخرى لا يتسع لعدها مقال ، ولكن يمكننا أن نجمل القول فيها وفيما ذكرنا قبل بأن « خير مقياس لرقى الأمة أن تنظر الحكومات فى تصرفاتها لمصلحة المجموع وأن تنظر الأفراد فى تصرفاتها لمصلحة الأمة » .

وهذا هو مظهر الرقى من الناحية المطلقة المجردة . وهناك مقياس لرقى الأمة نفسها أعنى أننا إذا تساءلنا هل هذه الأمة بعينها تسير نحو الرقى أو نحو الانحطاط

فبم نجيب ؟ أظن أن الإجابة عن ذلك سهلة وهى أن الأمة — فى كل ما ذكرنا — إذا كانت فى يومها خيراً من أمسها وأقرب إلى المثل الذى ألممنا بوصفه فسائرة إلى الرقى . وإذا كانت فى يومها شراً من أمسها وكانت أبعد عن المثل الذى وصفنا فسائرة إلى الانحطاط . وإن كانت فى يومها خيراً من أمسها فى بعض النواحى وشراً فى البعض الآخر وجب أن نعمل عمليات دقيقة لتقويم الحسن والقبح وعمليات جمع وطرح دقيقة نعرف بها ما يتبقى بعد ذلك من ضعة أو كمال ثم الحكم بعد ذلك حسب نتائج هذه العمليات .

مناهج الفقهاء الأئمة فى التشريع

اتفقت كلمة المشرعين على أن أصول الأحكام الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وإن اختلفوا فى الاعتماد والتفسير لبعض هذه المصادر . فمثلا يعتمد الإمام أحمد بن حنبل على الحديث كل الاعتماد ويجمع فى مسنده نحو ستة آلاف حديث يبنى عليها أحكامه الفقهية ، على حين أن أبا حنيفة لم يصح عنده إلا نحو تسعة عشر حديثا كما يخبرنا بذلك ابن خلدون ، ويضيّق الإمام مالك فكرة الإجماع ويقصرها على إجماع أهل المدينة ، على حين أن غيره من الأئمة يجعل الإجماع عاما لجميع المسلمين ، استنادا إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » . ويتوسع أبو حنيفة فى القياس حيث يضيّقه أحمد بن حنبل . وهكذا تختلف منازعهم وإن اتفقوا على الأصول الأربعة . وعدا ذلك اختلفت منازع الأئمة فى التشريع . وكان لابد من اختلاف اتجاهاتهم . فإن الأحكام الواردة فى القرآن والسنة أكثرها أحكام كلية ، مثل « لا تُضَارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » ومثل « لا ضرر ولا ضرار » وهكذا . وقد واجه الأئمة بعد فتح الأمصار حالات كثيرة جديدة لم تكن معروفة فى جزيرة العرب . ففى العراق واجهوا مسائل الرّى الناشئة عن دجلة والفرات ، واجهها أبو حنيفة ، ثم من بعده تلميذه أبو يوسف ومحمد . وفى مصر واجه الشافعى مشاكل الرى الناشئة عن النيل ، هذا إلى مشاكل المعاملات والجنايات .

ولكل قطر عاداته فى المعاملات والجنايات ومن أجل ذلك كان للشافعى مذهبان : قديم وجديد ، قديم قبل أن يدخل فى مصر وجديد استحدثته أحوال مصر . ولذلك أود أن يتجه بعض الناشئين الباحثين فيقارنوا بين مذهبه القديم

والجديد ، ليعرفوا إلى أى حد غيرت مصر من مذهبه القديم ويعرفوا الحالة الاجتماعية التى استدعت ذلك .

هذا إلى أن كثيراً من الأمم التى دخلت تحت حكم الإسلام كالفرس والروم كانت لهم عادات خاصة ، فلما دخلها الإسلام كان لا بد أن يعرضوها على الأئمة ، ليعرضها هؤلاء بدورهم على الأصول الكلية للإسلام ، ويقروها أو يحكموا ببطلانها .

وأسباب الخلافات بين الأئمة ترجع إلى عوامل كثيرة ، منها صحة حديث عند بعض الأئمة فى بعض الأقطار ، وعدم صحتها عند الآخر . ومنها فهم الإمام لآية وحديث حيث لا يفهم الإمام الآخر هذا المعنى منهما ، ومنها أن أحد الأئمة يشترط شروطا كثيرة فى قبول الحديث حيث لا يشترطها الإمام الآخر ، ومنها تأثر الإمام إلى درجة كبيرة بالبيئة التى يعيش فيها ، حيث يتأثر الآخر ببيئة غيرها . ومنها ثقافة كل إمام وإن كان كلهم مثقفين إلا أنه مهما كانت ثقافتهم فإن كلا منهم يختلف عن الآخر فى نوع الثقافة ومقدارها : فمثلا الأمام مالك متأثر ببيئة المدينة حيث كان يسكن رسول الله ، والصحابة الذين كانوا يعيشون حوله ، وكان يقدرهم تقديرا كبيراً حتى جعل الإجماع الذى يعتد به هو إجماعهم ، ووجوده فى المدينة مكنه من معرفة الأحاديث الصحيحة التى اعتمد عليها فى كتابه الموطأ . ولكن من ناحية أخرى ، كان وجوده هذا فى المدينة سبباً فى عدم إطلاعه على المدنيات الأخرى ومعاملاتها وجناياتها كالتى اطلع عليها أبو حنيفة فى العراق والشافعى فى مصر . والشافعى مثلا تلميذ الإمام مالك ، ومتأثر به ، ومطلع أكثر من الإمام مالك على المدنيات الأخرى التى رآها فى مصر والعراق . ومما امتاز به اهتداؤه إلى علم الأصول ووضعه له ، ثم استنباطه الأحكام على وفقه ، مما لم يصل إليه إمام آخر .

ولذلك كان مذهبه أكثر المذاهب انطباقا على المنطق بعكس الأئمة الآخرين ،

فإنهم كانوا يعتمدون على فهمهم لآيات الأحكام وأحاديثها ، وكان الاستنباط كالملكات في نفوسهم ، فجاء الشافعي فوضع تلك الأصول والتزمها . والشافعي كما تدل عليه رسالته في الأصول يقدِّر السنة تقديرا عظيما ، لأنها في كثير من الأحوال مبينة للكتاب ، مفصلة لمجمله . وقد نفعه في ذلك دراسته الموطأ على الإمام مالك ، وملاقاته مشاهير المحدثين في بغداد ومصر .

وملخص منهجه أنه إذا عرض له أمر ، بحث عنه في الكتاب ، فإن لم يجده بحث عنه في السنة ، وإذا وجده في الكتاب مجملا ، بحث عنه في السنة مفصلا . ولذلك يجعل الشافعي العلم بالسنة في مجموعها في مرتبة القرآن ، ويعني بذلك الحديث الذي ثبتت صحته ، إذ قيد السنة التي في مرتبة القرآن بالسنة الثانية ، فإذا لم يجد الحكم في كتاب ولا سنة اتجه إلى الإجماع ، فإن لم يجد إجماعا ، التجأ إلى القياس . وقد عني الشافعي بدرس القياس وتحديده وقد حدده بالمثال ، ووضع قواعد معينة لاستعمال القياس .

أما أبو حنيفة فقد تشدد في الحديث الذي يقبله ، ولذلك قل اعتماده على الأحاديث كما ذكرنا ، واضطره ذلك إلى التوسع في القياس ، لأنه إذا لم يكن في المسألة العارضة حكم في الكتاب ولا في السنة ، اضطر إلى أن يلجأ إلى القياس ، فتوسع فيه أكثر من باقي الأئمة .

وأما أحمد بن حنبل ، فقد توسع في الحديث ما شاء الله أن يتوسع ، فلم يعتمد على القياس إلا قليلا ولم يتصور إجماعا غير إجماع الصحابة .

* * *

وبجانب هؤلاء الأئمة الأربعة كان هنالك أئمة يتجهون اتجاهات مخالفة بعض الشيء فمنهم من كان ينكر الحديث بتاتا ، وقد حكى ذلك عنهم الإمام الشافعي نفسه في الأم . وأئمة رفضوا القياس بتاتا ، ولم يعتمدوا إلا على النص .

حكى عنهم ذلك الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » كما فعل أهل الظاهر ، فأهل الظاهر يرفضون القياس ولا يعتمدون إلا على النصوص . ويعتبرون أن النص إذا ذكرت علته ، كان أخذ الحكم من هذه العلة بناء على النص لا بناء على القياس . ومع اعتمادهم جميعاً على الأصول الأربعة ، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فإنهم واجهوا مسائل اضطروا فيها إلى الرجوع إلى العدالة ، كما يقررها العقل ، وهى التى كان يسميها القانون الرومانى بقانون الطبيعة وسماها كل إمام باسم خاص فسماها بعضهم استحسانا ، وسماها بعضهم استصلاحا ، وسماها بعضهم المصالح المرسلة .

وقد تعسف بعضهم فأرجعها إلى القياس ، وسماها قياساً خفياً ، مع أن العقل غير المتعسف يرى أنها ترجع إلى طبيعة المشرع فى تقويم العدالة . وليست من قبيل القياس المعروف .

* * *

فنرى من هذا أن مناهج الفقهاء تكاد تكون متقاربة ، لأن اختلافها إنما هو فى التفصيلات لا فى الأسس ، على أنا لا ننكر أن السياسة لعبت دوراً كبيراً عند بعض الفقهاء ، وأقرت فى بعض آرائهم ، فمثلا كان الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ ﻫ رجلا كبير النفس ، واسع العلم ، ومع ذلك كان كثير الاتصال بالأمويين . فكان يسهل أحكامهم ويمهد الأمور لسلطانهم . وربما كان يرى أن مسالمتهم وعدم الخروج عليهم ، مما يجمع أمر المسلمين ، ويوحد كلمتهم . وكان كثيرون يرون أن سوء العقيدة مع العمل والقوة خير من صحة العقيدة مع الضعف والظلم .

أما فى الدولة العباسية فتدخلهم فى التشريع ظاهر أكثر من ظهور ذلك فى الدولة الأموية ، فأولا رويت الأحاديث الكثيرة عن عبد الله بن عباس ، وأعلى شأنه كثيراً ، وثانياً ظهر فى التشريعات أشياء كثيرة ، تخدم سياستهم التشريعية ،

كالتشديد على النصارى بلبس الزنار ، وتميزهم بالملابس الخاصة ، يدرك ذلك من دقق النظر فى كتاب « الخراج » لأبى يوسف وهذا التدخل السياسى فى التشريع هو الذى كان السبب فى رفض كثير من الأئمة تولى القضاء ، وإن عذبوا وأهينوا ، لأنهم متى قبلوا القضاء ، فقد خضعوا للسلطة السياسية ، وجاروها وعملوا حسب رأيها .

على كل حال قد أفاد هؤلاء المشرعون بمناهجهم الإسلام فائدة كبيرة ، والذى يريد أن يدرس فلسفة المسلمين الأصيلة و بعد نظرهم ، وجدهم المضنى ، فليدرس المشرعين وتاريخهم وفقههم ، وأصولهم ، فهنا يجد الأصالة التامة ، حيث لا يجد ذلك فى دراسة للفلسفة والفلاسفة المسلمين ، فإنها تقليد لليونانيين ، وليس فيها الأصالة ما للمشرعين . ولو ظل باب الاجتهاد مفتوحاً طول العصور ، لرأينا العجب العجاب من نمو الفقه وتطوره ، مما يناسب كل عصر ، ولكنهم جازاهم الله على عملهم ، ضيقوا فى الدين واسعاً ، وحرموا على أنفسهم ما أحله الله فكان كلام الخلف ليس إلا ترديداً لما قاله السلف . حتى فى الأمثلة .

وليسوا يبيحون لأنفسهم أن يواجهوا مسألة جدت ولم يكن لها فى الماضى نظير ولا أن يقدروا عمل الزمان فى تغيير الأحداث والأحكام ، فنحن أحوج ما نكون إلى طائفة مجتهدة تماشى العصر وتشرع للزمان .

لقد ملئ العالم بانقلابات خطيرة فى الصناعة ، كالطيارات والغواصات والقطارات والقنابل الذرية والراديو والتلفزيون ، وغير ذلك من آلاف المخترعات ، وكلها تتطلب تشريعات جديدة ، فمثلا الطائرات تقتضى بحثاً فى مدى ملكية الأمة لسمائها وهل يجوز لطائر من أمة أن يطير بطائرته فى سماء أمة أخرى من غير إذنها ، ونحو ذلك من مشاكل . وكثيراً ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يُستفتى فى مسائل جديدة تواجه المسلمين كلبس البرنيطة و إيداع المال فى صناديق التوفير ،

وأكل ذبائح النصارى ، ونحو ذلك فكان يجتهد و يشنّع عليه فى اجتهاده . ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون فى أمرهم .

أما هذا الجمود ، وإغلاق العين عما يحصل ، فنتيجة إهمال الساسة الفقه الإسلامى والاتجاه إلى غيره من القوانين الغريبة . كما حدث فى عهد الخديو اسماعيل فقد روى أنه طلب من جمهرة العلماء أن يجمعوا له الأحكام من سائر المذاهب المختلفة ، ولا يتقيدوا بمذهب واحد ، وأن يعدلوا عن بعض المسائل فى مذهب إلى غيرها أصلح منها فى مذهب آخر فلم يقبلوا ، فاضطر إلى التشريع على أساس القانون الفرنسى و إنشاء المحاكم الأهليــة . فـكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الإسلامى .

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهاداً ما التجأ إلى القوانين الأوروبية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه ، ومن هذا نرى أننا نحتاج إلى ثورة فقهية ، وثورة أدبية بجانب الثورة السياسية والله الموفق .

النجاح فى الحياة

كل إنسان فى الوجود يأمل النجاح فى الحياة ، رجلا أو امرأة ، صانعاً أو زارعاً أو تاجراً أو أديباً أو عالماً و إن اختلفت الصورة التى يرسمها كل لغايته فى النجاح .

وهناك صفات كثيرة لا بد منها فى النجاح ، بعضها خاص بنوع العمل الذى يعمله الشخص ، فالتاجر تلزمه صفات خاصة لنجاحه قد لا يتطلبها نجاح العالم أو الأديب وهناك صفات عامة لا بد أن يتصف بها كل مريد للنجاح .

وقد دلت التجارب على أن النجاح فى الحياة على وجه العموم — يعتمد على الأخلاق أكثر مما يعتمد على العلم — ومن أمثلة ذلك ما يشاهد من تجار كبار كانوا أميين أو شبه أميين بنوا لأنفسهم مجداً فى التجارة ونجحوا فيها نجاحاً باهراً بجهدهم واستقامتهم وحسن سمعتهم ومعرفتهم بالسليقة نفسية الجمهور ثم رزقوا أولاداً أرادوا أن يكونوا خيراً منهم فى التجارة فأرسلوهم إلى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا وعلموهم على آخر طراز ونالوا الشهادات العالية فى الاقتصاد وما إليه ثم عادوا وحلوا محل آبائهم بعد وفاتهم وكانت النتيجة أن خسرت تجارتهم وأقفلت محالهم بعد إفلاسهم وأصابهم الفقر بعد الغنى . و بين أن آباءهم الأميين أو شبه الأميين كانوا خيرا منهم — وليس المسؤول عن نجاح الأولين وفشل الآخرين هو الجهل أو العلم ولكن الأخلاق فالأب — على أميته — كان يحسن الأخلاق التى تتطلبها التجارة فنجح ، والثانى لم يحسنها ففشل ولو كان الابن المتعلم فى مثل أخلاق أبيه الجاهل لكتب له من النجاح أكثر مما كتب لأبيه وهكذا فى كل نواحى الحياة .

قد يضرب الناس أمثلة كثيرة بقوم فاسدى الأخلاق نجحوا فى الحياة برذائلهم،

حيث لم ينجح كثير من الناس بفضائلهم ، ولديهم أمثلة كثيرة على ذلك وخاصة فى أيام الحرب ، فالتاجر المستقيم ربح بحساب أو لم يربح مطلقا ، والتاجر الداعر ربح من غير حساب . والموظف الأمين عاش على مرتبه الضئيل والموظف الخائن حاز الأموال الطائلة حتى لم تعد تهمه الوظيفة ، ثم الموظف المتملق لرؤسائه قد يرقى على أكتاف الموظف المستقيم وهكذا .

قد يكون هذا صحيحاً ولكن لابد أن تحسب راحة الضمير المستقيم وقلقه عند الخائن ، وتحسب احتقار الرأى العام للخائن واحترامه للنزيه وتحسب حساب المسؤولية أمام الله ، وتحسب حساب أن المال الحرام قلما يفيد صاحبه وأولاده لأسباب دينية ونفسية واجتماعية ، وتحسب حساب من ضبطوا فى حياتهم فعوقبوا فخسروا الدنيا والآخرة ، فلو حسبت حساب هذا لترددت كثيراً فى تسمية هذا نجاحا ، وهبه صحيحا فأغنياء الحرب الذين اكتسبوا من طريق الرذائل استثناء من الحياة العامة ، ومن نجحوا فى السلم عن طريق غشهم وخداعهم وملقهم استثناء من الحياة العامة، أما القانون العام فى كل زمان ومكان فهو أن النجاح فى الحياة يتوقف كثيراً على الأخلاق التى يستلزمها العمل من صفات خاصة وعامة من اعتدال فى الحياة وضبط للنفس وجد فى العمل وأمانة واعتماد على النفس وثقة بها وإخلاص فى العمل وإخلاص لنفسه وللناس وصدق فى المعاملة إلى غير ذلك من فضائل — وكلما رقيت الأمة كان من مظاهر رقيها نجاح الذين يعتمدون على أخلاقهم وفشل الذين يعتمدون على رذائلهم .

وهكذا الشأن فى الأمم ، تنجح الأمة فى عالم التجارة إذا أحسنت سمعتها وحسنت معاملاتها وحسن إنتاجها ، وتفشل إذا انهارت هذه الأخلاق ، وتنجح فى السياسة إذا صدقت وعودها وشرفت فى معاملاتها وخدمت الإنسانية بأغراضها فإن نجحت بغير ذلك فنجاح مؤقت ، ونجاح كنجاح الموظف الخائن ، ومؤرخو

الدولة الرومانية — مثلا — مجمعون على أن نجاحها فى عصر ازدهارها كان مؤسسا على أخلاقها فلما تدهورت أخلاقها تدهورت أملا كها .

ثم قد ينجح المرء فى الحياة بسبب النبوغ العلمى النادر ، أو الذكاء العقلى اللامع ، أو القدرة الفائقة على إدراك الفرص وانتهازها ولو لم تدعمها الأخلاق الفاضلة ، ولكن حتى فى هذه الأحوال النادرة لو كان لهذه المزايا الفائقة مستند من أخلاق فاضلة لكان صاحبها أكثر نجاحا ، فالأخلاق الفاضلة تقويه وتقوى نجاحه ، والأخلاق السيئة تضعفه وتضعف نجاحه . إن الذكاء اللامع والعقلية القوية والقدرة على انتهاز الفرص ونحو ذلك لو دعمتها أخلاق فاضلة لتوجهت إلى خير صاحبها وخير الناس ، وإن هى لم ترتكز على الأخلاق الفاضلة كانت عرضة لأن تتجه للعمل لشر الناس وفى ذلك من الخطر ما لا يخفى والنابغ والذكى أقدر على الخير والشر من الرجل العادى .

وهناك أمر لا بد من التنبيه إليه ويقع فى الخطأ فيه كثير من الناس ، وهو أن الأخلاق الفاضلة التى تسبب النجاح يجب أن تصحبها اللباقة أو الأدب فى المعاملة أو حسن المجاملة أو ما شئت من أسماء ، فالأخلاق الفاضلة وحدها لا تكفى فى النجاح إذا هى اصطحبت بجفاف فى المعاملة أو خشونة فى الطباع أو عدم ظرف ولباقة — قد يكون التاجر أمينا مستقيما ولكنه خشن غير لبق وقد يكون الموظف مستقيما أمينا جادا فى عمله قائما بواجباته ولكنه جاف غليظ سمج فى معاملاته لرؤسائه وللناس ، وقد يكون الأديب أو العالم مستقيما فى سلوكه مخلصا لأدبه أو علمه ولكنه غير لبق فى معاملته لمن حوله — كل هؤلاء قد يفشلون فى الحياة ولا ينجحون ثم هم يخطئون إذ يظنون ويظن بعض الناس معهم أن فشلهم أتى من استقامتهم وجدهم وإخلاصهم ، والحقيقة أن فشلهم أتى من قلة لباقتهم وعدم ظرفهم ، لا من حسن أخلاقهم .

واللباقة والأدب والظرف فى المعاملة لا تكرهه الأخلاق بل تدعو إليه

الأخلاق ، وهذه اللباقة غير الكذب وغير الملق ، فقد يكون الإنسان صادقا ومع ذلك فهو مؤدب لبق وقد يكون الإنسان صريحا غير متملق ومع ذلك مؤدب لبق ، وعدم اللباقة قد يهدم الصداقة وقد يسبب كثيراً من العداوة وقد يسىء إلى السمعة ، وكل ذلك يعرض للفشل وليس المسئول هو الأخلاق الفاضلة ، ترى هذا فى التاجر والعالم والموظف والمحامى وعضو البرلمان وجميع صنوف الناس إذا خلوا من اللباقة سببوا لأنفسهم وأهلهم من حولهم متاعب تؤدى إلى الفشل والخيبة مع ما قد يكون لهم من كفاية نادرة وأخلاق فاضلة . على حين أن من دونهم كفاية قد يكونون أكثر نجاحا للباقتهم وظرفهم .

وشأن المرأة من ذلك شأن الرجل فالمرأة الفاضلة اللبقة أكثر نجاحا فى الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية وقد تكون الحياة جحيما وليس لذلك من سبب إلا أن المرأة مع استقامتها وسمو أخلاقها قد حرمت اللباقة والظرف فهى تسبب بعدم لباقتها كل يوم مشكلة جديدة قد يصعب حلها .

وبعد فالأخلاق الفاضلة مع اللباقة والظرف والكياسة عدة النجاح .

كيف ترقى الأمم

أعتقد أن الأمم فى حركة مستمرة دائما وهى أما حركة تقدمية أو رجعية ، ولـكن لا وقوف وهذه الحركات كثيرة جدا تعد بالآلاف ، وهى حركات معقدة لا تتجه اتجاها واحداً دائما . بل قد تتجه اتجاهات متعاكسة ، فالحركة قد تكون مربحة ماليا وغير مربحة أدبياً . وقد تساعد التجارة ، ولـكنها تضعف الخلق ، وقد تغير الرجال ، ولـكنها تضر النساء والعكس وهكذا . ومن أجل ذلك فالحكم على الحركات إجمالا بالنفع أو الضر يحتاج إلى عين ماهرة فاحصة ، ثم إن الحركات التى تصدر عن الأمة اليوم لابد أن يدخل فى نسيجها أعمال الأمس بل يدخل فيها أيضا رغبات الناس فى المستقبل من آمال وسعادة وغنى ونحو ذلك فهى أشبه ماتكون بالسوائل المائعة ، تقبل التقدم والتأخر والاستقامة والاعوجاج فى سهولة ويسر ، لا كالأشياء الجامدة المتحجرة . وهذه الحركات دائما فى تغير مستمر . فكل يوم تظهر قضايا لم تكن موجودة ، وتختفى قضايا كانت موجودة . والاختلاف فى قضية قد يستتبع خلافا فى قضايا أخرى ، فالمرأة لما سفرت استتبعت تغييراً فى نظام الزواج والطلاق وتغييراً فى تفصيل الملابس وخياطتها ورواجا للقبعات بدل البراقع ونحو ذلك . والمجتمع لديه شعور طبيعى مجهول لنا سببه وهو الميل دائما إلى التوازن فحيث تجد حرارة فى ناحية تجد برودة تقابلها فى ناحية أخرى ويتجلى ذلك فى الثورة الفرنسية مثلا والثورة الصناعية فقد خلقت نظاما خاصا فاستتبع هذا النظام تغييرا فى الأنظمة الأخرى تناسبه وتلتئم معه وتكون توازنا لابد منه .

ويحدث عادة أن كثيرا من الناس قبل البدء فى الرقى تظهر عليهم أعراض السخط على الماضى ومن هؤلاء من يزيد سخطهم فيتشاءمون ، ولا يعودون يصلحون

لعمل إيجابى ، ولا يكون أمامهم إلا إظهار العيوب ونقدها والتحسر عليها ، وبجانبهم عادة يكون قوم آخرون إيجابيون ، يتألمون من الماضى ، ولكن يحفزهم ألمهم على البحث عن طريق الخلاص منه ، فيضعون برنامجا لذلك الخلاص ، ويرسمون خطة للعيش اليوم فى ضوء المستقبل ، ويعيشون عيشة يعدلون فيها حياتهم وفق آمالهم ومثلهم العليا على قدر الإمكان .

ولكن مع الأسف لم يخلق الله شخصين متحدين فى المزاج والعقلية والتجارب حتى يضعا برنامجا واحدا للمستقبل ، بل لكل إنسان برنامجه . نعم — قد يتفقان فى الغرض كأن يتفقا على القضاء على الفقر المدقع ، وعلى وجوب تقارب الطبقات ، وعلى أن يكون لكل فرد من الملك ما يعيش به عيشة سعيدة ، ولكنهما إذا أخذا فى التفاصيل اللازمة لتنفيذ هذا الإصلاح فسرعان ما يختلفان على أنهما كثيرا ما يختلفان فى الأساس نفسه ، فقد يكون المثل الأعلى لأحدهما سعادة الأفراد سعادة مادية من أكل ولبس ومسكن ونحو ذلك على حين أن الآخر يرى المثل الأعلى فى هذا أيضاً ، وفى السعادة العقلية والنفسية من رقى فى الفنون والعلوم والأخلاق والدين ونحو ذلك .

ومهما كان الاختلاف فقد اتفق المفكرون تقريباً على أن أسس الإصلاح التى ينبغى أن تطلب وتحقق ثلاثة : النوع الأول : الإصلاح المالى للدولة ، ويشتمل على أشياء كثيرة سنتعرض لها بعد . والإصلاح الثانى تنظيم المعاهد والمرافق وتوجيهها وجهات متعاونة لا متعاكسة . والأساس الثالث تعديل حالة الأمة وتسييرها مع مراعاة ما يحيط بها من ظروف خارجية وعلاقات بالدول الأجنبية ، مع العلم بأن كل أساس من هذه الأسس يؤثر نظامه على الأساسين الآخرين جودة أو رداءة ، فإذا حسن تنظيم أحدها ساعد على تنظيم الآخر وإلا لا .

ونعنى بالتنظيم المالى جملة أشياء مثل تنظيم معاهد العمال ونقاباتهم وشركاتهم ووضع ما يكفل نشاطهم وجدهم وأمانتهم فى العمل وإتقانه ونحو ذلك . ومثل تنظيم المعاهد

العلمية ومعاهد الأبحاث ونحو ذلك ، وقد يكون غريباً أن نعد هذا من ضمن التنظيم المالى ، ولكنه هو الصحيح لأن الأبحاث العلمية ونتائجها قد تدر على الدولة من الأموال ما ليس له حد . خذ لذلك العلم الذى يبحث فى معرفة الأرض وهل فيها بترول أولا ؟ وكيفية استخراج البترول والانتفاع به ... فإن هذا يفيد الدولة اقتصادياً ما لا يفيده أى شىء آخر . ومثل تنظيم الضرائب على الشعب ، وإلى متى يتحمل ، وكيف تضرب الضرائب على الكماليات أكثر مما تضرب على الضروريات ، وكيف تختلس الضرائب اختلاساً حتى لا يتألم منها الجماهير ونحو ذلك . ومثل التنظيم الزراعى ودراسة الأرض وما تحسن وما لا تحسن ، وكيف تستغل الأراضى بالآلات الحديثة ، لنستخرج منها أكبر محصول بأقل مجهود وهكذا. ومثل تعاون النقابات وكيفيته وتنظيمه ، فيساعد بعضها بعضاً لخير الأمة ، ومساعدة الفلاحين بواسطتها حتى تسهل أمورهم ومعاشهم . هذه هى أهم التنظيمات المالية التى يجب أن تحققها الدولة إذا أرادت الرقى .

أما الأساس الثانى وهو تنظيم الحياة العلمية والفنية وترقيتها ، ووضع البرامج لها وإمدادها بالمال اللازم لها فإنه مهما صرف عليه من المال فإنه سيعوض أضعاف ما صرف عليه . وأهم شىء فى ذلك اختيار الصالحين لهذا العمل اختياراً صحيحاً وقد وزع الله الملكات على الناس فمنهم من ملكته فى يده وهؤلاء يكون منهم الصانعون ومنهم من ملكته فى رأسه ، وهؤلاء يكون منهم العلماء والباحثون ، ومن ملكته فى قلبه ، ومن هؤلاء يكون الفنانون ، وإنما يصلح كل شخص إذا أسند إليه عمل يناسب ملكاته وإلا كان الشأن شأن كتاب فقه يوضع فى يد أديب وكتاب شعر يوضع فى يد فقيه .

وأما الأساس الثالث وهو معرفة الظروف الخارجية وتسيير الأمة وفقها فأساس لا بد منه لهدوء بال الأمة ، وإمكان السير فى حياتها الداخلية سيراً هادئاً مطمئناً ، فقد تعترى الأمة هزة فظيعة من جراء جهلها بالظروف الخارجية ، وقد تفوت عليها

مصالح هامة من جراء جهلها أو عدم انتهازها للفرص مما يؤثر فى مجرى حياتها الداخلية .

هذه الأسس الثلاثة متى أحسن تدعيمها تقدمت الأمة بمقدار هذا التحسين ، ويجب أن ننبه هنا على شىء هام ، وهو أن القائمين على تنظيم هذه الأسس يجب أن يكونوا مرنين متأقلمين لا جامدين متزمتين ، فإذا ظهرت بوادر تغيير فى الظروف غيروا فى التنظيم وساروا مع الأحوال الجديدة سيراً جديداً ولا يفعلون ما يفعل الساسة الأجانب ، تمر عليهم الأجيال وتتغير الأحوال ، ثم هم يعاملون من يعاملونهم كأن الدنيا ما تغيرت وكأن الزمان ما حال . إن الفتاة الباريسية التى تتغير كل حين فى بدعها (مودتها) ولا تلبس اليوم ما كانت تلبسه بالأمس ، ولا فى الصيف ما كانت تلبس فى الشتاء ، أعقل من العلماء الجامدين ومن الساسة المتزمتين . إن الأمة إذا وجهت عنايتها لهذه الأمور الثلاثة ، ووجهت عنايتها أيضاً إلى توحيد هذه الاتجاهات التى تعاكسها ضمن لها النجاح . ومن حسن الحظ أن الدولة الناشئة لم تثقل أكتافها التقاليد القديمة ولا الأساليب العتيقة فهى حرة فى التجديد أكثر من حرية من أثقلها الماضى وغلها بقيده . والفرق بينهما كالفرق بين فتى انفتلت عضلاته واشتد ساعده ومرن عقله ، و بين شيخ أقعدته السنون وأثقلته الهموم وقيدته أحداث الزمان والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

رسالة المرأة العربية

لا شك أن رسالة المرأة جليلة الخطر ، فلا تصلح نهضة لأمة ما لم تعتمد فى أساسها على المرأة لا لأنها تكون نصف الأمة فقط ولكن لأنها هى التى تربى الأمة كلها .

و إذا كانت النساء تكثر فى مؤتمراتها ودعواتها من ذكر حقوقها والمطالبة بها فليسمح لنا أن نكثر من ذكر واجباتهن فخير مايمهد لهن كسب حقوقهن عنايتهن بأداء واجبهن .

وواجب المرأة العربية ورسالتها أشق وأصعب من واجب مثيلاتها فى الممالك الأوروبية المتمدنة ، إذ عدد المتعلمات المثقفات فى بلاد العرب قليل جداً إذا قيس بعددهن عامة ، ولا تنظروا إلى عدد قليل مثقف فى المدن ، فهؤلاء لا يمثلن المرأة ، إنما الذى يمثلها النساء الفلاحات فى القرى والأرياف .

إن المرأة العربية التى تقدمت هى المرأة التى دخلت المدارس وتعلمت تعليما ثانويا أو عالياً ولكن كم عدد هؤلاء بجانب السواد الأعظم من النساء اللاتى لا زلن على حالهن منذ القرون الوسطى بل منذ التاريخ القديم .

إن الذى يمثل مصر — مثلا — ليس خريجات الجامعة ولكن نساء دهشور و بوصير ونجع حمادى وشلشمون ، وليس الذى يمثل مصر شوارع الأهرام « بفللها » الجميلة ولكن أكواخ الفلاحين بجاموسها و بقرها . والذى يمثل المرأة حقاً ليست ملابسها الجميلة خارج البيت ومظاهرها الأنيقة فى المجتمعات ولكن الذى يمثلها حقاً هو معيشتها داخل بيتها .

فعلى هذا الأساس نرى أننا لم نتقدم كثيراً فى رجالنا ولا نسائنا ، فلا تزال الجمهرة من الرجال أميين ، والنساء أكثر من ذلك ، ولا يزال نحو هذا العدد لا يجد

الماء النظيف الذى يشربه والمسكن النظيف الذى يسكنه والنور الصالح الذى يستنير به — ولقد دخلت فى قرية فى سويسرة بيتا لبقر فلاح فرأيته على أتم ما يكون من النظافة مضاء بالكهرباء غطيت أرضه بالخشب لينام عليه البقر وعملت فيه مجار كقنوات يجرى فيها ما يخرج منه ، فقلت متى يكون لفلاحينا وعمالنا وفقرائنا بيوت كبيوت البقر السويسرى .

لست يائساً ، فالنهضة الأوروبية ليست إلا بنت ثلاثة قرون ، والنهضة النسائية فى أوروبا ليست إلا وليدة قرن ونصف ، فقد كانت المرأة فى أوروبا تعد سلعة من السلع ، وفى بعض الأماكن كان لزوجها الحق فى بيعها — وكان خير ما ينظر فيه إلى المرأة أن ينظر إليها كما ينظر إلى الطفل يدلل ويضحك منه ولا يعتمد عليه .

وتاريخ المرأة فى العالم يكاد يكون قصة قصيرة واحدة فى الضعف والتحول والارتقاء ، فليست أوروبا عجباً من العجب أو أنها خلقت من طبيعة غير طبيعتنا يستحيل علينا بلوغ شأوها ، فلدينا من الاستعداد الطبيعى والبيئة الطبيعية وموارد الثروة ما يمكننا من أن نبلغ مبلغهم فى رجالنا ونسائنا لو حفزنا الهمة وبذلنا الجهد وضاعفنا السير إلى الأمام فى ثبات وحزم .

مرت الأسرة الأوروبية بالدور الذى مررنا به ، وهو نظام الأسرة الأبوية الاستبدادية التى كان فيها الأب السيد الأعظم الآمر الناهى المتصرف الوحيد فى البيت وشئونه ، والمرأة ليس لها حق بجانب حقوقه ، بيده المال ، وبيده الإدارة وتخليق المرأة والأطفال بالأخلاق التى يراها ، ثم تغيرت الظروف الاجتماعية فتغير مركز المرأة ، ويرجع هذا التغير إلى أمور أهمها التطور الاقتصادى ، فانهدم النظام الإقطاعى وتقدمت الصناعات . والنظام الإقطاعى والمعيشة الزراعية تساعد كثيراً على تثبيت سلطة الآباء ، فلما انهدم النظام الإقطاعى ورقيت الصناعات ضعفت سلطتهم ؛ ومنها انتشار الثقافة بين أفراد الشعوب وخصوصاً نوع الثقافة الذى

يشعر الإنسان بحقوقه وواجباته : من حقها أن تتعلم ومن حقها أن تكون شريكة الرجل فى البيت لا خادمته . ومن ذلك الحين اتجهت الأسرة إلى طلب المساواة وتحقيقها شيئاً فشيئاً حتى كاد أن يطلب الرجل المساواة — وجاءت الحرب الماضية فساهمت المرأة الأوروبية فى تحمل أعبائها فنالت بعد الحرب كثيراً من مطالبها ومنها دخول الجامعات الذى لم يتم فى بعض جامعات انجلترا إلا سنة ١٩٤٥ وها هى فى هذه الحرب تقدمت خطوات فى المشاركة فيها فلا بد أن تتقدم خطوات بعد الحرب فى الكسب .

هذه هى قصة المرأة الأوروبية وهى بعينها قصة المرأة العربية وإن كان جزء كبير من التقدم نشأ من العدوى أكثر من نشوئه من التطور الطبيعى للحياة الاجتماعية العربية .

ومما لا شك فيه أن تقدم المرأة فى العشرين سنة الأخيرة كان تقدما عظيما ، فأذكر أنه فى سنة ١٩٢٦ حين عينت مدرساً فى كلية الآداب لم أر مصرية واحدة تستمع لدرسى إلا بنات المرحوم الدكتور على إبراهيم رامز وكانت أمهن ألمانية فتساءلت هل أعيش حتى أرى مصرية تحضر دروسى فى الجامعة ، وكان الأمر أسرع مما كنت أتوقع فالفتيات المصريات يملأن الكليات ويسابقن الشبان فى ميدان العلم .

ولكن يؤخذ على حركة التقدم هذه أمران : الأول أنها تكاد تكون حياة محصورة فى المدن لم تنتقل إلى المدن الأخرى والأرياف ، ولذلك لا نستطيع أن نقول إن الحركة النسائية شاملة ، بل وجد عندنا طبقتان متميزتان جداً إحداهما فى السماء والأخرى فى الأرض وليس كذلك الشأن فى الأمم الراقية . فهناك تقارب فى التفاهم بين نساء الشعب ومقدار لا بد منه فى الثقافة لكلهن ، أما الشأن فى الشرق وخاصة فى مصر فنظام الطبقات واضح جداً : متعلمة جداً أو جاهلة جداً

ولا قدر من الثقافة إجبارى عام ، فمثله مثل الغنى جداً بجانب الفقير جداً والقصر الشاهق بجانب الكوخ الحقير .

ولا تكون الحركة النسائية صادقة حتى تكون عامة وإن اختلف مقدار الثقافة ، ولست أبرئ الرجال من هذا العيب فشأنهم فى مصر كذلك : فيلسوف ومن لا يعرف أن يكتب اسمه .

والأمر الثانى الذى يؤخذ على حركة التقدم النسائى شعورهن بالمظهر أكثر من الحقيقة ، فليس السفور معناه كشف الوجه وغشيان دور السينما والتمثيل بمقدار ما معناه ألا يكون هناك فارق فى العقلية . ولا فرق فى العمل بين الرجل والمرأة ، فإذا جالست المرأة الرجل فالند للند ، وإذا ألقى العبء على المرأة بوفاة زوجها أو عائلها استطاعت أن تعمل وتكافح فى الحياة ، وقد يكون المثل الصادق للسفور الحق ما قامت به النساء المصريات فى مكافحة الملاريا وجمعية مكافحة السل ، والمتبرعات للتمريض ونحو ذلك . على أنه مما يبشر بالخير ما نرى من تطور طبيعى نحو شعور المرأة بمسئوليتها ونأتى إذن إلى النقطة الجوهرية وهى مسئولية المرأة ورسالتها .

أول رسالة للمرأة عنايتها بالأسرة ، والأسرة تقوم بوظائف عديدة اقتصادية وسياسية ودينية ولكن أهم عمل لها أنها مربى للطفل ، ففى الأسرة يأكل الطفل ويلبس ويسكن ويحافظ عليه من الأحداث ويتعلم دروس الحياة الأولى التى تلازمه طول حياته ، وما الحياة خارج المنزل فى المدرسة أو المصنع أو المتجر أو الجامعة أو فى الحياة العامة بعد أن يمارسها إلا نتيجة للبذرة الأولى التى بذرتها الأم فى البيت ، فالأم فى البيت ترسم فى ذهن الطفل رسماً ثابتاً ، المثل الذى سيتبعه فى حياته ، فإن عدلت الحياة العامة فيه ففى العرض لا فى الجوهر .

فالإصلاح الحقيقى للأمة إصلاح المرأة ، إصلاح الأم ، فالألمانى والفرنسى

والإنجليزى والروسى ليس طابعه كما نرى إلا بأمه . وأكثر العيوب التى نراها فى الأمة ترجع فى الحقيقة إلى البيت . فخصامنا فى الشارع ، وفى المدرسة وفى المجتمعات صورة لخصام الأب والأم فى البيت ، وعدم ضبط العواطف فى المعاملة صورة لعدم ضبط عواطف الأب والأم فى البيت ، والكذب فى الخارج من الكذب فى الداخل ، وجبن الابن من جبن الأم ، والأنانية المفرطة فى الخارج من دروس الأنانية فى البيت ، وهكذا وهكذا ، كثرة وفيات الأطفال وكثرة أمراضهم راجع إلى البيت ، إلى الأم .

فى مصر الآن نحو ستة ملايين من الأطفال بين سن ٢١ ، ١٥ وهذه السن عادة تكون ثلث السكان فتصوروا حالهم إذا كان كثير من أسرهم مصابين بالجهل والفقر والمرض ، كيف تكون حالتهم العقلية والخلقية والجسمية ، وتصوروهم وقد صلحت حال أسرهم فى الثقافة والقدرة المالية والصحة الجسمية ، كيف يصبح هؤلاء الأطفال نواة جيل جديد خير ألف مرة من جيلنا — أكثر هؤلاء الملايين الستة يعيشون فى بيوت الفلاحين القذرة الفقيرة التعيسة وسط آباء وأمهات جهلة يرضعونهم مع اللبن الأمراض والجهل والتخريف ، ثم ليس فى الأمة من يأخذ بيدهم أو يلتفت لحالهم ، وجزء كبير من ميزانية الدولة يصرف فيما يعد ترفا بالنسبة لهذه الحال ، وجزء كبير من مجهود المصلحين والعاملين إنما يذهب إلى العدد القليل من الأمة وهو طبقة الأرستقراطية ، فالأدب الذى ننشئه والجرائد والمجلات التى نحررها ونحو ذلك كله للطبقة الأرستقراطية ماليا أو علميا . والسواد الأعظم من الأمة متروك وشأنه للفقر والجهل والمرض ، فلم يعمل شىء يذكر لهذه الملايين الستة الذين هم عماد الأمة فى جيلها الآتى .

فلو وجهت الجمعيات النسائية جهدها إلى هذه الناحية لأتت بالخير الكثير ، هى من غير شك لا تستطيع أن تقوم بإصلاح أطفال الفلاحين والصناع وحدها

ولكنها نستطيع مطالبة الرجال والحكومة بالعمل على مكافحة الأمية ورفع مستوى المعيشة وصوتهن مسموع ما دام الرجال لا يصرخون من سوء هذه الحال .

بل إنهن يستطعن المساهمة فى العمل — متى أسست الجمعيات لرعاية الأطفال — بالتطوع لتعليم الأطفال و بإرشاد الأمهات الجاهلات فى البيوت كيف يحافظن على صحة الطفل و يرعينه .

وأذكر أنى قرأت مرة عن امرأة سوداء فى أميركا استطاعت أن تغير حالة السود بإنشاء جمعية من بنى جنسها ، كانت هى وجمعيتها تتنقل فى قرى السود فيدخلن القرى يعلمن أهلها كيف ترعى الصحة وكيف ينظف المسكن وكيف يرتب ويقمن بالعمل فى بيت من البيوت ليكون نموذجا فهذا موضع للفراخ وهذا موضع لكذا وهذا موضع يمكن أن تنشأ فيه حديقة للمنزل و يزرعنها فعلا حتى إذا وضمن النموذج للقرية ، انتقلن إلى غيرها وهكذا .

هذا مثل من أمثلة السفور الحقيقى للعمل الحقيقى . إن الرجال لصوت النساء أسمع ، والإصلاح على يدهن أسهل ، فمتى اتجهن إلى هذه الجهة من الإصلاح خجل الرجال من أنفسهم ، وضاعفوا جهودهم ولبت الحكومة طلبهن أكثر مما تلبى طلبهم .

أليس من العار علينا أن أغلب فلاحينا وهم السواد الأعظم لا يجدون ماء صالحا للشرب ولا الغذاء الضرورى للقوت ولا الكساء الضرورى للملبس فى بلاد غنية كبلادنا . وفى هذا الوسط ينشأ الأطفال فى الأسر ومع هذا كله نفكر فى توسيع شارع فى القاهرة أو غرس أشجار على جانبى الطريق فيكون مثلنا مثل من عضه الجوع ومعه قرش فاشترى به وردة .

ما أقسى حالة الأطفال البائسين ممن يموت عائلهم ولا يترك لهم شيئاً وممن

وقعوا فى أشر أسَر فقيرة ، وممن أصيبوا بأب مجرم أو أم غير صالحة ، أو ممن هدمت الأسرة عليهم بسبب الطلاق ، فأين هى الحكومة ، أو الجمعيات التى ترعاهم ، وقد يكون من بينهم المجرم الذى يخسر الأمة خسارة لا تقدر بإجرامه ، وقد يكون منهم النابغة الذى قد يسدى إلى الأمة من الخير ما لا يقدر .

ليس أمر هؤلاء مما يصح أن يترك ، فعلى الحكومات أن تضع لهم من النظم والمال ما يكفل لهم العيشة الصالحة .

الأمر الثانى من « رسالة المرأة » : المساهمة فى الخدمة الاجتماعية ، والمرأة فى هذا الباب تستطيع بما منحتها الطبيعة من قوة فى العاطفة وفضيلة الشفقة والرحمة والعطف و إصغاء الناس لهن أكثر مما يصغون للرجال — أن ينجحن فيه أكثر مما ينجح الرجال .

وأهم أبواب الخدمة الاجتماعية ثلاثة : مكافحة الفقر ، ومكافحة الجهل ، ومكافحة المرض .

والفقر فى مصر عدو خطير يصيب أكثر أفراد الشعب ، فى كل قرية أفراد معدودون هم الذين يستطيعون أن يعيشوا بدخلهم والباقون لا يجدون ما يأكلون وما يلبسون ، ولا يغرنكم القصور الفخمة والبيوت الكبيرة فهى كالشعرة البيضاء فى الفرس السوداء ، و بعض البلاد فقرها طبيعى لقلة ما تنتج وسوء البيئة الطبيعية حولها ، ولكن مصر ، ولله الحمد ، ليس فقرها من طبيعتها ولكن من سوء توزيع ثروتها من ناحية ، ومن عدم الاستغلال الجيد من ناحية أخرى ، ومن عدم صلاحية السكان لكسب العيش من ناحية ثالثة .

وفقر الشعب هو العقبة فى سبيل كل إصلاح تعليمى أو اجتماعى أو سياسى ، و إذا زال الفقر فى أمة صلحت وتقدمت فى جميع النواحى ، بل المرضين الخطيرين فى المجتمع وهما الجهل والإجرام كثيراً ما يكون سببهما الفقر ، وأسباب الفقر هى أسباب

انحطاط الإنسانية ، والفقر قد يكون سببه من الفقير نفسه لضعف كفايته العقلية والفنية والجسمية ، وقد يكون سببه من الخارج ، أعنى سوء الحالة الاقتصادية فى البلاد ، ولا أطيل فى هذا فالموضوع طويل معقد أوسعه العلماء بحثا .

ولكن موضوعنا ماذا تستطيع المرأة أن تعمل فى هذا الباب — من قديم والفقر يعالج بالإحسان ، وفكرة الإحسان مبنية على أساس أن القادر يعين غير القادر ومن رزقه الله بسطة فى المال يعين من حرمه منه ، وهذا هو الشائع إلى الآن يرى الرجل فقيرا مسكيناً أو امرأة مسكينا فيخرج من جيبه قرشاً و ينتهى الأمر ، ولكن هذه النظرة إلى الإحسان تغيرت ، وأهم تفسير فيها ناحيتين ، ناحية أن المسألة لم تعد مسألة إحسان والفقير ليس فقيراً بالقدَر والغنى ليس غنياً بالقدَر ولكنه سوء النظام الاجتماعى ، والفقير ليس يطلب إحسانا ، ولكنه يطلب حقاً له على الأمة وعلى الحكومة ، هو يطلب أن يضمن له معيشة هى أقل ما يطلب لإنسان ، له الحق أن تتكفل له الحكومة مستوى من المعيشة لا ينزل عنه فى مأكله وملبسه ومسكنه ومشربه ، هو العيش الضرورى الذى لا يصح أن يعيش أقل منه ، فإذا لم تفعل الأمة والحكومة ذلك فقد اغتصبته حقه لا أنها منعت عنه الإحسان — ولا بد أن تكونوا قد سمعتم بمشروع بيفردج وغيره من المشروعات مما أسس على هذه النظرة ، ومن أهم وسائل تحقيق ذلك الضرائب التصاعدية .

ومع هذا فالناحية الأخرى لم تنعدم وهى ناحية الإحسان ، ولكنه الإحسان المنظم لا الإحسان الفردى ، وقد قطعت الأمم الحية شوطا كبيراً فى تنظيم الإحسان وأهمه نظام « همبرج » الذى وضع للفقراء والعاطلين ومقتضاه تنظيم مكتب رئيسى فى كل مدينة للنظر فى شئون الفقراء وتقسيم المدينة إلى أقسام وتعيين مشرف أو مشرفة على الفقراء فى كل قسم وظيفته درس أسباب الفقر فى كل أسرة وإعانة العاطلين على إيجاد عمل لهم وإنشاء مدارس صناعية لأولاد الفقراء

ومستشفيات لمرضاهم ومن أراد الإحسان فليحسن إلى هذه الجمعيات لا إلى الأفراد الخ . وقد عم هذا النظام فى أوروبا كلها وأدخل عليه تعديلات كثيرة ، وأهم ما عنى به هذا النظام العناية بأولاد الفقراء أكثر مما عنى بالفقراء الكبار لأن فى إصلاحهم القضاء على الداء من أساسه .

والمرأة العربية تستطيع أن تساهم فى هذا الإحسان فتنظمه وتقوم عليه ، وقد قامت « فعلا » بقسط لا بأس به فى هذا الباب فدعت المرأة إلى التبرعات المشروعات الخيرية الكثيرة وساهمت فى الإحسان تبرعا وجمعا ، ولكن ألاحظ أنها أجادت فى تنظيم الدعوة إلى التبرعات أكثر مما أجادت فى تنظيم الإنفاق ، وحبذا لو أنشئت جمعية نسائية نموذجية تشرف على فقراء حى من الأحياء البلدية تكون مهمتها معالجة الفقر والبؤس حتى إذا جربت ونجحت عممت فى أنحاء القطر .

أما نصيب المرأة فى مكافحة الجهل فلا يزال قليلا ، وشأنهن فى ذلك شأن الرجال ، وقد وضعت الحكومة المصرية مشروعاً لمكافحة الأمية لم ينفذ بعد وهو تحت نظر وزارة الشئون الاجتماعية ونرجو — عند البدء فى تنفيذه — أن تساهم المرأة المتعلمة فيه بنصيب كبير ، فماذا يمنعها أن تتطوع لتعليم بنات الفقراء وبنات الشارع ، ويتفق كل ثلاثة أو أكثر على فتح مكتب لتعليم الأميات ، ويطلبن من وزارة الشئون إعداد المكان لهن وإمدادهن بكل وسائل التعليم وأدواته فيكون لهن فضل كبير فى مكافحة الأمية .

ثم هن يستطعن تأليف جمعيات تجوب البلاد وتلقى المحاضرات فى الشئون النسائية ، وهذا — من غير شك — يكون عملا واسع الأثر لو قامت وزارة الشئون الاجتماعية بتوزيع الراديو على القرى . إلى غير ذلك من أعمال ثقافية فى استطاعتهن القيام بها ، فحتى الآن لم نجد مجلة نسائية تخاطب المرأة المصرية فيما يفيدها .

أما الناحية الثالثة وهى مكافحة المرض فإنّا — من غير شك — نرحب بما قامت به المرأة المصرية فى مكافحة الملاريا ومكافحة السل والتمريض فى المستشفيات ولكن لا يزال أمامهن فسيحا فى هذا الباب وخصوصاً من ناحية مرض الأطفال الذين لا يستطيع آباؤهم القيام بنفقات أمراضهم .

وليس من الحق اعتذارهن بقلة المال ، فكما أن من واجبهن جمع المال من طريق التبرعات كذلك من واجبهن مطالبة الحكومة بإنشاء ما يرين إنشاءه لمصلحة الأمة . و بقيت مسألة أخيرة فى رسالة المرأة — وهى أنها الرسول الذى بعثته العناية الإلهية لنشر السعادة فى المجتمع ، وفى الحق أن ما لا يقل عن تسعين فى المائة من سعادة الأمة يرجع إلى المرأة — وقد زرت أوربا مرتين زيارتين قصيرتين فتساءلت بعدهما ما الفرق بين الشرق والغرب فكان الجواب كلمة واحدة « المرأة » .

تستطيع المرأة أن تكون سعادة الأسرة وسعادة المجتمعات و بلسما لجراح الأمة وأداة فعالة فى بناء نهضتها .

المرأة هى مبعث حياة الأمة فإذا قصرت فهى مبعث شقائها ، هى مبعث الإصلاح السياسى والاجتماعى ، هى روح الفن ، هى التى تستطيع أن تجعل الرجال رجالا ، وأن تجعل الأطفال أبناء الله لا أبناء الشيطان .

أتعلم المرأة لم خلقها الله ؟ إنما خلقها لتخلق من الرجال عظماء‌ها؟

نهضتنا الفكرية ما زالت صراعا

بين القديم والجديد

إذا أردنا أن نجمع أسباب النهضة من عهد محمد على إلى الآن فى كلمة واحدة قلنا إنها « اتصال الشرق بالغرب » فكما انبعثت شرارة من الشرق إلى الغرب فى القرون الوسطى سببت نهضة الغرب ، رد الغرب ما اقترضه فبعث شرارة إلى الشرق ألهبت حماسته ، وأشعلت غيرته ، فبدأ يقلد الغرب فى مناحى نشاطه ، و يتبعه فى اتجاهاته — حتى ليمكننا أن نلخص « منطق » قادة الفكر فى الشرق فى الجملة الآتية « إن الغرب يفعل كذا فيجب أن نفعله ، والغرب يترك كذا فيجب أن نتركه » وكلما أريد وضع نظام أو سن قانون أو بدء بمشروع تساءلوا : ماذا تفعل أوروبا فى ذلك ؟

وكان أسبق الأمم الشرقية إلى الاقتباس من أوروبا « مصر » لموقعها الجغرافى — أولا — ولسبقها فى العمل على الانفصال من سيادة الترك — ثانياً — فأخذ محمد على يحذو حذو أوروبا فى جميع مرافق الحياة ، من علمية واقتصادية وحربية وسياسية وغير ذلك . و إذا كان موضوعنا النهضة العلمية فلنقتصر عليها .

استعدت مصر لأخذ هذا الدرس عن الغرب من عهد حملة نابليون على مصر ، فكان فى حملته علماء أعلام بجانب رجاله الحربيين ، منهم الرياضى ، ومنهم الطبيعى ومنهم الأديب ، ومنهم الاقتصادى ، وقد احتك بهم بعض المصريين وشاهدوا آثارهم العلمية ، وقرأوا ما ألفوا ، ونظروا فيما جرّبوا ، كما يحكى ذلك الجبرتى فى تاريخه .

وجاء محمد على والنفوس على استعداد ما للسير فى هذا السبيل ، واستكمال ما بدأوا به من قبل ، فأدار محمد على الحركة — التى كانت بطيئة — بقوة وعنف ،

وأدخل عليها النظام بعد أن كانت مهوّشة مضطربة ، وبعد أن كانت حركة الاقتباس مقصورة على فئة قليلة جداً من المتنورين عممها حتى وصلت إلى الجندى فى الجيش والعامل فى الحقل ، ومن أبى منهم الاقتباس أجبره عليه وأنفذه بسلطانه . فقد وضع « محمد على » كل الأسس التى بنيت عليها الاتجاهات العلمية الحديثة وأهمها أمران :

١ — إرسال البعثات للتعلم فى أوروبا حتى يكونوا نواة لتعليم المصريين على النمط الأوروبى ، ولينقلوا إلى العربية أهم ما ألف فى الغرب ، فأرسل كثيرا من الشبان إلى فرنسا وبعضهم إلى إنجلترا ، واستمرت حركة البعثات إلى مختلف البلدان الأوروبية إلى اليوم ، وقد حققت — إلى حد ما — الغرض الذى أسست لأجله ، فقد نشر المبعوثون بين أفراد الأمة تعاليم أوروبا ومناهجها ، وتسلموا أهم الأعمال فى المصالح المختلفة ، فكانوا مناراً يتلقون ضياءهم من أوروبا ويعكسونه على مصر ، كما قاموا بترجمة بعض الآثار الأوروبية إلى اللغة العربية .

وإن وجّه نقد إلى هذه الحركة فهى أنها لم تؤد كل ما كان ينتظر منها ، فقد أرسل إلى أوروبا الألوف من المصريين ، وعادوا بعد أن أتموا دراستهم ، ونالوا أكبر الشهادات ، ومع ذلك لم يكن مجهودهم فى تنظيم الأعمال وإدخال الأساليب الحديثة ونقل المؤلفات القيمة يتفق وعددهم ، فحركتهم فى الترجمة حركة ضعيفة غير منظمة ، وحسبك دليلا على هذا أنه لم يقم من المصريين بعد رفاعة (باشا) ومدرسته من يسد مسده أو يغنى غناءه . ولو سار من أتى بعده على نهجه لما رأيت كتاباً هاماً أوروبياً فى مختلف العلوم والفنون لم يترجم إلى العربية . وهكذا قُل فى تنظيم الأعمال . وليس يصح أن تلقى كل المسئولية على عاتقهم ، فبعضها يرجع إلى أن الاحتلال الإنجليزى لم يكن يشجع على هذه النهضة بل كان يعمل على إعاقتها .

وأيًا ما كان فهو اتجاه على أدّى بعض واجبه وخدم الحركة العلمية خدمة لا تنكر .

٢ — وكان يقابل هذا الاتجاه ويكمله حركة أخرى ترمى إلى بعث الأدب القديم ، وقد بدأ هذه الحركة المستشرقون فبذلوا جهداً كبيراً فى جمع الكتب القيمة فى مكاتب ، كما بدأوا فى نشر أهمها ، ثم قلدتهم مصر فى هذا العمل فبدأت مطبعة بولاق فى عهد محمد على تنشر الكتب العربية القديمة ، ثم تأسست المطابع الأهلية تنشر ما لا يحصى من الكتب .

وهى مع كثرة ما تخرجه مقصرة عما يخرجه المستشرقون ، لا من ناحية العدد ، بل من ناحية المنهج ، ذلك أن أكثر ما يطبع فى مصر من الكتب القديمة ينشره التجار ، أما فى أوروبا فينشره العلماء ، وفرق كبير بين منهج العالم ومنهج التاجر ، فالعالم الأوروبى إذا نشر كتاباً رجع إلى أهم النسخ الموجودة فى العالم وقابل بعضها ببعض ، وتحرى الأمانة فى الأصل ، وبذل الجهد فى المراجعة ثم فهرس الكتاب بأعلامه وبلدانه ، ونحن — إلى اليوم — لم نبلغ هذا المبلغ فى إخراجنا إلا فى القليل النادر .

وألاحظ فى هذا الاتجاه أن حركة النشر زادت فى مصر وغيرها من البلدان العربية بقدر ما نقصت بين المستشرقين وهى حالة نغتبط بها لو أضيف إليها العناية بالنشر .

* * *

وقد أصبح لنا من هاتين الحركتين ثروة واسعة من الأدب الغربى والعلم الغربى ، وثروة واسعة من الأدب العربى والعلم العربى ، ونشأ عنهما ، وإن شئت فقل أنهما كانا رمزاً لتيارين مختلفين .

وهذان التياران المتحاذيان أحيانا ، المتعاكسان أحيانا قسما الناس فى مصر ،

إلى أقسام ، ووجهاهم وجهات مختلفة ، وطبعاهم بطوابع متباينة . منهم المغالى ومنهم المعتدل . منهم من لم يلتفت إلى التيار الآخر أى التفات ، ومنهم من اغترف منه غرفة بيده . فنشأ من ذلك تبلبل فى الألسنة ، واختلاف فى الأفكار والآراء ، وتنازع فى مناهج البحث وطرق التفكير .

هذان التياران يتنازعان الشعراء والكتاب والمؤلفين . ويتنازعان مناهج التعليم ، وطرق التفكير ، وكل مظهر من مظاهر الحركة العلمية .

فمن الشعراء من مثله الأعلى امرؤ القيس أو بشار أو أبو نواس ، ومنهم من مثله الأعلى شكسبير أو جوته .

ومن الكتاب من مثله الأعلى ابن المقفع أو الجاحظ أو الحريرى ، ومنهم من مثله فيكتور هوجو أو فولتير أو نحوهما .

بل مناهج التعليم فى مصر مضطربة بين التيارين . فهى تعلم النحو والبلاغة على نمط سيبويه والسكاكى ونحوهما ، وإن اختلفت عنهما فى الأمثلة ووضوح العبارة . وتعلم الطبيعة والكيمياء والجغرافية على نمط الكتب الافرنجية .

ومن المقننين من يرى خير مثل هو القانون الفرنسى أو الألمانى أو السويسرى ، ومنهم من يراه الشريعة الإسلامية .

ويمثل هذين التيارين الجامعة المصرية ومثلها الأعلى التعليم الأوروبى ، والجامعة الأزهرية ، ومثلها الأعلى الآداب والعلوم الإسلامية . على أن الجامعة الأزهرية بذلت بعض المحاولات فى إدخال عناصر التجديد .

وهذان الاتجاهان فى الشرق — وخاصة مصر — أوضح منهما فى الغرب ، نعم إن فى الغرب محافظين وأحراراً ولكنهما معا يدوران حول مبادئ واحدة كل فريق يرى فيها رأياً ، أما فى الشرق فالآراء متعاكسة ، وموضوعات الاتجاهين ليست واحدة ، ذلك أن الغرب قد نظر طويلا فى التراث القديم وصفى مركزه

فيه وأخذ منه ما يستحق الأخذ ، وسار به على النهج الجديد ، ولم تبق للقديم دراسة إلا للتخصص فيه على أنه أثر من الآثار .

ومن عهد محمد على إلى الآن والحرب مستعرة بين الاتجاهين ، وهى حرب هادئة أحياناً ، عنيفة أحياناً ، تظهر فى الآداب بين دعاة القديم ودعاة الجديد ، وتظهر فى الدين فيقوم لها الرأى العام ويقعد ، كالثورات التى قامت على السيد جمال الدين ومحمد عبده وعلى عبد الرازق وطه حسين ، وتظهر فى التقنين كالثورات التى قامت من قديم حول المحاكم الشرعية وتنظيمها واختصاصها .

* * *

وهنا يجب أن نتساءل : هل من مصلحة مصر والشرق عامة أن يظل فيها هـذان الاتجاهان أو أن تخنق القديم وتعيش بالجديد وحده ؟ لقد سارت تركيا على المنهج الثانى فأبادت القديم ولم تحفل به ولم تعبأ برجال الدين ، ولا برجال الأدب القديم ، ولا بحروفها القديمة ولا بزيها القديم ولا بقوانينها القديمة ، وعلى الجملة فقد أرادت أن تقضى على القديم فى كل شىء ، وعزمت أن تسير بالأمة نحو الجديد البحت ، وبدل أن يكون مثلها الأعلى مشتقاً من الاتجاهين أرادت أن يكون مثلها الأعلى مقتبساً من أوروبا وحدها ، ونزعاتها وحدها . فهل من مصلحة الشرق أن ينهج هذا المنهج ؟

أظن أن الجواب بالسلب وأن من مصلحة الشرق بقاء الاتجاهين معاً ، ذلك أن فى القديم ثروة لا تقدر ، وفى الجديد ثروة لا تقدر ، كما أن فى كل من القديم والجديد بذوراً سامة يجب إعدامها . كما أن فى أجسامنا وألواننا وعقولنا نتيجة وراثتنا وبيئتنا ، وهى تختلف عن القديم البحت والجديد البحت ، فيجب أن يكون غذاؤنا منهما معاً .

أهم واجب على قادة الرأى عملية « التنقية » تنقية القديم لنعرف خيره وشره ، وتنقية الجديد لنعرف خيره وشره .

ولكن يجب أن يسير المجددون أمام الجمع ، وخلفهم أنصار القديم ، ويجب ألا يخف المجددون خفة تدعو إلى التهور ، وألا يثقل أنصار القديم ثقلا يعوق المجددين عن السير .

ثم إن أنصار القديم لا يصح أن يستمروا على نمطهم القديم بحال من الأحوال ، فهم مكلفون كل التكليف أن يعرضوا قديمهم فى شكل جديد ، فالأدب القديم لا بد أن يعرض عرضاً جديداً ، وأؤكد أن انصراف الناس عن الأدب العربى والعلم العربى والدين أكبر سبب له سوء العرض ، فتذوق الناس الآن غير تذوقهم فيما مضى ، قد كان الناس يتذوقون طريقة « الأغانى » فى ترجمة امرئ القيس فأصبحوا لا يتذوقونها ويودون عرضاً جديداً ، يتفنن فيه كما يتفنن فى عرض الثياب فى مخازن البيع ، وكان الناس يتذوقون كتب الفقه على نمط حاشية ابن عابدين فأصبحوا يمجونها ، وأسلوب كتب الدين القديمة لا تجارى أذواق الناس فى العصر الحاضر — فيجب أن يدخل التجديد فى القديم ، وهذا ما فعلته كل الأمم فى تراثها ، كما يجب أن يلوّن جديد الأوروبيين عند نقله إلينا بما لنا من منطق خاص وأسلوب فى التفكير خاص .

إنا إن فعلنا ذلك نلنا الحسنيين ، وأخذنا خير ما فى الذخيرتين ، ووصلنا إلى الغرض من غير ثورة ، وأدركنا الغاية فى غير عنف .

مشاكل الشباب وكيف تعالج

من أكبر مظاهر المدنية الحديثة عنايتها بمظاهر الطبيعة ، وتحليلها ودرسها درساً عميقاً ، ومعالجتها على أسس علمية ، سواء فى ذلك طبيعة الكون وطبيعة المجتمع وطبيعة الإنسان — فهى تؤمن إيماناً قويا بنظرية « الأسباب » فمهما حدث فى الكون فلا بد له من سبب معقول ، ولا يحدث شىء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تسقط ورقة من أوراق الشجر ولا يهب نسيم ، ولا تموج موجة إلا بسبب . وغاية الأمر أن بعض الأسباب عرفناها وفهمناها ، و بعضها لم نعرفها ولم نفهمها . ونحن سائرون إلى معرفتها وفهمها .

ومما اتجهوا له اتجاها بديعاً نفسية الأطفال ونفسية الشبان . فالإنسان ككل كائنات العالم لا ينفعل ولا يتأثر ولا يؤثر إلا بسبب ، وهذا السبب يمكن فهمه إذا دققنا النظر ودرسنا الإنسان على أنه جزء من طبيعة الكون خاضع لقوانينها سائر على منهاجها .

إذا بكى الطفل فلا بد من سبب لبكائه ، و إذا مرض فلا بد من سبب لمرضه ، وكذلك إذا انفعل أى انفعال ، أو ساء سلوكه أو حسن ، و إذا صدق أو كذب ، و إذا كان هادئا رزينا ، و إذا كان مرحا لعوباً ، فعالم النفس يستطيع أن يعلل ذلك تعليلا معقولا — و إذا كان كذلك أمكن تربية الطفل على هذا المنهج الدقيق . فإن أنت أسلمت طفلا لعالم ماهر فى دراسة النفوس ، وقلت إنى أريده على نمط كذا أمكنه أن يخرجه لك كما تريده ، كما يستطيع الصائغ أن يخرج لك السبيكة من الذهب على النحو الذى تريده — و إذا هو لم ينجح فى ذلك كل النجاح فلأنه لم يبلغ من الخبرة مبلغ الصائغ ، ولأن علم النفس لم يتقدم تقدم فن الصياغة . نعم إن للوراثة دخلا كبيراً فى إعداد الطفل وتحديد مواهبه ،

ولكن عملها كعمل الطبيعة فى إعداد الذهب ثم يصوغها الصائغ كما شاء ، وليس يستعصى على المربى شىء إلا لجهله ببعض قوانين من يربيه .

وإذا ثبت ذلك فالتربية التى لا يكون أساسها معرفة قوانين النفس مقضى عليها بالفشل كتربيتنا نحن لأولادنا ، فالأبوان يربيانهم تبعا لتقاليد توارثاها لا حسب قواعد تعلماها . إذا كانت التربية حسبما اتفق خرج الطفل أيضاً حسبما اتفق . وأهم فارق بين الطفل الشرقى والطفل الأوروبى أن الثانى دخل العلم إلى حد كبير فى تربيته فأصلح من جسمه ومن نفسه ولم يدخل العلم فى تربية الأول إلا بقدر قليل !

بالأمس كنت أقرأ حكاية لطيفة تدل على هذه العناية ، ذهبت أم إنجليزية إلى طبيب وعالم من علماء النفس وقصت عليه أن ابنها وهو فى الثامنة من عمره أذكى طفل فى الفصل فى مدرسته ، وخير ولد فى بيته ، ولكن إذا جن الليل صرخ وبكى وإذا نام قام فزعاً ومشى وهو نائم وترنح فى مشيته وتخيل أنه يسقط على الأرض فيصرخ ، وتحاول أن تفهمه أنه نائم فى سريره فلا تفلح ، وإذا حكت له فى نهاره ما كان منه فى ليله ضحك واستغرب ، ولكنه يعود فى ليله إلى هذه الحالة المفزعة !

فحصه الطبيب النفسى فوجد جسمه سليما من كل مرض ، وصحته على أحسن حال ومنظره فى غاية الجمال ، ففكر ثم فكر ، ثم سأل الأم : من الذى ربى الولد فى صغره ومن كان ينيمه ؟ فقالت إنها كانت تسافر مع أبى الطفل وتتركه عند جدته . فسأل الجدة : كيف كانت تنيمه ؟ قالت كانت تغنيه أغنية معروفة سمعها فوجد فيها عنفا وفيها ريحا عاصفة تهز الأرجوحة ، وقالت إنها كانت تخبط على الأرض برجلها وقت الغناء لينام . فعلم الطبيب أن هذا هو السبب فى فزع الطفل ليلا ، وعالجه بأن تغنيه وقت النوم أغنية لطيفة عذبة سارة وتكررها فى لطف ورقة حتى ينام . وقد نجح الطبيب فى ذلك فذهب عن الطفل الخوف ونام فى طمأنينة وأمن .

وكم مثل هذه الحالات تعرض لأطفالنا ولا نعيرها التفاتا لأننا لا نؤمن أن لكل شيء سبباً يمكن أن يعلم .

كذلك الشأن في شبابنا ، كل ظاهرة نستحسنها أو نستهجنها فيهم لها سبب نفسي يجب أن ندرسه . والنصائح وحدها لا تغني ، لأن الأسباب إذا ظلت باقية نتجت عنها هذه الظواهر لا محالة رغم النصائح والإرشادات ، ويكون مثلنا مثل من يحارب الجيش الغازي بالدعوات ، أو الأمراض الفتاكة بالرقى والتعويذات — إنما ننجح يوم نحلل هذه الظواهر إلى عواملها الأولية وأسبابها الخفية ثم نضع العلاج لكل منها بما يناسبه .

ومن غريب الأمر أن من أكبر مشاكلنا مشكلة الشباب ، ومع هذا لا نجد بحثا علميا عميقاً وضع في هذه المشكلة . إنما نقتصر على شيئين : الشكوى والنصائح وهما لا يغنيان ، يشكو الأب في بيته من الشباب ويشكو المدرس في مدرسته من الشباب وتشكو الجامعات من الشباب ، ويشكو أصحاب الأعمال وأرباب الأموال من الشباب ، وتشكو الأمة كلها من الشباب — وتتعدد الشكاوى وتتنوع ولكن لا تبحث ، ولا تلمس الوقائع ولا يستفيض الحديث ويكتفى بالنصح .

فأمامنا الآن مشكلة الحب . هل يسمح للشاب أن يحب ؟ وهل في الإمكان نفسياً واجتماعياً ألا يحب ؟ وما الحدود التي يجب أن تحد في الحب ؟ وما طرق الوقاية من الغلو فيه ؟ لا شيء عندنا من البحوث في ذلك إلا شكوى الآباء والأمهات ورجال الدين والأخلاق . إنما نريد بحوثا صريحة جريئة تحلل فيها الحالة النفسية للشبان والحالة الاجتماعية للأمة ثم يوضع العلاج بعد ذلك لا قبله .

ولدينا مشكلة السياسة والشبان . هل من الواجب أن يشتغل الشبان بالسياسة وإلى أي حد ؟ وهل يتصلون بالأحزاب أو لا يتصلون ؟ وهل يتعارض

واجبهم العلمى والواجب السياسى ؟ وإذا تعارضا فما الموقف ؟ مسائل نواجهها كل يوم ولا باحث ، وإنما الأمر فوضى من جميع النواحى ، ترك الأمر فيها للشبان يفعلون ما يشاءون من غير بحث وكل ما يفعله الكتّاب والأدباء هو الملق ، فالشبان بنوا ، والشبان أسسوا ، والشبان هم عماد الأمة ، ونحو ذلك من الألفاظ المعسولة ، وهذا حق إلى حد ما ، ولكن هناك نغمة أخرى يجب أن توقع بجانب النغمة الأولى حتى يتم التوازن ، وهى نغمة إشعارهم بالواجب ، وذلك لا يكون إلا بعد بحث عميق ومصارحة الشبان بالحقائق فى غير مواربة ولا مجاملة .

ولدينا مشكلة الشباب العاطل . وقد اقتصرنا فيها على النصح للشبان أن ينزلوا ميادين العمل ، ولكن لم نبحث جديا سبب العطل من الناحية النفسية ، ومن الناحية الاجتماعية ومن الناحية الخلقية وكيف يمكن التغلب على البطالة .

ثم الشبان أنفسهم واقعون فى أشد الأزمات ينشدون مثلا أعلى غامضاً غير محدود ، ويسلكون لهذا الغامض مسالك غامضة ، فلو سألت أكثر الشبان عن حالهم وجدتهم ساخطين ، ثم إذا سألتهم عن سبب سخطهم لم يجيبوا إجابة صريحة واضحة . فهم يضطربون بين ما هم عليه وهو لا يرضيهم وبين أملهم فى الحياة وهو بعيد عنهم ، وهم يضطربون بين قديم رأوا عليه آباءهم وطالبوهم به وحديث يرونه فى السينما وفى الطبقات العالية وفى الجالية الأوروبية ، وهم يضطربون بين علم وسياسة ، وحب وواجب ، وإرضاء أهل وإرضاء أصدقاء ، وكل ما فعلناه أننا تركناهم فى أزماتهم يحلونها بأنفسهم من غير أن نقدم إليهم أية عناية — وقد عودهم الآباء والمعلمون والقادة ألا يصارحوهم ، فلا الشاب يجد من هؤلاء رحابة صدر فى أن يبثه آلامه ويفتح له قلبه ويشرح له أزماته ، ولا الآباء والمعلمون شجعوهم على مثل هذا ، فكان من ذلك حاجز متين بين الابن وأبيه والطالب ومربيه . فحمل عبئه وحده ، من غير أن يسعفه من هو أكثر منه تجربة . ولذلك

كثرت الضحايا لأن الأزمات فوق مقدور الشبان وهم وحدهم الذين يحاولون حلها بأنفسهم أو بأمثالهم من أصدقائهم .

* * *

لا يمكن أن نتقدم فى فهم مشاكل الشباب ووضع العلاج الصحيح لها إلا بأمور ثلاثة :

(الأول) توافر جماعة من الإخصائيين فى علمى النفس والاجتماع على دراسة نفسية الشباب و بيئاتهم دراسة علمية عميقة تمتحن فيها الأعراض ، ويرجع فيها إلى الأسباب ، وتمتحن التجارب ويوضع فيها العلاج على أسس هذه الدراسة . وما لم نفعل هذا فكل علاج نضعه يكون سطحياً ، ويكون شأنه شأن طبيب متسرع يكتفى بالمظهر الخارجي ويكتب تذكرته بناء على ذلك فيكون المريض عرضة لخطر كبير — ونحن إلى الآن لم نكوّن علماء من هذه الناحية ، فعندنا علماء نفس واجتماع ولكنهم عالمون بما فى الكتب من نظريات وقد يكون لهم فيها آراء . ولكن الذى أتمناه درجة وراء هذا وهو علماء قد درسوا هذه النظريات ثم كان لهم معمل لتطبيق هذه النظريات على أطفالنا وشبابنا ، يمتحنون ويجربون ويرصدون النتائج ويضعون الإحصائيات ، ولهم رأى شخصى بعد كل ذلك فى حالتنا نحن ووسطنا نحن لا فى الحالات الأوروبية والأوساط الأوربية . وإلى أن يكون هذا نظل متخبطين فى طرق العلاج نكتفى بموضوعات إنشائية ونصائح أدبية ووصفات أشبه ما تكون بالوصفات البلدية .

(الثانى) وجود عيادات للأزمات النفسية تشبه عيادات أطباء الجسم ، يشرف عليها إخصائيون فى النفس والاجتماع ، فقيمة النفس ليست أقل من قيمة الجسم ، وأمراض النفس قد تصل إلى حد أخطر من أمراض الجسم — والشبان فى هذا الطور محتاجون أشد الاحتياج إلى خبراء يعرفون سر أزماتهم وكيفية دوائهم .

وقد عنى بعض الإخصائيين فى أوروبا بهذه الناحية وقصوا علينا حوادث كثيرة أنقذوا بها الشبان من مشاكل يعرضهم عليهم أنفسهم حتى فى حالات يصح أن نعدها نحن حالات ترف . قال أحدهم جاءتنى فتاة تستشيرنى ، وقالت إن أمها محبة للفنون الجميلة من موسيقى وتصوير وهى تقضى كل أوقات فراغها فى ذلك ، وأباها رجل عمل يصرف أوقاته فى إدارة متجره وأعماله . وزادت الفتاة أنها ورثت عن أمها حب الموسيقى ، وورثت من أبيها حب إدارة العمل ، وهى مضطربة أشد الاضطراب بين الوراثتين ، فهى يوما تحب أن تلبث فى بيتها تعزف على آلات الموسيقى ، ويوماً تكره ذلك كل الكره وتريد أن تخرج تدير عملا اجتماعياً ، فهى لا تستقر على حال . فامتحن هذا الإخصائى أى ميليها أقوى ووصف لها علاجها .

وهكذا مئات من الحوادث تحكى وتعالج ، ونحن لا نعنى بهذه الناحية أية عناية .

(الثالث) ما أشرت إليه من قبل وهو أن هناك هوة سحيقة بين أولى الأمر والشبان ، بين المعلمين والطلبة ، وبين الآباء والشبان . ولست أقصد أن بين هؤلاء جفاء فى المعاملة ، وإنما أقصد أن الشاب لا يفتح نفسه لمعلمه وأبيه ، والمعلم والأب لا يفتحان نفوسهما للشاب فإذا تحدثوا جميعاً فحديث عام يتصل بالدنيا العامة . والدنيا التافهة ، وبجوار ذلك خزانة مغلقة يكتمها الشاب عن أستاذه وأبيه ، وإنما يفتحها لخاصة أصدقائه — فى هذه الخزانة حب وغرام وفيها خطط سياسية ، وفيها أزمات نفسية ، وعلى الجملة ففيها أخطر شىء فى حياة الشاب ، وهو لا يفتحها لمن هو أكثر منه تجربة وأوفى منه عقلا ، وأعرف منه بالأيام وأحداثها ، لا يفتحها لعالم نفسى ولا لطبيب روحى ، ولا لمعلم ولا أب ، وإنما يفتحها لشاب مثله لم تعركه الأيام ولم تعلمه الحوادث فيشير عليه بالرأى الفاشل والفكرة الصبيانية .

وتبعة هذا الجفاء ووجود هذه الهوة لا تقع على الشباب وحدهم ، بل لا بد أن

يتقدم الآباء والأساتذة والمعلمون خطوات فى ذلك ويشعروا الشبان أنهم يقدرون ظروفهم وحدة شبابهم ، وأنهم لهم ناصحون لا مسيطرون ، وأنهم يسوسونهم سياسة الطبيب لمريضه ، لا سياسة الضابط لجنوده .

وبعد فلا بد من إيجاد هذه الأنواع الثلاثة من العلاج ، والإسراع بها وإلا استفحل الداء وعز الدواء .

حديث إلى الشباب

تفضلت « مجلة الهلال » فطلبت إلى أن أتحدث هذا الشهر إلى « الشباب » فرحبت بهذا الطلب ، لأن الحديث مع الشباب وعن الشباب و إلى الشباب ، حبيب إلى النفس قريب إلى القلب . وكيف لا يكون كذلك وهم — كما قال أبو العتاهية — رائحة الجنة ، وأيامهم خير أيام الحياة ، وهى أكبر مظاهر القوة ، وأكبر مظاهر الإنسانية ، وهى فى الأيام كالربيع فى الزمان ، تغنى بها الشعراء يوم كانوا ينعمون بها ، و بكوا عليها يوم حرموا منها ، فالشباب كان شغلهم الشاغل إذا وجد وإذا فقد ، وما أكثروا من القول فى الحزن على الشيب إلا لأنهم أعظموا الشباب . ثم أين حكمة الشيوخ من قوة الشباب ، فلطالما كانت الحكمة معوقة عن العمل ، بما ملئت من حذر ، ومن دعوى بعد النظر ، بل وما الحكمة التى زعموها إلا وليدة الشباب و بفضل الشباب ، فلولا حركة الشباب الدائمة و إقدامهم فى شجاعة على الخطأ والصواب ما كانت حكمة ولا تجارب ، ولا مران ولا شيء مما يدعى المحنكون . والحق أن لا شيء فى الشيوخ يعوض ما للشبان من لمعان فى عيونهم ، وقوة فى عضلهم و يقظة فى عقلهم و يقين فى قلبهم . ليسوا بالأطفال يصعدون ولا بالشيوخ ينحدرون ، و إنما هم فى الذروة التى ليس بعدها غاية — هم حجر الزاوية وواسطة العقد فى الأمة . !

طريق المستقبل :

فى سن الشباب « ينعقد » الانسان و يتحدد قالبه ، و يكتب بنفسه قضاءه وقدره ، و يرسم خطة نجاحه وفشله ، وليس له بعد الشباب إلا تنفيذ ما رسم ، واستقبال ما قضى وقدر ، فإن حدث شيء غير عادي فبفعل الظروف لا بفعله .

وعلى الجملة فحياته بعد شبابه هي حركة « القصور الذاتى » واستمرار فى دفعة الشباب . وإذا كتب لكل إنسان تاريخ فكتب الناس متشابهة فى أن أهم فصولها فصول شبابه وليس بعد « فصل » الشباب إلا فصل « النتيجة » وهل بعد صب العجين فى القالب إلا التصلب ، أو هل بعد استكمال المقدمات إلا النتائج أو بعد انتهاء الفصول إلا الخاتمة . أو بعد انتهاء المهندس من رسم البناء والموافقة عليه إلا التنفيذ .

ولكن — وا أسفاه — يخطئ كثير من الشباب فيصب نفسه فى قالب غير القالب الذى يناسبه أو يؤلف كتاب تاريخه على غير ما خلق له ، أو يرسم هندسة بنائه ومساحة نفسه التى يقيم عليها البناء لا قوائم شكل البناء فيخرج معيباً مشوهاً ، فكثير من رجال الأعمال أضاعوا شبابهم فى دراسة نظرية بحتة . وكثير ممن حسن استعدادهم للفلسفة والنظريات البحتة أضاعوا شبابهم فى عمل يدوى ، ففقدت الأمة نبوغ هؤلاء وهؤلاء جميعاً ، وكنا كأننا فى مصنع يكنس أرضه المهندس ويهندس آلاته الكناس ، ويقوم بكل عمل فيه من لا يحسنه . وهذا أكبر سبب فى ضياع الشبان وفساد الأعمال .

فنقطة البدء فى حياة الشباب يجب أن تكون هى دراسة نفسه ، وتعرّفه موضع نبوغه ، ومواضع ضعفه ، واختيار العمل الذى يعمله ، ونوع الدراسة التى تناسبه ، وتحديد الغاية التى ينشدها . ولعل الطبيعة لم تخل أحدا من نبوغ فى ناحية من نواحى الحياة ، وإنما يميت هذا النبوغ أو يضعفه أن الشاب لا يستكشفه فيختار ما ليس له بأهل فتكون النتيجة المحتومة الفشل تلو الفشل . ويلصق ذلك بالقضاء والقدر ، وما القضاء والقدر فى هذا إلا أن بين جنبيه كنزا لم يعرف مفتاحه ، وكم بين العاطلين والبائسين ومن لم يجدوا قوت يومهم من لو اتجه وجهة صالحة لأصبح نابغة فنه أو علمه ، ولأتاه الرزق من كل مكان .

ولكن كم من الناس يموتون عطشاً فى الصحراء والماء على مقربة منهم لم يهتدوا إليه ولم يوفقوا إلى مكانه !

وليس يستطيع أى عالم أو مرشد أو ولى أمر أن يستكشف موضع النبوغ فى الشاب كما يستطيع الشاب نفسه . فنفسه بين جنبيه هو أقدر على أن يقيسها ويقيس اتجاهاتها ، وهو لو دقق النظر وأخلص النية فى تعرف جوانبها ولم تغره المطامع الخادعة والمظاهر الكاذبة لعرف سر نفسه وموضع عظمته .

صعوبات الشباب :

وليست هذه هى الصعوبة الوحيدة للشباب ، فهناك صعوبات عدة تعرضهم وتحار بهم وتدفعهم إلى الشر وتصدهم عن الخير .

من أهم هـــذه الصعوبات « الوراثة والبيئة » فهناك كثير من الشباب ورثوا الميل إلى الإجرام والميل إلى الخمر ، والميل إلى النساء ونحو ذلك عن آبائهم ، وظلت هذه الجذور الموروثة كامنة فيهم مدة صباهم حتى إذا دخلوا فى دور الشباب تحركت هذه الميول بقوة وشدة فظهرت فيهم مرعبة مزعجة .

كما أن كثيراً من الظروف السيئة تحيط بالشاب الطيب فتلتهم ميوله الطيبة وتهدم آماله وطموحه ، وتستأصل شعوره بالشرف والنبل ، وتجعل على عقله غشاوة فلا يستطيع التفكير ، وتجعل كل طموحه وكل أمله وكل تفكيره فى شهوات وضيعة . وكل يوم تقوم لنا البراهين العدة على هذا .

فمن هذه الظروف « الصداقة السيئة » فقد يكون الشاب طاهراً نقياً ، فما هو إلا أن يصاب بصديق يفتح له حديث الشر ، ويحيى فيه كوامن شهواته ، ويقص عليه مغامراته ومغامرات أمثاله فى النساء وفى الشراب ، ويستدرجه من سيجارة يدخنها ، إلى كأس يشربها ، إلى ما هو أسوأ من ذلك ، فإذا رأسه مشتعل

بالشر ، و إذا هو يطلِّق كل ما اعتنقه من مبادئ الخير ، و إذا هو لا يصلح لجد ولا لدراسة و إذ هو لا يصلح إلا لضروب الشر .

ومثل هذه الصداقة ، صداقة الكتب والمجلات والجرائد التي من هذا النوع ، فهناك أنواع من الأدب مضلة مغوية ، وكم من الشباب اتخذوا مثلهم العليا من روايات السينما الداعرة الفاتكة بالعقول الممثلة للجرائم واللصوصية ، المحركة لأسفل أنواع الشهوة ، وكذلك الكتب والمجلات والصحف والصور التي من هذا القبيل .

ومما نأسف له أن هذا النظر وهذا القول يعد عند بعض الشبان من أخلاقية القرون الوسطى لا يصح أن ينطبق على عصرهم وزمنهم . والواقع أن التجارب التي أجريت والحريات التي منحت في هذا الباب دلت على صحة أخلاقية القرون الوسطى وأصبح المعاصرون من كتاب أرقى الأمم المدنة يخشون من تهور الشباب في هذا الباب ، وأصبحوا في فزع مما يرونه من المآسي التي يرتكبها الشاب باسم الحرية .

كيف يبني الشاب نفسه :

والآن نتساءل : ماذا يجب أن يكون الشاب وكيف الوصول إلى ما يجب ؟

أول واجب على الشاب أن يبني نفسه . فينظر في ملكاته واستعداداته ويكوّن منها نفسه على أحسن وضع يمكن أن تكون عليه المواد الأولية ، والناس كلهم مختلفون في كمية الملكات والاستعدادات وكيفياتها ، ولكن كل كمية وكيفية يمكن أن يصاغ منها إنسان جيد في ناحية من النواحي ، له شخصية ممتازة نوع امتياز ، وليس يفسد هذا العمل إلا عدم القدرة على البناء ، أو عدم الاهتداء لخير الأشكال — يجب أن يبني نفسه جسمياً وعقلياً وخلقياً ، فيرسم له مثلا أعلى

محدوداً فى كل ناحية من هذه النواحى ، ويرسم خطة السير للوصول إلى هذه الغاية ولا يترك نفسه سهلا كالسفينة بلا قائد تتقاذفها الأمواج وتدفعها الرياح كما تهوى — ولا يتسنى له ذلك إلا إذا امتلأ عقيدة بخير هذا المثل ومناسبته له . وقد دلت التجارب على أن القلب لا العقل هو الذى يبنى الإنسان ويكتب تاريخه ، ويحدد مقدار نجاحه ، فلا خير فى عقل كبير لا قلب معه . وتاريخ الإنسانية يشهد أن خدمة القلوب الكبيرة لها أقوى من خدمة العقول الكبيرة . ا

وأهم ما يدعو إليه القلب ويتطلبه من الشاب أن يكون « رجلا » والرجولة وصف جامع لكثير من الصفات المحمودة : أهمها الجد فى العمل ، والشجاعة فى مواجهة الصعاب ، والحرص على المبادئ . وهذه الصفة نحن الشرقيين أحوج ما نكون إليها الآن ، وأحق صفة لكثرة الكلام فيها ، لأنى أرى فى الشباب ميلا إلى الانحدار والتحلل من الواجبات ، وعدم الاكتراث بالمبادئ ، والميوعة فى السلوك ، وهى كلها مظاهر لقلة « الرجولة » أو عدمها ، وهى أكبر سبب فيما نرى من عدم نجاح الشبان فى الأعمال الحرة وتهافتهم على وظائف الحكومة ، لأن طلب العيش فى الحكومة سهل يسير . أما العمل الحر فيتطلب جداً فائقاً ونشاطاً كبيراً وعملا شاقاً فى زمن طويل ، وأعمال العقل فى الابتكار والتفكير فى وسائل النجاح ، فإذا لم يكن الشاب مسلحاً بكل هذه الخصال فشل فشلا تاماً .

لماذا يفشل الشاب :

ولعل من أكبر أسباب هذا الفشل وعدم هذا الخلق — خلق الرجولة — أن الآباء لم يتعودوا عندنا أن يزجوا بأبنائهم الشبان فى معترك الحياة ويحملوهم عبء أنفسهم ، بل يفتحون لهم صدورهم وبيوتهم وجيوبهم حتى بعد أن يتخرجوا من المدارس العالية ، ويتركونهم فى البيت يأكلون ويشربون وينامون وينعمون ، وكل عملهم السعى فى دواوين الحكومة لعلهم يجدون لهم « وظيفة » . ولم يعتد

الآباء فينا هذه العادة الجيدة التي اعتادها الغربيون وهي أنهم منذ تعليمهم يطلبون منهم أن يصطدموا بالحياة ، ويلجئونهم أن يجدوا لهم عملا وأن يبحثوا لهم عن قوت وأنهم وقد أعانوهم على إتمام دروسهم قد أنهوا الواجب عليهم ، فوجب على الشاب أن يحمل عبء نفسه ويتعلم أن يعوم في الحياة كما يعوم في البحر ، وأن يكافح الأمواج ويحارب الصعاب ، ويبذل جهده حتى يجد قوته ، فهذا هو ما يبني الشاب حقا ويستخرج منه الرجولة . أما طريقتنا التي نسير عليها فلا نتيجة لها إلا ما نشاهد من ميوعة وتسكع على أبواب المصالح الحكومية . ومبلغ قليل يكسبه من عرق جبينه وبجده وباعتماده على نفسه خير في تكوين خلقه من عشرة أمثاله يحصلها من وظيفة حكومية أو من إعانة من والديه .

إن الشاب يحب الوظيفة لأنها عمل ميكانيكي محض ، عمل راتب كعمل الآلة يعقب رزقا محدوداً يقبضه آخر الشهر . وأشجع منه وأكبر رجولة من يغامر ويستخرج رزقه من فم الأسد ، فالأول تسلمه الوظيفة إلى الخنوع والاستسلام والتواكل وعدم الثقة بالنفس ، على حين أن جد الآخر ومشقته في تحصيل العيش يكسبه شجاعة وجرأة وطموحاً واحتمالا للصعاب .

وللوصول إلى هذا يجب أن يكون الشاب — دائماً — باسماً للحياة متفائلا لا متشائماً آملا في النجاح . فاليأس يستلزم الفشل والخيبة ، ويسمم الحياة كما يسمم « المكروب » الماء .

وأخيراً على الشاب أن يمتلئ شعوراً بأنه مكلف أن يفعل ما يستطيع لتصحيح الخطأ الذي يقع فيه الناس من جرائم وشرور ، فلا يكون في حياته أنانياً بحتاً لا ينظر إلا إلى نفسه بل هو مطالب بعد أن يبني نفسه أن يشترك في بناء أمته وفي بناء الإنسانية عامة على قدر جهده وكفاياته بخلقه وبعلمه وبماله وجاهه — على الشباب أن يكونوا قوة فاعلة دائمة في حياة أمتهم ، ويجب أن يتحملوا في الحياة

أكبر عبء لأن حيويتهم فى الأمة أقوى حيوية . وهم المقياس الصحيح لرقى الأمة أو انحطاطها . فإذا أردت أن تعرف هل ارتقت أمة أو انحطت وما مقدار هذا الرقى أو الانحطاط فاعرف الفرق بين شباب الأمة وشيوخها ، فبمقدار تفوق الشبان على الشيوخ فى العلم والخلق والصحة يكون الرقى . وبمقدار ضعفهم عن الشيوخ فى ذلك يكون الانحطاط . إن كل طبقة من طبقات الأمة لها رسالة يجب أن تؤديها وليس فى كل هذا أجدى وأنفع من أن يؤدى الشباب رسالتهم .